وقف لله تعالى
ولا يجوز بيعه

سلسلة
وقفات تربوية
في ضوء القرآن الكريم

المجلد الرابع

فبهداهم اقتده

[سورة الأنعام: ٩٠]

عبد العزيز بن ناصر الجليل

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

إلا لمن أراد طبعه وتوزيعه
مجانًا
بعد أخذ الإذن من المؤلف

الطبعة الأولى
١٤٣٩هـ

رقم الإيداع: ٢٠١٧/١٧٥٠٣

ISBN: 798-977-430-226-8

القسطاوي
للطباعة والتجليد
٠٠٢٠١٠٠١٩٩٩٥٥٥

وقف لله تعالى
ولا يجوز بيعه

الرسالة الحادية عشرة

فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ

[الأنعام: ٩٠]

عبد العزيز بن ناصر الجليّل

المقـدمـة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

فإن الله عز وجل خلق عباده حنفاء موحدين؛ ومنذ أن أهبط أبو البشر آدم عليه السلام إلىٰ الأرض، كان معه التوحيد والإيمان، واستمر التوحيد في ذريته عدة قرون حتىٰ اجتالتهم الشياطين، وانحرفت الفطر، وتراكم الشرك في النفوس؛ فاقتضت رحمة الله عز وجل إرسال الرسل إلىٰ الناس لهدايتهم وردهم إلىٰ الهدىٰ والإيمان، والخلوص من الشرك وآثاره. قال الله عز وجل: ﴿ **كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢١٣)** ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وقال الرسول ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل: « **إني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرَّمتْ**

عليهم ما أحللتُ لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي مالم أنزل به سلطاناً...»[١].

إذن فإن إرسال الرسل عليهم السلام قد بدأ مع ظهور آثار الشرك والانحراف في عقائد الناس، وهذا من رحمة الله عز وجل وفضله وحكمته، حيث لم يترك عباده هملاً تجتالهم الشياطين وتحرفهم إلىٰ الشر، بل أرسل الرسل وأنزل الكتب واختار لهذه الغاية العظيمة النبيلة أفضل خلقه وصفوة عباده.

ومنذ ذلك الوقت والتاريخ البشري يمثل صراعاً بين الحق والباطل؛ بين أتباع الهدىٰ وأتباع الضلال، بين حزب الله وحزب الشيطان، وهذا ما يظهر بوضوح للمتأمل في تاريخ البشرية حيث يمثل دور الأنبياء وأتباعهم خطاً مستقلاً مرتبطاً بعضه ببعض ويشابه بعضه بعضاً؛ الدعوة واحدة، والمنهج واحد ومواقف أهل الجاهلية منهم واحدة، فالجاهليات تشكل أمة واحدة وحزباً واحداً في مقابل أمة الإسلام ودعوة الحق وحزب الله المتمثل في الرسل وأتباعهم.

وفي كل حقبة من الزمان تسيطر فيها الجاهلية فإن البشرية تصاب بالشقاء والنكد ويسود الظلم والفساد وتبتلىٰ بالمصائب والضيق، ولكن الله عز وجل برحمته الواسعة يصطفي من عباده من يشاء لإنقاذ عباده من ظلمات الشرك والتيه والشقاء؛ فيرسل رسله لإنقاذ البشرية ولنشر الخير

---

(١) صحيح مسلم رقم (٢٨٦٥) في كتاب الجنة وصفة نعيمها.

والسعادة بين الناس؛ وذلك بإرجاع الناس إلىٰ عبادة ربهم وتوحيده وتخليصهم من الشرك وآثاره، والذي هو أعظم الظلم، وكل المصائب والويلات إنما تنبع منه وترجع إليه.

إذن فإن مهمة الرسل عليهم السلام مهمة عظيمة شريفة يجب أن يعرفها الناس، ويبرزوها ويعرفوا حقوق هؤلاء الرسل الكرام، ويحتذوا حذوهم ويهتدوا بهداهم، وخاصة من نسب نفسه إلىٰ دعوة الله عز وجل حيث يتعين عليه دراسة هذه الحياة المباركة لرسل الله عز وجل؛ ليترسم هديهم إن أراد الفوز والفلاح في الدنيا والآخرة.

وأنقل بهذه المناسبة كلاماً جيداً للإمام ابن القيم رحمه الله تعالىٰ: يبين فيه الضرورة الملحة إلىٰ إرسال الرسل ومعرفة ما يدعون إليه والأعمال العظيمة الشريفة التي قاموا بها، لعلنا نقدر لهم قدرهم، كما نقدر لما يدعون إليه قدره؛ فنأخذ به، وندعو إليه، ونتواصىٰ به.

يقول رحمه الله تعالىٰ: «ومن هاهنا تعلم اضطرار العباد فوق كل ضرورة إلىٰ معرفة الرسول، وما جاء به وتصديقه فيما أخبر به، وطاعته فيما أمر، فإنه لاسبيل إلىٰ السعادة والفلاح لا في الدنيا ولا في الآخرة إلا علىٰ أيدي الرسل، ولا سبيل إلىٰ معرفة الطيب والخبيث علىٰ التفصيل إلا من جهتهم، ولا ينال رضا الله ألبتة إلا علىٰ أيديهم، فالطيب من الأعمال والأقوال والأخلاق ليس إلا هديهم وما جاءوا به، فهم الميزان الراجح، الذي علىٰ أقوالهم وأخلاقهم توزن الأخلاق والأعمال، وبمتابعتهم يتميز أهل الضلال، فالضرورة إليهم أعظم من ضرورة البدن إلىٰ روحه، والعين إلىٰ

نورها، والروح إلىٰ حياتها، فأي ضرورة وحاجة فرضت فضرورة العبد وحاجته إلىٰ الرسل فوقها بكثير» أ.هـ[١].

وإن المتأمل في كتاب الله عز وجل يجد أن أخبار الأنبياء وصفاتهم وقصصهم مع أقوامهم وصبرهم وجهادهم، كل ذلك قد أخذ حيزاً كبيراً من القرآن الكريم كما يجد أن هذه الأخبار والقصص قد انحصر جلها في القرآن المكي - أي ما قبل الهجرة النبوية الشريفة - حيث الاستضعاف والابتلاء والتربية والتمحيص للعصبة المؤمنة في العهد المكي، وذلك حتىٰ يتأسىٰ الرسول ﷺ ومن بعده من المؤمنين بحياة الأنبياء وأتباعهم ويتعزوا بصبرهم ودعوتهم، وهذا من أهم أهداف وأغراض القصص القرآني.

يقول شيخ الإسلام رحمه الله تعالىٰ: (ولهذا قص الله علينا أخبار الأمم المكذبة للرسل وما صارت إليه عاقبتهم، وأبقىٰ آثارهم وديارهم عبرة لمن بعدهم وموعظة، وكذلك مسخ من مسخ قردة وخنازير لمخالفتهم لأنبيائهم، وكذلك من خسف به، وأرسل عليه الحجارة من السماء، وأغرقه في اليم، وأرسل عليه الصيحة، وأخذه بأنواع العقوبات؛ وإنما ذلكم بسبب مخالفتهم للرسل وإعراضهم عما جاءوا به، واتخاذهم أولياء من دونه.

وهذه سنته سبحانه فيمن خالف رسله وأعرض عما جاؤوا به

---

(١) زاد المعاد (١/١٥).

واتبع غير سبيلهم؛ ولهذا أبقىٰ الله سبحانه آثار المكذبين لنعتبر بها ونتعظ؛ لئلا نفعل كما فعلوا فيصيبنا ما أصابهم، كما قال تعالىٰ: ﴿ **إنا مُنزِلُون علىٰ أهْلِ هذه الْقرْية رِجْزًا من السماء بِما كانُوا يفْسُقُون (٣٤) ولقد تركْنا منْها آية بينةً لِقوْم يعْقِلُون (٣٥)** ﴾ [العنكبوت: ٣٤، ٣٥]، وقال تعالىٰ: ﴿ **ثُم دمرْنا الآخرين (١٣٦) وإنكُمْ لتمُرُّون عليْهِم مُصْبِحِين (١٣٧) وبِاللَّيْلِ أفلا تعْقِلُون (١٣٨)** ﴾ [الصافات: ١٣٦ - ١٣٨]، أي: تمرون عليهم نهاراً بالصباح وبالليل، ثم قال: ﴿ **أفلا تعْقِلُون** ﴾؟، وقال تعالىٰ في مدائن قوم لوط: ﴿ ... **وأمْطرْنا عليْهِمْ حِجارةً من سِجِيل (٧٤) إن فِي ذلِك لآيات لِلْمُتوسِمِين (٧٥) وإنها لبِسبِيل مُقِيم (٧٦)** ﴾ [الحجر: ٧٤ - ٧٦]، يعني: مدائنهم بطريق مقيم يراها المار بها. وقال تعالىٰ: ﴿ **أو لمْ يسِيرُوا فِي الأرْضِ فينظُرُوا كيْف كان عاقِبةُ الذِين مِن قبْلِهِمْ ...** ﴾ [فاطر: ٤٤].

وهذا كثير في الكتاب العزيز: يخبر الله سبحانه عن إهلاك المخالفين للرسل ونجاة أتباع المرسلين؛ ولهذا يذكر سبحانه في سورة الشعراء قصة موسىٰ وإبراهيم، ونوح وعاد وثمود، ولوط وشعيب، ويذكر لكل نبي إهلاكه لمكذبيهم والنجاة لهم ولأتباعهم، ثم يختم القصة بقوله: ﴿ **إن فِي ذلِك لآيةً وما كان أكْثرُهُم مُؤْمِنِين (٨) وإن ربك لهُو الْعزِيزُ الرحِيمُ (٩)** ﴾ [الشعراء: ٨، ٩]، فختم القصة باسمين من أسمائه تقتضيها تلك الصفة، وهو: ﴿ **الْعزِيزُ الرحِيمُ** ﴾ فانتقم من أعدائه بعزته، وأنجىٰ رسله

وأتباعهم برحمته»[١] أ هـ.

ويتحدث سيد قطب رحمه الله تعالىٰ عن هذه الأهداف بعد ذكر قصص الأنبياء في سورة هود فيقول: «لقد كان هذا القصص يتنزل علىٰ رسول الله ﷺ في مكة والقلة المؤمنة معه محصورة بين شعابها، والدعوة الإسلامية مجمدة فيها والطريق شاق طويل لا يكاد المسلمون يرون له نهاية! فكان هذا القصص يكشف لهم عن نهاية الطريق؛ ويريهم معالمه في مراحله جميعاً؛ ويأخذ بأيديهم وينقل خطاهم في هذا الطريق؛ وقد بات لاحباً موصولاً بموكب الدعوة الكريم علىٰ مدار التاريخ البشري؛ وبات هذا الركب الكريم مأنوساً مألوفاً لا موحشاً ولا مخوفاً!.. إنهم زمرة من موكب موصول في طريق معروف؛ وليسوا مجموعة شاردة في تيه مقطوع! وإنهم ليمضون من نقطة البدء إلىٰ نقطة الختام وفق سنة جارية؛ ولايمضون هكذا جزافاً يتبعون الصدفة العابرة!

هكذا كان القرآن يتحرك في الصف المسلم؛ ويحرك هذا الصف حركة مرسومة مأمونة...

وهكذا يمكن اليوم وغداً أن يتحرك القرآن في طلائع البعث الإسلامي، ويحركها كذلك في طريق الدعوة المرسوم..

إن هذه الطلائع في حاجة إلىٰ هذا القرآن تستلهمه وتستوحيه. تستلهمه في منهج الحركة وخطواتها ومراحلها؛ وتستوحيه في ما يصادف

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٩/٩٧، ٩٨).

هذه الخطوات والمراحل من استجابات؛ وما ينتظرها من عاقبة في نهاية الطريق.

والقرآن - بهذه الصورة - لا يعود مجرد كلام يتلىٰ للبركة [فقط] ولكن كأنه يتنزل اللحظة علىٰ الجماعة المسلمة المتحركة، لتتحرك به، وتتابع توجيهاته، وتتوقع موعود الله فيه.

وهذا ما نعنيه بأن هذا القرآن لا يتفتح عن أسراره إلا للعصبة المسلمة التي تتحرك به، لتحقيق مدلوله في عالم الواقع. لا لمن يقرأونه لمجرد التبرك! ولا لمن يقرأونه لمجرد الدراسة الفنية أو العلمية، ولا لمن يدرسونه لمجرد تتبع الأداء البياني فيه!

إن هؤلاء جميعاً لن يدركوا من هذا القرآن شيئاً يذكر. فإن هذا القرآن لم يتنزل ليكون مادة دراسة علىٰ هذا النحو؛ إنما تنزل ليكون مادة حركة وتوجيه.

إن الذين يواجهون الجاهلية الطاغية بالإسلام الحنيف؛ والذين يجاهدون البشرية الضالة لردها إلىٰ الإسلام من جديد؛ والذين يكافحون الطاغوت في الأرض ليخرجوا الناس من العبودية للعباد إلىٰ العبودية لله وحده.. إن هؤلاء وحدهم هم الذي يفقهون هذا القرآن لأنهم يعيشون في مثل الجو الذي نزل فيه، ويحاولون المحاولة التي كان يحاولها من تنزل عليهم أول مرة؛ ويتذوقون في أثناء الحركة والجهاد ما تعنيه نصوصه لأنهم يجدون هذه المعاني ممثلة في أحداث ووقائع.. وهذا وحده جزاء علىٰ

كل ما يصيبهم من عذابات وآلام. أأقول: جزاء؟! كلا. والله. إنه لفضل من الله كبير.. ﴿قُلْ بِفضْلِ اللهِ وبِرحْمتِهِ فبِذلِك فلْيفْرحُوا هُو خيْرٌ مِما يجْمعُون (٥٨)﴾..

والحمد لله العظيم رب الفضل العظيم.. »أهـ[١].

ومن الآيات الواردة في ذكر الغرض من قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام:

قوله تعالىٰ: ﴿لقدْ كان فِي قصصِهِمْ عِبْرةٌ لأُولِي الألْبابِ ما كان حدِيثًا يُفْترىٰ ولكِن تصْدِيق الذِي بيْن يديْهِ وتفْصِيل كُلِ شيْءٍ وهُدًىٰ ورحْمةً لِقوْمٍ يُؤْمِنُون (١١١)﴾ [يوسف: ١١١].

وقوله تعالىٰ بعد قصص الأنبياء في سورة هود: ﴿وكُلاً نقُصُ عليْك مِنْ أنباءِ الرُسُلِ ما نُثبتُ بِهِ فُؤادك وجاءك فِي هذِهِ الْحقُ وموْعِظةٌ وذِكْرىٰ لِلْمُؤْمِنِين (١٢٠)﴾ [هود: ١٢٠].

واليوم قد علت رايات الباطل – من ديمقراطية واشتراكية وثورية – أكثر ديار المسلمين، حتى صارت أحوال الدعاة في هذه البلدان أشبه ما تكون بحال المسلمين في العهد المكي من حيث الغربة والاستضعاف، وعظمت محنتهم جداً، ولا عجب في هذا فتلك سنة ماضية إلى يوم القيامة، لكن وجه الزلل، والأمر الجلل أن بعض هؤلاء الطيبين، وتحت وطأة الضربات

(١) في ظلال القرآن ٤/١٩٤٨. ط. الشروق [بتصرف يسير].

القاسية قد يفقد ما تعبده الله به من الصبر ومن ثم يحيد عن منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله. ولقد رأيت أن أنصح لإخواني هؤلاء فإنه وإن تباعدت بيننا الأقطار، إلا أن ديننا واحد، والدين النصيحة، فاستعنت الله عز وجل وكتبت هذه الرسالة من سلسلة الوقفات التربوية في ضوء القرآن الكريم لتبحث في هدي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والذي اكتمل وتم نوره في هدي نبينا محمد ﷺ لعل الله عز وجل أن يحشرنا في زمرتهم، ولعلنا نأخذ بهديهم الكريم ليحصل لنا ما حصل لهم من العزة والنصر والتمكين.

وقد جعلت عنوان هذه الرسالة الآية الكريمة في سورة الأنعام: ﴿ **فبِهُداهُمُ اقْتدِهْ** ﴾ والتي أمر فيها الرسول ﷺ أن يقتدي بهدي الأنبياء من قبله، حيث ذكر عز وجل مجموعة من الأنبياء الكرام عليهم السلام وفي نهاية الآيات قال تعالىٰ: ﴿ **أُولَٰئِك الذين هدىٰ اللهُ فبِهُداهُمُ اقْتدِهْ** ... ﴾ [الأنعام: ٩٠]. والأمر موجه له ﷺ ولأمته من بعده.

هذا وسأقتصر إن شاء الله تعالىٰ في هذا البحث من الأدلة علىٰ الآيات القرآنية وما صح من الأحاديث النبوية وأعرض عما سواهما من الإسرائيليات والأخبار الباطلة. أما عن مباحث هذه الرسالة فهي كما يلي:

(١) لماذا ندرس حياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؟

(٢) خصائص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

(٣) دين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام واحد ودعوتهم واحدة.

(٤) من جوانب الاقتداء بهدي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

- من هديهم في صدق الإيمان والتوحيد (وتحته مطالب).
- من هديهم في الأخلاق والسلوك (وتحته مطالب)
- من هديهم في الدعوة والتبليغ (وتحته مطالب).

(٥) الخـــاتمة.

هذه أهم مباحث الرسالة. وقبل الدخول في ذلك أود الإشارة إلىٰ أن التأسي بالأنبياء عليهم السلام هو في حقيقة الأمر تأسي بحياة نبينا محمد ﷺ وسيرته العظيمة. وإنما أردت التأكيد علىٰ أن ما جاء في هديه ﷺ ومنهجه إن هو إلا صورة كاملة لما تفرق في الأنبياء من قبله.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثلِ رجلٍ بنىٰ بيتاً فأحسنه وأجمله، إلا موْضع لبِنة من زاويةٍ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة؟ قال: فأنا اللبنة؛ وأنا خاتم النبيين**»[١].

أسأل الله عز وجل أن ينفع بهذه الرسالة، وأن يحسن القصد فيها إنه سميع مجيب.

* * *

(١) البخاري في المناقب (٣٥٣٥)، ومسلم في الفضائل (٢٢٨٦).

المبحث الأول

«لماذا ندرس حياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؟»

لما كانت حياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام هي حياة الكمَّل من الناس الذين اختارهم الله عز وجل عن علم وحكمة واصطفاهم علىٰ البشر، كان لابد أن نتعرف علىٰ هذه الحياة المباركة والتي صُنعت علىٰ عين الله تبارك وتعالىٰ، كما كان لزاماً علىٰ من أراد لنفسه النجاة في الدنيا والآخرة – فرداً كان أو جماعة – أن يدرس هذه الحياة المباركة، وبالذات في عصور الغربة والغرباء كعصرنا الحاضر؛ علّها أن تكون نبراساً لحياتنا، ونجاة لأمتنا مما هي فيه من ذلة ومهانة.

ويمكن إبراز أهمية دراسة حياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من خلال أمور كثيرة أهمها ما يلي:

الأمر الأول:

لأننا مأمورون من الله عز وجل بالاقتداء بهم والتأسي بهديهم ، وفي ذلك طاعة لله سبحانه وعبادة له قبل كل شيء. ومن هذه الآيات ما ذكره الله عز وجل في سورة الأنعام من شأن بعض أنبيائه ورسله، ثم ختم هذه الآيات بأمر الرسول ﷺ بالاقتداء بهديهم. والأمر له ﷺ أمر لأمته.

قال تعالىٰ: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٨٣) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٤) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ (٨٥) وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ (٨٦) وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٨٧) ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٨٨) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ (٨٩) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ (٩٠) ﴾ [الأنعام: ٨٣ – ٩٠].

قال الطبري رحمه الله تعالىٰ عند الآية الأخيرة: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾: «يقول تعالىٰ ذكره: «أُولَٰئِكَ» هؤلاء القوم الذين وكلنا بآياتنا وليسوا بها بكافرين، هم الذين هداهم الله لدين الحق، وحفظ ما وكلوا بحفظه من آيات كتابه والقيام بحدوده، واتباع حلاله وحرامه والعمل بما فيه من أمر الله، والانتهاء عما فيه من نهيه، فوفقهم جل ثناؤه لذلك «فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ» يقول تعالىٰ ذكره: فبالعمل الذي عملوا، والمنهاج الذي سلكوا وبالهدىٰ الذي هديناهم، والتوفيق الذي وفقناهم «اقْتَدِهْ» يا محمد أي فاعمل وخذ به واسلكه فإنه عمل لله فيه رضىً، ومنهاج من

سلكه اهتدىٰ» أهـ[١].

والأمر له ﷺ أمر لأمته لقوله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً ﴿٢١﴾﴾.

[الأحزاب: ٢١]

وقال صاحب المنار رحمه الله تعالىٰ: «فمعنىٰ الجملة علىٰ هذا: أولئك الأنبياء الثمانية عشر الذين ذكرت أسماؤهم في الآيات المتلوة آنفاً والموصوفون في الآية الأخيرة بإيتاء الله إياهم الكتا ب والحكم والنبوة، هم الذين هداهم الله تعالىٰ الهداية الكاملة، فبهداهم – دون ما يغايره ويخالفه من أعمال غيرهم وهفوات بعضهم – اقتد أيها الرسول فيما يتناوله كسبك وعملك، مما بعثت به من تبليغ الدعوة وإقامة الحجة، والصبر علىٰ التكذيب والجحود وإيذاء أهل العناد والجحود، ومقلدة الآباء والجدود، وإعطاء كل حال حقها من مكارم الأخلاق وأحاسن الأعمال، كالصبر والشكر والشجاعة والحلم والإيثار والزهد، والسخاء والبذل، والحكم بالعدل» أهـ[٢].

ومن الآيات التي ورد فيها أيضاً الأمر بالاقتداء بهدي الأنبياء قوله تعالىٰ: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ

---

(١) تفسير الطبري ت: شاكر عند الآية (٩٠) من سورة الأنعام.

(٢) تفسير المنار عند الآية (٩٠) من سورة الأنعام.

إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلاَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٤﴾﴾ [الممتحنة: ٤].

قال الشوكاني رحمه الله تعالىٰ: « وقوله تعالىٰ: ﴿فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ متعلق بأسوة أو بحسنة، أو هو نعت لأسوة، أو حال من الضمير المستتر في حسنة، أو خبر كان، و﴿لَكُمْ﴾ للبيان، ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ هم أصحابه المؤمنون. وقال ابن زيد: هم الأنبياء »اهـ[1].

ومن الآيات الواردة في الأمر بالاهتداء بهدي الأنبياء ما شرعه الله عز وجل في سورة الفاتحة في كل صلاة أن ندعوه سبحانه بأن يهدينا صراطهم المستقيم، وذلك في قوله تعالىٰ: ﴿...اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ...﴾ وأول من يدخل في وصف المنعم عليهم هم أنبياء الله تعالىٰ وأتباعهم؛ وذلك لقوله تعالىٰ بعد أن ذكر جملة من الأنبياء الكرام في سورة مريم: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٥٨﴾﴾.

[مريم: ٥٨]

---

(١) فتح القدير (٥/٢٠٦).

الأمر الثاني:

لأن حياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام هي الحياة المعصومة خاصة فيما يتعلق بالعقيدة وما أمروا بتبليغه؛ ذلك لأن الله تعالىٰ اجتباهم واصطفاهم عن علم وحكمة؛ قال تعالىٰ: ﴿ ... **وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا** ... ﴾ [مريم: ٥٨]، وقال سبحانه عن إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم الصلاة والسلام: ﴿ **إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ** (٤٦) **وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ** (٤٧) ﴾ [ص: ٤٦، ٤٧]، وقال عن نبيه موسىٰ عليه الصلاة والسلام: ﴿ ... **وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي** (٣٩) ﴾ [طه: ٣٩]، وقال عن علمه سبحانه بمن يختار من رسله: ﴿ ... **اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ** ... ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وقال سبحانه: ﴿ **اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ** ... ﴾ [الحج: ٧٥]، والآيات في ذلك كثيرة، والحاصل منها أن من اصطفاه الله عز وجل واجتباه لرسالته هم أولىٰ بالاتباع والاقتداء؛ وذلك لحفظ الله عز وجل لهم وعصمته لهم من الزلل والانحراف، ولو وقع منهم الخطأ لم يقروا علىٰ ذلك. فحري بمن هذه صفاتهم أن يُقتدىٰ بهم، وتُدرس حياتهم، ويُتعرف علىٰ هديهم؛ وذلك لضمان الاهتداء وعدم الانحراف، لهداية الله عز وجل لهم وعصمته لهم فيتم الاقتداء من المقتدين وهم في غاية الاطمئنان علىٰ صحة ما يأخذونه ويقتدون به وسلامته من الانحراف.

الأمر الثالث:

في دراسة حياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أكبر العظات والعبر للدعاة إلىٰ الله عز جل في كل مكان وزمان؛ سواءً ما يتعلق بالإيمان العظيم والتوحيد الصادق الذي عليه أنبياء الله عز وجل، أو فيما يتعلق بأخلاقهم وسلوكهم، أو بهديهم ومنهجهم وصبرهم في الدعوة والصراع مع الباطل وأهله. وإبراز هذه الجوانب من حياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام هو من أهم أغراض ورود قصص الأنبياء في القرآن الكريم؛ حيث لم تأت لمجرد التسلية والمعرفة التاريخية فقط، وإنما جاءت للاقتداء والتأسي بتوحيدهم والدعوة إليه، والتعزي بحياتهم وصبرهم وجهادهم حتىٰ لا تفتر عزائم الدعاة ويضعف صبرهم، فلهم في هذا السلف المبارك أكبر عزاء وقدوة في الثبات وشحذ الهمم.

يقول شيخ الإسلام رحمه الله تعالىٰ:

«وفي قصص هذه الأمور عبرة للمؤمنين بهم؛ فإنهم لا بد أن يبتلوا بما هو أكثر من ذلك، ولا ييأسوا إذا ابتلوا بذلك، ويعلمون أنه قد ابتلي به من هو خير منهم، وكانت العاقبة إلىٰ خير، فليتيقن المرتاب، ويتوب المذنب، ويقوىٰ إيمان المؤمنين. فبها يصح الاتساء بالأنبياء» اهـ[1].

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٥ / ١٧٨).

الأمر الرابع:

وتأتي دراسة حياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في عصرنا الحاضر ونحن في أشد الحاجة إلىٰ دراستها من أي وقت مضىٰ؛ وذلك لما يشهده عصرنا من غربة في أحوال المسلمين وفرقة بين دعاة الحق، وتسلط الأعداء، وكيد المنافقين وتخبط في بعض المناهج الدعوية ما بين يائس، ومداهن، ومستعجل. وهذا يبرز أهمية التعرف علىٰ حياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في واقعنا المعاصر لعلَّ الدراسة المتجردة الواعية لهذه الحياة المباركة أن يقي الله سبحانه بها من التخبط والانحراف، وأن يهدينا بها إلىٰ الصراط المستقيم الذي يوحد صفوفنا، ويبطل كيد أعدائنا، ويوصلنا في النهاية إلىٰ النصر والتمكين الذي نصر الله عز وجل به أنبياءه والمتبعين لهم بإحسان.

الأمر الخامس:

في دراسة حياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام تعرف علىٰ سنن الله عز وجل في التغيير، وتعرف علىٰ سننه سبحانه في الدفع والمدافعة، كما أنها تكشف للدعاة إلىٰ الله عز وجل ذلك الصراع الطويل المرير بين الحق والباطل. وفي هذا أكبر العزاء لأهل الحق؛ وذلك لإيمانهم بحتمية هذا الصراع، وأن الدولة والعاقبة في نهاية الأمر للحق وأهله. وهذا كله لا يبرز بوضوح كما يبرز في حياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وصراعهم مع أقوامهم: بالحجة والبيان، والهجرة والجهاد حتىٰ أتاهم الله تعالىٰ بنصره

وتمكينه؛ قال تعالىٰ: ﴿ ... وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٢٥١) ﴾ [البقرة: ٢٥١]، وقال تعالىٰ: ﴿ ... وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) ﴾ [الحج: ٤٠]، وقال تعالىٰ: ﴿ ... وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠) ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، وقال سبحانه عن السنن: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧) ﴾ [آل عمران: ١٣٧]. وإن في التعرف علىٰ هذه السنن الربانية لأعظم فائدة في تجنب الأخطاء وتوقي موارد الهلكة، ومعرفة أسباب النصر والتمكين.

يقول الإمام ابن تيمية رحمه الله تعالىٰ: « ومن هذا الباب صارت قصص المتقدمين عبرة لنا، ولولا القياس واطراد فعله وسنته لم يصح الاعتبار بها؛ لأن الاعتبار إنما يكون إذا كان حكم الشيء حكم نظيره؛ كالأمثال المضروبة في القرآن »أهـ[1].

ومن السنن التي يمكن التعرف عليها من خلال دراسة حياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ما يلي:

---

(١) جامع الرسائل ص: (٥٥).

أ- سوء عاقبة المكذبين للرسل وإهلاكهم.

ب- نصره سبحانه لعباده المؤمنين.

جـ- مداولة الأيام بين الناس من الشدة إلىٰ الرخاء.

د- زوال الأمم بسبب الترف والفساد وفشو الظلم والتجبر علىٰ الناس.

و- أن البشر يتحملون مسئوليتهم في الخير والشر.

ز- أن انهيار الأمم وهلاكها يكون بأجل.

ح- أن الابتلاء للمؤمنين سنة جارية.

ط- تقرير سنة التدافع و الصراع بين الحق والباطل.

وستأتي دراسة مفصلة لبعض هذه السنن في مبحث قادم إن شاء الله تعالىٰ. (انظر لمزيد من التفصيل كتاب منهج كتابة التاريخ الإسلامي للدكتور السلمي (٥٨ - ٧٤).

الأمر السادس:

ولعل في دراسة حياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بصدق ورغبة في اتباع هديهم سبيلاً إلىٰ الانتظام في سلكهم والسير في قافلتهم المباركة، ولعل الله عز وجل أن يلحق من هذه نيته بركبهم الميمون، وأن يحشره في زمرتهم، فيصدق عليه قول الله تعالىٰ: ﴿**وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ**

مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾

[النساء: ٦٩، ٧٠]. نسأله سبحانه أن يفيض علينا رضاه وجنته، وأن ينعم علينا باللحوق بهذه الصفوة المباركة باتباعنا لهم، وحبنا إياهم، وإن قصرت أعمالنا وأحوالنا عنهم كثيراً.

فعن أنس رضي الله عنه: «أن رجلاً سأل الرسول ﷺ عن الساعة، فقال: متىٰ الساعة؟ قال: «**وما أعددت لها ؟**» قال: لا شيء إلا أني أحب الله ورسوله، فقال: «**أنت مع من أحببت**». قال أنس: فأنا أحب النبي ﷺ وأبا بكر وعمر وأرجو أن أكون معهم بحبي إياهم، وإن لم أعمل أعمالهم»[1].

يعلِّق الشيخ السعدي رحمه الله تعالىٰ علىٰ صفات عباد الرحمن الواردة في آخر سورة الفرقان – ورسل الله عليهم الصلاة والسلام أولىٰ من تصدق عليهم هذه الصفات – فيقول: «ما أعلىٰ هذه الصفات، وأرفع هذه الهمم، وأجل هذه المطالب، وأزكىٰ تلك النفوس، وأطهر تلك القلوب، وأصفىٰ هؤلاء الصفوة، وأتقىٰ هؤلاء السادة... ولله منّة الله علىٰ عباده، أن بين لهم أوصافهم، ونعت لهم هيئاتهم، وبين لهم هممهم، وأوضح لهم أجورهم؛ ليشتاقوا إلىٰ الاتصاف بهم، ويبذلوا جهدهم في ذلك، ويسألوا الذي منّ عليهم وأكرمهم – الذي فضْلُه في كل مكان

(١) البخاري (٦١٦٧) في الأدب، ومسلم (٢٦٣٩) في البر والصلة.

وزمان، وفي كل وقت وأوان – أن يهديهم كما هداهم، ويتولاهم بتربيته الخاصة كما تولاهم، فاللَّهم لك الحمد وإليك المشتكىٰ وأنت المستعان، وبك المستغاث، ولاحول ولا قوة إلا بك. لا نملك لأنفسنا نفعاً ولا ضراً، ولا نقدر علىٰ مثقال ذرة من الخير إن لم تيسر ذلك لنا، فإنا ضعفاء عاجزون من كل وجه. نشهد أنك إن وكلتنا إلىٰ أنفسنا طرفة عين وكلتنا إلىٰ ضعف وعجز وخطيئة، فلا نثق ياربنا إلا برحمتك التي بها خلقتنا ورزقتنا وأنعمت علينا بما أنعمت من النعم الظاهرة والباطنة، فارحمنا رحمة تغنينا بها عن رحمة من سواك، فلا خاب من سألك ورجاك»[1].

* * *

(١) تفسير السعدي (٣/٤٥٥).

المبحث الثاني

«خصائص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام»

الأنبياء عليهم الصلاة والسلام هم صفوة البشر وسادتهم، وهم من بني آدم لهم خصائص البشر وصفاتهم لا يخرجون عن صفتهم البشرية، ولكن الله عز وجل اصطفاهم وأنعم عليهم باختيارهم رسلاً إلىٰ الناس، وخصهم لذلك ببعض الخصائص والصفات التي لا يشترك معهم بقية البشر فيها. وهذه الخصائص لا تخرجهم عن بشريتهم وعبوديتهم لله عز وجل؛ قال تعالىٰ علىٰ لسان بعض رسله في مجادلتهم لأقوامهم: ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١) ﴾ [إبراهيم: ١١].

ولله عز وجل الحكمة البالغة في كون الأنبياء من البشر؛ فلو لم يكونوا كذلك لم يكن هناك مجال للاقتداء بهم والتأسي بأحوالهم، وما خفي علينا من الحكم أكثر.

وسأتطرق في هذا المبحث لبعض خصائص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لعلنا نعرف لهم حقهم ونقدر لهم قدرهم، فنبذل لهم من الأدب والحب والولاء ما يستحقونه وما يلزم ذلك من الاتباع والتأسي بحياتهم وهديهم.

وقبل ذكر هذه الخصائص فإنه يحسن أن نلم ببعض لوازم بشرية الرسل والتي استنكرها كل قوم علىٰ نبيهم وذلك كما في قوله تعالىٰ: ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلاَّ أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولاً ﴿٩٤﴾ ﴾ [الإسراء: ٩٤].

وعجباً للقوم الكافرين كيف لم ينتبهوا لنعمة الله عز وجل بأن جعل الرسول بشراً من جنسهم؛ فجحدوا هذه النعمة واستغربوها مع ما فيها من اللطف والرفق بالعباد؛ حيث أرسل إليهم رسلاً من جنسهم ليفقهوا عنهم ما يبلغونهم عن الله تعالىٰ، ويتمكنوا من القيام بما يُدعون إليه، ولو بُعث إلىٰ الناس رسلٌ من الملائكة أو من غير جنسهم لما استطاع الناس الفقه عنهم والأخذ عنهم، ولقالوا: هم من جنس غيرنا فلا نقبل ولا نفقه عنهم. فرجع الإعراض في الأول والآخر إلىٰ الهوىٰ نعوذ بالله من الهوىٰ.

ومن لوازم بشرية الرسل عليهم الصلاة والسلام:

١- الاتصاف بما تتصف به الطبيعة البشرية من كونهم جسداً يحتاجون إلىٰ الطعام والشراب والنكاح، كما أن لهم أزواجاً وذرية وآباء وأمهات وأقارب وأصحاباً.

٢- يصيبهم ما يصيب البشر من الآفات والأمراض والمكاره والسهو والنسيان والنوم.

٣- يرضون ويغضبون ويفرحون ويحزنون.

٤- يتعرضون للابتلاء كما يتعرض البشر؛ بل إن الأنبياء أشد الناس بلاءً.

٥- لا يعلمون الغيب إلا ما علمهم الله عز وجل.

٦- يقومون بأعمال البشر والأشغال التي يمارسها البشر كالرعي والتجارة وصناعة السيوف والدروع وغيرها من المهن البشرية.

٧- ليس فيهم شيء من خصائص الألوهية ولا الربوبية بل هم عبيد لله تعالىٰ، حققوا العبودية علىٰ أكمل وجه، وتبرأوا من حولهم وقوتهم، واعتصموا بالله وحده، وفوضوا أمورهم إليه.

٨- ومع اشتراكهم مع البشر في صفة البشرية فلقد حققوا الكمال البشري في أرقىٰ صوره؛ لأن الله عز وجل اصطفاهم واجتباهم ورباهم علىٰ عينه؛ فجاءت قلوبهم أطهر البشر قلوباً، وعقولهم أزكىٰ البشر عقولاً وقريحة، وأخلاقهم أكمل البشر وأزكاهم أخلاقاً، ومعرفتهم بربهم وعبادتهم له سبحانه أكمل البشر معرفة وعبودية وإيماناً؛ بل حتىٰ في الصورة الظاهرة الخلقية كانوا أكمل البشر أجساماً وأجملهم صورة، وصدق الله العظيم: ﴿ ... **اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ** ... ﴾.

[الأنعام: ١٢٤]

وهذه الصفات السابق ذكرها هي من مقتضيات البشرية التي يشتركون مع البشر فيها، ولكن الله عز جل بعلمه الشامل وحكمته البالغة خص هؤلاء الصفوة من البشر بنعمة النبوة والرسالة، وخصهم لأجلها

بصفات وخصائص تفردوا بها عن سائر البشر، وفضلوا عليهم، واستحقوا من أجلها إجلال الناس لهم، ومحبتهم إياهم، وطاعتهم لهم، واتباعهم لمنهجهم وهديهم العام، ووجب علىٰ كل قوم طاعة نبيهم في شريعته الخاصة بهم. ويمكن إجمال هذه الخصائص فيما يلي:

(١) اصطفاؤهم بالوحي والرسالة:

قال تعالىٰ: ﴿ **اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾** ﴾ [الحج: ٧٥]، وقال تعالىٰ لرسوله ﷺ: ﴿ **قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ...** ﴾ [الكهف: ١١٠].

وهذا الوحي يترتب عليه أمور يتميزون بها عن الناس كتكليم الله عز وجل لبعضهم، ونزول الملائكة عليهم، وتعريف الله سبحانه لهم ببعض الغيوب الماضية أو المستقبلة، أو إطلاعه سبحانه لبعضهم علىٰ شيء من عالم الغيب كما حصل ذلك للرسول الله ﷺ في الإسراء والمعراج. وهذه أكبر وأعظم صفات الأنبياء التي تفردوا بها، وأنعم الله سبحانه بها عليهم، وهذه الخاصية هي التي توجب علىٰ العباد طاعة أنبيائهم وقبول ما يأتون به ويأمرون وينهون؛ لأنه وحي من عند الله عز وجل أمر الأنبياء بإبلاغه للناس، وهذا بدوره يوجب علىٰ الناس توقير أنبيائهم وأقوالهم وتوجيهاتهم، ويمنع من التقدم عليهم بقول أو فعل.

(٢) العصمة:

وهذه خاصية ثانية انفرد بها الأنبياء عليهم الصلاة والسلام عن البشر، وهي من لوازم الوحي والرسالة التي أكرم الله سبحانه بها أنبياءه فجعلهم

معصومين فيما يبلغونه للناس من العقائد والأحكام. ولو وقع أحدهم في خطأ قولي أو عملي، فمن لوازم العصمة أن الله عز وجل لا يقرّه علىٰ هذا الخطأ بل ينبهه إلىٰ ذلك ويدله إلىٰ الصواب والحق ، فيُتدارك الخطأ في وقته ويفيء النبي من ذلك بأسرع وقت؛ ويكون حاله بعد التوبة أكمل من حاله قبل وقوعه في الذنب أو الخطأ؛ يقول شيخ الإسلام رحمه الله تعالىٰ: «واعلم أن المنحرفين في مسألة العصمة علىٰ طرفي نقيض، كلاهما مخالف لكتاب الله من بعض الوجوه: قوم أفرطوا في دعوىٰ امتناع الذنوب، حتىٰ حرفوا نصوص القرآن المخبرة بما وقع منهم من التوبة من الذنوب، ومغفرة الله لهم، ورفع درجاتهم بذلك. وقوم أفرطوا في أن ذكروا عنهم ما دل القرآن علىٰ براءتهم منه، وأضافوا إليهم ذنوباً وعيوباً نزههم الله عنها. هؤلاء مخالفون للقرآن وهؤلاء مخالفون للقرآن، ومن اتبع القرآن علىٰ ما هو عليه من غير تحريف كان من الأمة الوسط مهتدياً إلىٰ الصراط المستقيم؛ صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين»[1] أهـ.

والذي يعنينا هنا هو عصمة منهجهم وهديهم لأنه وحي من الله عز وجل. وهذا يكفل لسالكه السلامة من الخلل والانحراف، ويضمن له النجاة والفوز والتمكين لأنه يلقي في قلوب المتبعين له الطمأنينة والثبات والتضحية: لأنه منهج معصوم لا يعتريه ما يعتري المناهج البشرية من خلل وقصور وانحراف.

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٥/ ١٥٠).

وينبغي قبل أن ننهي الحديث حول هذه المسألة التنبيه علىٰ مسألتين هامتين:

الأولىٰ: وجوب التأدب مع أنبياء الله عز وجل ومعرفة حقهم وبالأخص مع من بدر منه بعض الأخطاء التي لم يقرهم الله عز وجل عليها بل وفقهم لتركها والتوبة منها. حيث إن هذا لا ينافي عصمتهم ولا ينقص من قدرهم وكمالهم؛ لأن الله عز وجل تاب عليهم واجتباهم وهداهم، ومن ذلك قوله ﷺ عن نبي الله يونس عليه الصلاة والسلام: « **لا ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متىٰ** »[1] فالحذر الحذر من تنقصهم وإساءة الظن بهم.

الثانية: الحذر من الروايات الإسرائيلية التي يرويها كثير من المفسرين في قصص الأنبياء في القرآن وما في بعضها من إساءة الظن والأدب بأنبياء الله ورسله ومنافاتها لعصمتهم مع أنه لا أصل لها؛ فهي مردودة سنداً ومتناً، فجميع الأخبار الماضية لا نقبل منها في تفسير القرآن إلا ما جاء في القرآن الكريم أو السنة الصحيحة، وما سواهما فمردود ومرفوض لأنه رجم بالغيب.

يقول الشيخ السعدي رحمه الله تعالىٰ: « وقد تقدم أنه لا يجوز تفسير كتاب الله بالأخبار الإسرائيلية، ولو علىٰ تجويز الرواية عنهم، بالأمور التي لا يجزم بكذبها، فإن معاني كتاب الله يقينية، وتلك أمور لا تصدق

---

(١) البخاري (٣٣٩٥) في الأنبياء ومسلم في الفضائل رقم (٢٣٧٧).

ولا تكذب فلا يمكن اتفاقهما » أهـ[١].

(٣) تنام أعينهم ولاتنام قلوبهم :

عن أنس رضي الله عنه في حديث الإسراء : « **والنبي نائمة عيناه، ولا ينام قلبه، وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم** »[٢].

وقد صح عنه ﷺ أنه قال : « **إنا معاشر الأنبياء تنام أعيننا ولا تنام قلوبنا** »[٣] وينبني علىٰ هذه الخاصية أن رؤيا الأنبياء حق ووحي يتبع.

(٤) تخييرهم عند الموت :

عن عائشة رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **ما من نبي يمرض إلا خير بين الدنيا والآخرة** »[٤]. وسُمع النبي ﷺ في شكواه التي قبض فيها يقول : « **مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين** »[٥].

(٥) يقبر النبي حيث يموت :

صح عنه ﷺ قوله : « **لم يقبر نبي إلا حيث يموت** »[٦] ولهذا فإن

---

(١) تفسير السعدي (٢ / ١٣٠).

(٢) البخاري في المناقب (٣٥٧٠).

(٣) رواه ابن سعد في الطبقات (١ / ١٧١) وانظر السلسلة الصحيحة (١٧٠٥).

(٤) البخاري في التفسير (٤٥٨٦)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٤٤).

(٥) البخاري في التفسير (٤٥٨٦).

(٦) رواه الإمام أحمد في مسنده وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٢٠١).

الصحابة رضي الله عنهم دفنوا الرسول ﷺ في حجرة عائشة رضي الله عنها حيث قبض.

(٦) لا تأكل الأرض أجسادهم:

وهذا من إكرام الله عز وجل لأنبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام فمهما طال الزمان وتقادم العهد تبقىٰ أجسادهم محفوظة من البلىٰ، وهذا قد ثبت عنه ﷺ في قوله: «**إن الله حرم علىٰ الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء**»(١).

(٧) أحياء في قبورهم:

صح عنه ﷺ أنه قال: «**الأنبياء أحياء في قبورهم يصلون**»(٢)، كما ثبت عنه ﷺ أنه قال: «**مررت علىٰ موسىٰ ليلة أسري بي عند الكثيب الأحمر وهو قائم يصلي في قبره**»(٣).

أما عن كيفية هذه الحياة فهذا أمر غيبي لا مجال للعقل فيه، فما دام أنه صح عن رسول الله ﷺ فيجب الإيمان به من غير تكييف، ولكن مع إيماننا بأنها حياة برزخية ليست كحياتهم التي عاشوها في الدنيا، فلا يجوز سؤالهم في قبورهم، ولا طلب المدد منهم فإنهم لا ينفعون ولا يضرون قال تعالىٰ: ﴿**وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ...**﴾.

[يونس: ١٠٦]

---

(١) أبو داود بنحوه في الصلاة (١٠٤٧)، وهو في صحيح أبي داود (٩٢٥).

(٢) انظر السلسلة الصحيحة رقم (٦٢١).

(٣) مسلم كتاب الفضائل (٢٣٧٥).

(٨) لايورثون بعد موتهم:

عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنا معشر الأنبياء لا نورث، ما تركت بعد مؤنة عاملي ونفقة نسائي صدقة**»(١).

والروايات التي عند البخاري ومسلم ليس فيها «إنا معشر الأنبياء» وإنما هي بلفظ: «**لا نورث ما تركنا صدقة**»(٢).

وقال الإمام ابن حجر رحمه الله تعالىٰ بعد شرحه لهذا الحديث: (وأما ما اشتهر في كتب أهل الأصول وغيرهم بلفظ: «**نحن معاشر الأنبياء لا نورث**» فقد أنكره جماعة من الأئمة، وهو كذلك بالنسبة لخصوص لفظ «**نحن**» لكن أخرجه النسائي من طريق ابن عيينة عن أبي الزناد بلفظ «**إنا معاشر الأنبياء لا نورث**»(١) الحديث أخرجه عن محمد بن منصور عن ابن عيينة عنه، وهو كذلك في مسند الحميدي عن ابن عيينة، وهو من أتقن أصحاب ابن عيينة فيه، وأورده الهيثم بن كليب في مسنده من حديث أبي بكر الصديق باللفظ المذكور، وأخرجه الطبراني في الأوسط بنحو اللفظ المذكور، وأخرجه الدارقطني في العلل من رواية أم هانئ عن فاطمة رضي الله عنها عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه بلفظ: (إن الأنبياء لا يورثون).

---

(١) رواه النسائي في الكبرىٰ من طريق محمد بن منصور (٦٣٠٩) ولكنه حديث آخر وبإسناد آخر، ورواه الإمام أحمد في المسند (٢/ ٤٦٣)، وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح (٩٩٧٣). وكلاهما بلفظ: «معشر» بدلاً من: «معاشر».

(٢) البخاري في مواضع عديدة منها [١٢/ ٧ (٦٧٣٠) فتح]، ومسلم من حديث عمر (١٧٥٧).

قال ابن بطال وغيره: ووجه ذلك – والله أعلم – أن الله بعثهم مبلغين رسالته وأمرهم أن لا يأخذوا علىٰ ذلك أجراً كما قال تعالىٰ: ﴿ ... **قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا** ... ﴾ [الشورىٰ: ٢٣]، وقال نوح وهود وغيرهما نحو ذلك، فكانت الحكمة في أن لا يورثوا لئلا يظن أنهم جمعوا المال لورثتهم. قال تعالىٰ: ﴿ **وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ** ... ﴾ [النمل: ١٦]. حمله أهل العلم بالتأويل علي العلم والحكمة وكذا قول زكريا: ﴿ ... **فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي** ... ﴾ [مريم: ٥، ٦] وقد حكىٰ ابن عبدالبر أن للعلماء في ذلك قولين، وأن الأكثر علىٰ أن الأنبياء لا يورثون »أهـ[١].

وقال الساعاتي – رحمه الله تعالىٰ – في الفتح الرباني: (قال العلماء: والحكمة في أنهم عليهم الصلاة والسلام لا يورثون أنهم لو وُرثوا لظن أن لهم رغبة في الدنيا لوارثهم، فيهلك الظان، أو لئلا يتمنىٰ ورثتهم موتهم فيهلكون، أو لأن النبي ﷺ كالأب لأمته فيكون ميراثه للجميع، وهو معنىٰ الصدقة العامة)[٢] أهـ.

(٩) إعداد الله لهم وتهيئتهم لرسالته:

لقد أكرم الله عز وجل أنبياءه ورسله وخصهم بمزيد عناية وتوفيق وأخلاق عالية لم تكتمل لغيرهم من البشر، وذلك لتهيئتهم لقيادة الأمم وسياسة الشعوب؛ فخصهم الله بأخلاق سامية وآداب عالية وحكمة بالغة وعزائم وعقيدة صحيحة. ولنأخذ مثالاً علىٰ ذلك عناية الله عز وجل بنبيه موسىٰ عليه الصلاة والسلام وتهيئته للرسالة قبل إرساله وتأييده له بعدها،

(١) فتح الباري (١٢/٨).
(٢) الفتح الرباني ١٥/١٩٢.

حيث يقول عز وجل عنه : ﴿ ... وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي (٣٩) ﴾ [طه: ٣٩].

يقول الشيخ عبدالرزاق عفيفي – رحمه الله تعالىٰ – في وصفه لحياة موسىٰ عليه السلام قبل الرسالة: «هذه حلقة أولىٰ من حياة موسىٰ، كلها عبر وعظات وآيات بينات علىٰ سنته تعالىٰ في إعداد أنبيائه قبل الرسالة فمنها:

أولاً: أن الله سبحانه جعل نجاته مما أصاب غيره من أبناء قومه فيما يراه الناس دماراً وإلقاء بالنفس إلىٰ التهلكة ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧) فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (٨) ﴾ [القصص: ٧، ٨].

ثانياً: أن الله سبحانه كتب لموسىٰ حياة سعيدة في بيت من يخشىٰ عليه منهم، فعاش بين أظهرهم عيشة الملوك ﴿ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٩) ﴾ [القصص: ٩].

ثالثاً: أن الله حرم عليه تحريماً كونياً أن يرضع من امرأة سوىٰ أمه، فكان ذلك فيما يرىٰ الناس بلاءً أحاط به، وهو في نفس الأمر كمال اللطف من الله والرحمة بموسىٰ ليرجعه إلىٰ أمه وهم لا يشعرون، فاجتمع له إلىٰ السلامة والنجاة عطف الأمهات وعز الملوك، ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (١٢) فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ

﴿أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾ [القصص: ١٢، ١٣].

وهناك سلسلة أخرىٰ من حياة موسىٰ قبل الرسالة تضمنت الكثير مما حباه الله به من العلم والحكمة، والمروءة والنجدة، ونصر المظلوم والأخذ علىٰ يد الظالم، والعطف علىٰ الضعيف، وقوة الإيمان بالله، والصدق في الالتجاء إليه والتوكل عليه، والتواضع مع عزة النفس، وغير ذلك من مكارم الأخلاق التي يُعِدُّ الله بها من يختاره للرسالة وقيادة الأمم، ولخص ذلك فيما يأتي:

أولاً: حفظ الله علىٰ موسىٰ صفاء روحه وسلامة فطرته، فمع أنه عاش في أوساط ظلم وطغيان لم يتأثر بما يتأثر به من قضىٰ أيامه الأولىٰ من حياته في بيئة استشرىٰ فيها الفساد، وطبعت بطابع الجبروت والاستبداد، ولم يصب بما يصاب به أبناء الوجهاء، ومن يتقلب في النعمة ورغد العيش غالباً من الجهل والاستهتار أو الرخاوة والخلاعة والمجون، بل صانه الله عن كل ما يشينه، وآتاه العلم النافع والحكمة البالغة وسداد الرأي، كما حفظ عليه نعمته من قبل في بدنه، ﴿**وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾**﴾ [القصص: ١٤].

ثانياً: جبل الله نبيه موسىٰ علىٰ الحزم والأخذ بالقوة في نصرة المظلوم؛ يتجلَّىٰ ذلك من الخصومة التي كانت بين إسرائيلي وفرعوني وإنصافه للمظلوم، كما طبعه الله علىٰ الرفق بالضعيف والعطف عليه ومَدّ يدِ المعونة إليه؛ يتبين ذلك فيما كان منه من النجدة حينما ورد ماء مدين، فوجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال: ما خطبكما؟ قالتا: لا نسقي حتىٰ يصْدر الرِّعاء وأبونا شيخ كبير فسقىٰ

لهما، فجمع له بين شدة البطش بالظالمين وكمال الرفق بالمستضعفين.

ثالثاً: كان من آثار عناية الله بموسى ورعايته له أن قوىٰ فيه الوعي الديني، واستحكمت فيه الصلة بينه وبين ربه، فأحب ما يحبه الله من العدل والإنصاف، وكره ما يبغضه الله من الظلم والعدوان؛ لذلك فزع إلىٰ ربه واعترف بظلمه لنفسه حينما قضىٰ القبطي نحبه من وكزته، وأسرع في الأوبة إليه من ذنبه، فغفر الله له، فأخذ علىٰ نفسه عهداً لا يكون ظهيراً للمجرمين، شكراً لله علىٰ نعمته ووفاءً له بما غفر من ذنبه ﴿**قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ** (١٦) **قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِّلْمُجْرِمِينَ** (١٧)﴾ [القصص: ١٦، ١٧].

رابعاً: فاض قلبه إيماناً بالله، وعظمت ثقته به وتوكله عليه فقصد إليه وحده في غربته وحيرته رجاء أن يهديه سواء السبيل ﴿**وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ** (٢٢)﴾ [القصص: ٢٢]، ولما اشتدت به الحاجة وأخذ منه الجوع مأخذه توجه إلىٰ ربه وسأله من فضله، وأبت عليه عزة نفسه أن يشكو حاجته لغيره، أو يُعَرِّض لمن سقىٰ لهما بطلب الأجر ﴿**فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ** (٢٤)﴾ [القصص: ٢٤]، وقد استجاب الله دعاءه وهيأ له بيئة صالحة يحيا فيها حياة طيبة؛ فقد عرض عليه شعيب – لما عرف عنه من القوة والأمانة – أن يزوجه إحدىٰ ابنتيه علىٰ أن يرعىٰ له الغنم ثماني حجج، فإن أتم عشراً كان ذلك مكرمة منه، فالتزم موسىٰ بذلك، ولم يمنعه ما كان فيه أولا من رغد العيش وحياة الملوك

أن يكون أجيراً يأكل ويتزوج من كسب يده، وأشهد ربه علىٰ ذلك ﴿ **قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٢٨)** ﴾ [القصص: ٢٨]، وقد ثبت أنه أتم أبعد الأجلين، فدل علىٰ أنه طبع علىٰ حب الخير وفعل المعروف »أهـ[١].

* * *

(١) الحكمة من إرسال الرسل ص ٧٨ – ٨٠.

المبحث الثالث

«دين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام واحد ودعوتهم واحدة»

قال الله عز وجل: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ** (٢٥) ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

والإسلام دين الأنبياء جميعاً. فمنذ أن أُهبط آدم عليه الصلاة والسلام ودينه الإسلام ودعوته إلىٰ الإسلام الذي هو الاستسلام لله عز وجل وتوحيده وعبادته وحده لا شريك له. ثم استمر الإسلام في ذريته عشرة قرون حتىٰ ظهر الشرك أول ما ظهر في قوم نوح؛ فبعث الله نبيه نوحاً عليه السلام بالإسلام. ثم بعث الله عز وجل رسله تترىٰ مبلغة دين الإسلام إلىٰ أقوامهم كلما ظهر الشرك وانطفأت أنوار الإسلام.

قال تعالىٰ: ﴿ **إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ ...** ﴾ [آل عمران: ١٩] إذن فإن دين الإسلام وتاريخ الإسلام معناه العام وجد مع وجود الإنسان علىٰ هذه الأرض، وهو دين الأنبياء جميعاً. أما الإسلام بمعناه الخاص فهو الذي بعث به محمد ﷺ جامعاً فيه بين الإسلام العام - الذي هو التوحيد ونبذ الشرك - وبين الأحكام الشرعية لهذه الأمة؛ حيث أحل لها الحلال، وحرم عليها الحرام، ووضع عنها الإصر والأغلال التي كانت علىٰ من قبلها فجاءت شريعة كاملة ميسرة شاملة خاتمة للشرائع صالحة لكل زمان ومكان، وهذا هو معنىٰ قوله ﷺ: «**أنا أولىٰ الناس بعيسىٰ ابن مريم في**

الدنيا والآخرة، والأنبياء إخوة لعلات أمهاتهم شتىٰ ودينهم واحد»[١] حيث يوضح هذا الحديث أن الأنبياء كالأبناء لأمهات شتىٰ وأب واحد. وذلك لاتفاقهم في التوحيد والإسلام وأصول الإيمان والأخلاق واختلافهم في الشرائع.

يقول شيخ الإسلام رحمه الله تعالىٰ:

(وهذا الدين هو دين الإسلام الذي لا يقبل الله ديناً غيره، لا من الأولين ولا من الآخرين، فإن جميع الأنبياء علي دين الإسلام، قال تعالىٰ عن نوح: ﴿**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ...**﴾ [يونس: ٧١]، إلىٰ قوله: ﴿**... وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٢)**﴾ [يونس: ٧٢]، وقال عن إبراهيم: ﴿**وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ...**﴾ [البقرة: ١٣٠]، إلىٰ قوله: ﴿**إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١)**﴾ [البقرة: ١٣١]، إلىٰ قوله: ﴿**... فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٣٢)**﴾ [البقرة: ١٣٢]، وقال عن موسىٰ: ﴿**... يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ (٨٤)**﴾ [يونس: ٨٤]، وقال في حواري المسيح: ﴿**وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ (١١١)**﴾ [المائدة: ١١١]، وقال فيمن تقدم من الأنبياء: ﴿**... يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا ...**﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال عن بلقيس أنها

---

(١) البخاري كتاب الأنبياء (٣٤٤٣)، ومسلم في الفضائل ٤/١٨٣٧ (٣٦٥).

قـالت: ﴿ ... **رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** (٤٤) ﴾ [النمل: ٤٤]، فالإسلام يتضمن الاستسلام لله وحده؛ فمن استسلم له ولغيره كان مشركاً، ومن لم يستسلم له كان مستكبراً عن عبادته، والمشرك به والمستكبر عن عبادته كافر، والاستسلام له وحده يتضمن عبادته وحده وطاعته وحده. فهذا دين الإسلام الذي لا يقبل الله غيره، وذلك إنما يكون بأن يطاع في كل وقت بفعل ما أمر به في ذلك الوقت، فإذا أمر في أول الأمر باستقبال الصخرة، ثم أمرنا ثانياً باستقبال الكعبة كان كل من الفعلين حين الأمر به داخلاً في الإسلام؛ فالدين هو الطاعة والعبادة له في الفعلين، وإنما تنوع بعض صور الفعل - وهو وجهة المصلي - فكذلك الرسل وإن تنوعت الشرعة والمنهاج والوجهة والمنسك فإن ذلك لا يمنع أن يكون الدين واحداً كما لم يمنع ذلك في شريعة الرسول الواحد) أهـ[(١)].

ويقول الشيخ عمر الأشقر حفظه الله:

(الرسالات التي جاء بها الأنبياء جميعاً منزلة من عند الله العليم الحكيم الخبير؛ ولذلك فإنها تمثل صراطاً واحداً يسلكه السابق واللاحق، ومن خلال استعراضنا لدعوة الرسل التي أشار إليها القرآن نجد أنَّ الدِّين الذي دعت إليه الرسل جميعاً واحد هو الإسلام، ﴿ **إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ** ... ﴾ [آل عمران: ١٩]، والإسلام في لغة القرآن ليس اسماً لدين خاص، وإنما هو اسم للدّين المشترك الذي هتف به كلّ الأنبياء؛ فنوح يقول

---

(١) التحفة المهدية في شرح التدمرية ص ٣٢٢.

لقومه: ﴿ ... وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٢) ﴾ [يونس: ٧٢]، والإسلام هو الدّين الذي أمر الله به أبا الأنبياء إبراهيم ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١) ﴾ [البقرة: ١٣١]، ويوصي كُلٌّ من إبراهيم ويعقوب أبناءه قائلاً: ﴿ ... فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٣٢) ﴾ [البقرة: ١٣٢]، وأبناء يعقوب يجيبون أباهم: ﴿ ... نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٣) ﴾ [البقرة: ١٣٣]، وموسىٰ يقول لقومه: ﴿ ... يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ (٨٤) ﴾ [يونس: ٨٤]، والحواريون يقولون لعيسىٰ: ﴿ ... آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٥٢) ﴾ [آل عمران: ٥٢]، وحين سمع فريق من أهل الكتاب القرآن ﴿ ... قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (٥٣) ﴾ [القصص: ٥٣]).

فالإسلام شعار عام كان يدور علىٰ ألسنة الأنبياء وأتباعهم منذ أقدم العصور التاريخية إلىٰ عصر النبوة المحمديّة). [١] اهـ.

ويرد سيد قطب رحمه الله تعالىٰ علىٰ من يسمون بـ (علماء الأديان المقارنة) الذين يتحدثون عن التوحيد في الإسلام بوصفه طوراً متأخراً من أطوار العقيدة فيقول:

(وهذه الحقيقة .. حقيقة أن أول عقيدة عرفت في الأرض هي الإسلام القائم علىٰ توحيد الدينونة والربوبية والقوامة لله وحده .. تقودنا إلىٰ رفض

---

(١) الرسل والرسالات: ص ٢٤٣.

كل ما يخبط فيه من يسمونهم «علماء الأديان المقارنة» وغيرهم من التطوريين الذين يتحدثون عن التوحيد بوصفه طوراً متأخراً من أطوار العقيدة سبقته أطوار شتىٰ من التعدد والتثنية للآلهة. ومن تأليه القوىٰ الطبيعية وتأليه الأرواح، وتأليه الشموس والكواكب.. إلىٰ آخر ما تخبط فيه هذه «البحوث» التي تقوم ابتداءً علىٰ منهج موجه بعوامل تاريخية ونفسية وسياسية معينة؛ يهدف إلىٰ تحطيم قاعدة الأديان السماوية والوحي الإلهي والرسالات من عند الله وإثبات أن الأديان من صنع البشر؛ وأنها من ثم تطورت بتطور الفكر البشري علىٰ مدار الزمان!)[١] أهـ.

وإنه حينما يتقرر أن دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام هي دعوة واحدة، وهي الدعوة إلىٰ عبادة الله عز وجل وتوحيده - فإننا نقصد ذلك المفهوم الشامل للتوحيد والعبادة، ألا وهو إخراج الناس من العبودية والدينونة لغير الله إلىٰ الدينونة لله وحده بكل شمولها، وليس مجرد أن يوحِّد الناس بألسنتهم، أو أن يتوجهوا إلىٰ الله سبحانه بشعائر التعبد الظاهرة فقط ثم تبقىٰ قلوبهم ومصادر تلقيهم وتشريعاتهم إلىٰ غير الله عز وجل. إن مهمة الرسل في رسالتهم ودعوتهم أشمل من هذا المفهوم القاصر للتوحيد والإيمان، ولو كانت الدعوة إلىٰ التوحيد بهذا المفهوم القاصر لما استحقت كل هذه الجهود المضنية والتضحيات الباهظة من أنبياء الله عز وجل ورسله عليهم الصلاة والسلام.

---

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٨٨٢ ط الشروق.

يجلي هذه الحقيقة الأستاذ سيد قطب رحمه الله تعالىٰ فيقول:

(نقف أمام الدعوة الواحدة الخالدة علىٰ لسان كل رسول وفي كل رسالة.. دعوة توحيد العبادة والعبودية لله، المتمثلة فيما يحكيه القرآن الكريم عن كل رسول: ﴿**قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره**﴾ ولقد كنا دائماً نفسر «العبادة» لله وحده بأنها «الدينونة الشاملة» لله وحده. في كل شأن من شؤون الدنيا والآخرة. ذلك أن هذا هو المدلول الذي تعطيه اللفظة في أصلها اللغوي.. فإن «عبد» معناها: دان وخضع وذل. وطريق معبد طريق مذلل ممهد. وعبّده جعله عبداً أي خاضعاً مذللاً.. ولم يكن العربي الذي خوطب بهذا القرآن أول مرة يحصر مدلول هذا اللفظ وهو يؤمر به في مجرد أداء الشعائر التعبدية. بل إنه يوم خوطب به أول مرة في مكة لم تكن قد فرضت بعد شعائر تعبدية! إنما كان يفهم منه عندما يخاطب به أن المطلوب منه هو الدينونة لله وحده في أمره كله؛ وخلع الدينونة لغير الله من عنقه في كل أمره... إن توحيد الألوهية، وتوحيد الربوبية، وتوحيد القوامة، وتوحيد الحاكمية، وتوحيد مصدر الشريعة، وتوحيد منهج الحياة، وتوحيدالجهة التي يدين لها الناس الدينونة الشاملة... إن هذا التوحيد هو الذي يستحق أن يرسل من أجله كل هؤلاء الرسل، وأن تبذل في سبيله كل هذه الجهود؛ وأن تحتمل لتحقيقه كل هذه العذابات والآلام علىٰ مدار الزمان.. لا لأن الله سبحانه في حاجة إليه، فالله سبحانه غني عن العالمين. ولكن لأن حياة البشر لا تصلح ولا تستقيم ولا ترتفع ولا تصبح حياة لائقة «بالإنسان» إلا بهذا التوحيد الذي لا حد لتأثيره في الحياة البشرية

في كل جانب من جوانبها)[١] أهـ.

من كل ما سبق يتأكد لدينا أن دين الأنبياء عليهم السلام واحد ودعوتهم واحدة، ألا وهي الإسلام، وأصول الإيمان، وإخراج الناس من عبادة العباد إلىٰ عبادة رب العباد، ومن ضيق الدنيا إلىٰ سعتها، ومن جورالأديان إلىٰ عدل الإسلام. كما أن هناك أموراً أخرىٰ اتفقت عليها جميع الأديان والرسالات ودعت إليها ألا وهي الأخلاق والقيم التي فطر الله الناس عليها؛ حيث نجد الدعوة إليها، والمحافظة عليها، ونبذ ما يخالفها موجود في كل رسالة، وقد تضمنتها دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ولا يمكن أن تتغير ولايعتريها تبديل ولا نسخ مثلها مثل التوحيد وأصول الإيمان، وذلك كبرِّ الوالدين، وتحريم الفواحش والظلم وقتل النفس بغيرحق، والإحسان إلىٰ اليتيم، والقسط بين الناس، وتحريم الكبر والفخر، والحث علىٰ الكرم والوفاء، وتحريم الغدر والخيانة... الخ.

وفيما عدا أصول الإيمان والقيم الثابتة جعل الله عز وجل لكل رسولٍ شريعة خاصة به لقومه شاملة وكاملة في وقتها لأهلها. وقد تختلف هذه الشرائع من نبي لآخر، وقد يتفق بعضها. حتىٰ ختم الله سبحانه جميع الشرائع بما أنزل علىٰ محمد ﷺ من الشريعة الكاملة الشاملة التي كتب الله عز وجل لها الخلود والقيام بمصالح العباد في كل زمان ومكان إلىٰ أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وهذا هو المعنىٰ المأخوذ من قوله تعالىٰ: ﴿ ... لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً

(١) في ظلال القرآن ٣/١٩٠٢، ١٩٠٣ باختصار.

﴿وَمِنْهَاجًا ...﴾ [المائدة: ٤٨].

يقول الإمام الطبري رحمه الله تعالىٰ في تفسير هذه الآية: (اختلف أهل التأويل في المعني بقوله: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ﴾، فقال بعضهم: عني بذلك أهل الملل المختلفة، أي أن الله جعل لكل ملة شريعة ومنهاجاً. حدثنا بشر بن معاذ قال ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة، قوله ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾، يقول: سبيلاً وسنة، والسنن مختلفة: للتواراة شريعة، وللإنجيل شريعة، وللقرآن شريعة، يحل الله فيها ما يشاء، ويحرم ما يشاء بلاء، ليعلم من يطيعه ممن يعصيه، ولكن الدين الواحد الذي لا يقبل غيره: التوحيد والإخلاص لله الذي جاءت به الرسل... وقال آخرون: بل عني بذلك أمة محمد ﷺ: وقالوا: إنما معنىٰ الكلام: قد جعلنا الكتاب الذي أنزلناه علىٰ نبينا محمد ﷺ أيها الناس لكلكم: أي لكل من دخل في الإسلام وأقر بمحمد ﷺ، أنه له نبي: شرعة ومنهاجاً...

... وأولىٰ القولين في ذلك عندي بالصواب قول من قال: معناه: لكل أهل ملة منكم أيها الأمم جعلنا شرعة ومنهاجاً)[1] أ.هـ.

وعن اختلاف الشرائع واكتمالها في شرعة نبينا محمد ﷺ يقول الشيخ عبد الرزاق عفيفي رحمه الله تعالىٰ:

(ومن تمام رحمة الله بعباده ونعمته عليهم وكمال حكمته في إقامة الحجة والإعذار إلىٰ من سبق عليه القول منهم أن جعل شريعة كل رسول

(١) تفسير الطبري ت: شاكر، ١٠/ ٣٨٥ باختصار.

من رسله شاملة كل ما تحتاجه أمته، جامعة لما يصلح شأنها وينهض بها في إقامة دولتها وبناء مجدها وتقويم أودها وحفظ كيانها، ويجعلها مثلاً أعلىٰ في جميع شئونها، سعيدة في الدنيا والآخرة؛ قال ﷺ «**إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته علىٰ خير ما يعلمه لهم، وينذرهم عن شر ما يعلمه لهم**»[1]، بل تضمنت فوق ذلك ما يكمل الضروريات والحاجيات والتحسينات علىٰ خير حال وأقوم طريق... والأمم الماضية لما كانت تسوسهم الأنبياء؛ كلما هلك نبيٌّ خلفه نبيٌّ، وكان الوحي مستمراً، جرت فيهم سنة التطور في التشريع والتدرج في الأحكام، وكان الكثير من التفاصيل وفروع الشريعة مؤقتاً، فنسخت الشريعة اللاحقة من أحكام الشريعة السابقة ما اقتضت المصلحة نسخه؛ تنشئة للأمة وتربية لها وسداً لحاجتها، أو عقوبة لها علىٰ ظلمها وتمردها علىٰ شرائع ربها؛ قال تعالىٰ – في رسالة عيسي عليه الصلاة والسلام – ﴿ **وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ...** ﴾[آل عمران: ٥٠]، وقال تعالىٰ – في محمد عليه الصلاة والسلام – ﴿ **... وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ**

---

(١) صحيح مسلم كتاب الإمارة رقم (١٨٤٨).

أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧) ﴾ [الأعراف: ١٥٦، ١٥٧]، وقال: ﴿ **فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا (١٦٠) وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٦١)** ﴾ [النساء: ١٦٠، ١٦١].

أما هذه الأمة المحمدية فشريعتها خاتمة الشرائع، ورسولها خاتم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا نبي بعده، فاقتضت حكمة الله أن تكون شريعته فيهم عامة دائمة إلىٰ يوم القيامة كفيلة بجميع مصالحهم الدينية والدنيوية، منظمة لنواحي حياتهم المختلفة، مُغْنية لهم عما سواها في جميع أمورهم وشئونهم، ولو طال بهم الأمد واختلفت أحوالهم علىٰ مر الأيام والعصور حضارة وثقافة، وتباينت أفكارهم ذكاءً وغباوة وحالتهم قوة وضعفاً وغنىٰ وفقراً» أهـ[1].

* * *

(١) الحكمة من إرسال الرسل ص ٣٠، ٣١، ٣٢ للشيخ عبد الرزاق عفيفي.

المبحث الرابع

« من جوانب الاقتداء بهدي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام »

لقد سبق في مبحث سابق بيان أهمية معرفة حياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وهديهم وذلك لأخذ العبر العظيمة والاقتداء بهم والتعزي بما أصابهم، والحصول علىٰ الفوز في الدنيا والآخرة باتباعهم؛ لذا فإن هذا المبحث يتطلب منا دراسة متأنية عميقة لحياة هذا الركب الكريم، لعلنا أن نخرج بالفائدة المرجوة من هذا البحث، حيث إن هذا المبحث من مباحث هذا الكتاب يعتبر أهم المباحث وأطولها. أسأل الله عز وجل أن يفتح علي بالحق، وأن يلهمني رشدي، وأن يوفقني لتجلية ولو بعضاً من هذه الجوانب العظيمة من هدي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. وإن القلم ليحار والقلب يوجف والفكر يهاب من الدخول في هذا الأمر المهيب الجلل خاصة من مثلي: العبد الفقير الذي يجد بينه وبين هذه الحياة الكريمة مسافة واسعة وأمداً بعيداً. أسأل الله عز وجل بحبي لهم أن يلحقني بهم، وأن يجعل ما أكتبه عنهم عوناً لي ولوالدي وأخواني المسلمين علىٰ الاقتداء بهم، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

هذا وسيكون التركيز في هذا المبحث إن شاء الله تعالىٰ علىٰ ثلاثة جوانب عظيمة من حياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام هي في نظري من أهم جوانب الاقتداء بهم عليهم الصلاة السلام، هي كما يلي:

(أ) من هديهم عليهم الصلاة والسلام في قوة العلم بالله عز وجل وأثر ذلك في صدق الإيمان وكمال التوحيد وقوة العبادة.

(ب) من هديهم عليهم الصلاة والسلام في الأخلاق والسلوك.

(ج) من هديهم عليهم الصلاة والسلام في الدعوة والتبليغ.

وسيكون تحت كل جانب من هذه الجوانب الثلاثة تقسيمات أخرىٰ تفصل فيها بعض الصور والأمثلة الداخلة تحت كل جانب، مع محاولة الربط ما أمكن بواقعنا نحن المسلمين اليوم، وبالذات ما يتعلق بالدعوة والدعاة في هذا العصر الغريب العجيب الذي كتب الله عز جل أن نعيش فيه. موضحاً من خلال هذا الربط مدىٰ قربنا أو بعدنا من هذا الهدي الكريم في كل جانب من الجوانب الآنفة الذكر من حياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. وهذا هو جهد المقل؛ فما وجد فيه من صواب وحق فهو من الله عز وجل وهو المان به وحده، وما وجد فيه من خطأ وخلل فمني ومن الشيطان، ولا تنسني أخي القارئ الكريم من دعائك إن وجدت صواباً، ومن نصحك وتوجيهاتك إن وجدت خلاف ذلك.

* * *

الجانب الأول:

من هديهم عليهم الصلاة والسلام في قوة العلم بالله عز وجل وأثر ذلك في صدق الإيمان وكمال التوحيد:

إن أعلم الناس بالله عز وجل هم أنبياؤه ورسله عليهم الصلاة والسلام، وهذا العلم به سبحانه وبأسمائه وصفاته العلا هو الذي أثَّر هذه الخشية العظيمة والإيمان الصادق والتوحيد الكامل لله عز وجل؛ لأنه كلما كان العبد أعلم وأعرف بربه سبحانه كان أشد خوفاً وتعظيماً وعبادة ومحبة وإخلاصاً له والعكس بالعكس.

وإن مما اختص الله سبحانه به رسله ومنَّ عليهم به هو تكميل هذا العلم النفيس في نفوسهم والذي هو أشرف العلوم وأزكاها.

وإن المسلم مطالب بطلب هذا العلم الشريف قدر استطاعته اقتداء بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ ولو أنه لن يصل إلىٰ علمهم ولا إيمانهم لكنه بذلك يقترب منهم ويسعد بثمار هذا العلم العظيم في قلبه وسلوكه وحياته كلها.

ومن الأدلة علىٰ شرف هذا العلم وأن أولىٰ الناس به هم الأنبياء والرسل ما يلي:

قوله تعالىٰ عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام في دعوته لأبيه: ﴿**يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣)**﴾.

[مريم: ٤٣]

وقوله تعالىٰ عن يعقوب عليه الصلاة والسلام ﴿ ... **وإنّه لذو علمٍ لّما علّمناه ولكنّ أكثر النّاس لا يعلمون** ﴿٦٨﴾ ﴾ [يوسف : ٦٨].

وقوله تعالىٰ عن قول يعقوب عليه الصلاة والسلام لبنيه : ﴿ ... **قال ألم أقل لكم إنّي أعلم من اللّه ما لا تعلمون** ﴿٩٦﴾ ﴾ [يوسف : ٩٦]. وذلك بعد أن جاء البشير بقميص يوسف عليه السلام فارتد البصر إلىٰ يعقوب عليه السلام وأخبرهم أنه يعلم من لطف الله سبحانه ورحمته ما يدفع عنه اليأس ويثمر الرجاء. وهذا الأثر العظيم من آثار علم يعقوب عليه السلام بأسماء الله عز وجل وصفاته مما لم يصل إليه أبناؤه الذين استنكروا عليه أمله في رجوع يوسف عليه السلام.

وقوله تعالىٰ : عن نوح عليه الصلاة والسلام أنه قال لقومه : ﴿ **أبلّغكم رسالات ربّي وأنصح لكم وأعلم من اللّه ما لا تعلمون** ﴿٦٢﴾ ﴾ .

[الأعراف : ٦٢]

أي وأعلم من أمر الله ما لا تعلمونه؛ فأعلم من صفات الله وقدرته الباهرة، وبطشه بأعدائه ما جهلتم، وأعلم أن العاقبة للمتقين وأن بأسه لا يرد عن القوم المجرمين.

وقوله تعالىٰ عن مقالة نوح عليه الصلاة والسلام لقومه : ﴿ **قال يا قوم أرأيتم إن كنت علىٰ بيّنةٍ مّن رّبّي وآتاني رحمةً مّن عنده فعمّيت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون** ﴿٢٨﴾ ﴾ [هود : ٢٨].

وقوله تعالىٰ عن صالح عليه الصلاة والسلام : ﴿ **قال يا قوم أرأيتم إن كنت علىٰ بيّنةٍ مّن رّبّي وآتاني منه رحمةً فمن ينصرني من اللّه إن عصيته فما**

تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ (٦٣) ﴾ [هود: ٦٣].

وقوله تعالىٰ عن شعيب عليه الصلاة والسلام: ﴿ **قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (٨٨)** ﴾ [هود: ٨٨] .

وهذا موسىٰ عليه الصلاة والسلام مع ما آتاه الله عز وجل من العلم العظيم فإنه لم يرتو منه وإنما طلب المزيد . وقصة سفره عليه الصلاة والسلام إلىٰ الخضر عليه السلام ليتعلم منه معروفة، وقد قصها الله عز وجل علينا في كتابه الكريم، والشاهد منها قوله تعالىٰ: . ﴿ **قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (٦٦)** ﴾ [الكهف: ٦٦]، وللشيخ السعدي رحمه الله تعالي عند هذه القصة كلام نفيس فليرجع إليه.

وقوله تعالىٰ لنبيه محمد ﷺ: ﴿ **قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ (٥٧)** ﴾ [الأنعام: ٥٧] . .

وقوله ﷺ عن نفسه عندما تنزه بعض الصحابة عن شيء رخص فيه الرسول ﷺ فبلغ ذلك إليه فخطب فحمد الله ثم قال: « **ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه فوالله إني لأعلمهم بالله، وأشدهم له خشية** »[١] .

---

(١) البخاري رقم (٦١٠١) في الأدب، ومسلم رقم (٢٣٥٦) في الفضائل.

وبعد سرد هذه الأدلة – والتي هي علىٰ سبيل المثال لا الحصر – نأتي الآن إلىٰ آثار هذه البينات العظيمة في نفوس الأنبياء عليهم الصلاة والسلام الناشئة عن هذا العلم الشريف بالله عز وجل وبأسمائه الحسنىٰ وصفاته العلا، لعلنا نهتدي بهذه الآثار الإيمانية المباركة ونسعىٰ للتأسي بهم فيها.

ومن هذه الآثار مايلي:

أولاً: شدة تعظيمهم لله عز وجل وخوفهم منه:

إن مما يلفت الانتباه في حياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أنه علىٰ الرغم من اصطفاء الله سبحانه لهم وحبه لهم وقربهم منه سبحانه فإن هذه المزايا لم تزدهم لربهم إلا تعظيماً ومحبة وخوفاً منه سبحانه وخشية. وهذه سنة الله سبحانه؛ فكلما ازداد العبد معرفة بربه عظَّمه في نفسه وخاف منه سبحانه خوف المحب لحبيبه؛ خوفاً يقرب إلىٰ الله عز وجل وخوفاً يهضم العبد عنده نفسه ويحقرها ولا يرىٰ لها فضلاً ولا طولاً وإنما يراها أهلاً للظلم والخطيئة والضعف إن لم يوفق الله عز وجل صاحبها ويعينه عليها.

وهكذا كان شأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والأمثلة في ذلك كثيرة منها:

○ **مناجاة نوح عليه الصلاة والسلام لربه بشأن ابنه:**

وقد جاء ذلك في قصة نوح مع قومه في سورة هود حيث يقول الله

تعـالىٰ: ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ۝٤٥ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ۝٤٦ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ ۝٤٧ ﴾ [هود: ٤٥ – ٤٧]. ويظهر من هذه الآيات علم نوح عليه الصلاة والسلام بربه عز وجل والذي أثمر عنده هذا الأدب العظيم مع ربه والخوف منه سبحانه؛ فتراه وهو يدعو ربه بشأن ابنه الهالك مع الكافرين يختتم دعاءه بقوله ﴿ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾ ولم يقل: وأنت أرحم الراحمين، وهذا من كمال علمه عليه الصلاة والسلام بأسماء الله عز وجل وصفاته وآثارها؛ لأن المقام مقام تفويض واستسلام لحكمة الله البالغة التي اقتضت أن يكون ابن نوح مع الهالكين ولم يكن مع الناجين. ولذلك ختم نوح عليه السلام دعاءه بقوله: ﴿ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾. كما يظهر في هذه المناجاة خوف نوح عليه السلام من ربه واتهامه لنفسه بالظلم وطلبه المغفرة من ربه سبحانه؛ وذلك في قوله: ﴿ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ الله أكبر، هذا نوح عليه السلام الذي أمضىٰ مئات السنين في دعوة قومه وصبر وصابر وناله من الأذىٰ والاستهزاء الشيء العظيم ومع ذلك يختتم دعوته بطلب المغفرة والرحمة من ربه سبحانه: ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ تَبَارًا ۝٢٨ ﴾ [نوح: ٢٨].

فماذا نقول نحن المفرطين الظالمين الجاهلين؟! سبحانك قد ظلمنا أنفسنا ظلماً كثيراً وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين.

وحري بالدعاة إلىٰ الله عز وجل أن يهتدوا بهذا الهدي المبارك الذي يقرب إلىٰ الله عز وجل ويقضي علىٰ أدنىٰ شعور بالعجب والزهو بالنفس وإنجازاتها؛ فمهما كان من الدعوة والجهاد فإن المانَّ به هو الله سبحانه. والنفس لا تقوىٰ على شيء إلا بعون الله سبحانه وتوفيقه وهي محلّ الظلم والذنوب والخطايا . وإن لم يتداركها الله عز وجل برحمة منه ومغفرة فإنها هالكة وخاسرة لا محالة.

ولعل من هذا الباب أيضاً دعاء الأبوين عليهما السلام بعد ما أكلا من الشجرة ﴿ **قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ** (٢٣) ﴾ [الأعراف: ٢٣]. وقول الله عز وجل عن دعاء إبراهيم عليه الصلاة والسلام تلك الأدعية الخاشعة لله سبحانه والتي منها ﴿ **وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ** (٨٢) **رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ** (٨٣) **وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ** (٨٤) **وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ** (٨٥) **وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ** (٨٦) **وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ** (٨٧) **يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ** (٨٨) **إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ** (٨٩) ﴾ [الشعراء: ٨٢ – ٨٩]. هذا هو إمام الحنفاء وخليل الرحمن يخاف من ذنوبه ويسأل ربه المغفرة والستر ويطلب من ربه سبحانه أن يلحقه بالصالحين، وكأنه ليس منهم!!

إذن فما حالنا؟ ماذا عسانا أن نقول؟! إنه ليس أمامنا إلا أن نحذو حذو هذا الركب المبارك المطهر ونقول ما أوصىٰ به الرسول ﷺ أبا بكر الصديق رضي الله عنه عندما سأله أن يعلمه دعاءً يدعو به في صلاته فقال ﷺ: «**قل: اللَّهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً ولا يغفر الذنوب إلا أنت**

فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم»[١].

○ محاجة شعيب عليه الصلاة والسلام لقومه ورده عليهم عندما خيروه بين الخروج من قريتهم أو العودة في ملتهم:

وقال الله عز وجل: ﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ (٨٨) قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (٨٩)﴾ [الأعراف: ٨٨، ٨٩]

والشاهد من هذه الآيات الكريمات ذلك الثبات العظيم واليقين التام من شعيب عليه الصلاة والسلام أنه على الحق، وأنه على بيّنة من ربه، وليس عنده استعداد للتنازل عن هذا الحق مهما كانت الأحوال. ولكن شعيب عليه الصلاة والسلام مع يقينه هذا وثباته العظيم فهو لم يعتمد على قوته وإيمانه هذا بعيداً عن ربه وإنما رد الأمر إلى مشيئة الله عز وجل وإرادته النافذة ورحمته الباهرة؛ فهو الذي بيده قلوب العباد والعالم بكل شيء؛ ولذلك جاء من شعيب عليه السلام هذا الأدب العظيم والتعظيم لله عز وجل، ورد أمر الثبات على الحق وعدمه إلى مشيئته سبحانه وحكمته البالغة، ولذلك فوض أمره إلى الله عز وجل وتوكل عليه في الثبات والفتح بينه وبين قومه بالحق.

---

(١) البخاري: رقم (٨٣٤) في الأذان، ومسلم رقم (٢٧٠٥) في الذكر والدعاء.

يقول الشيخ السعدي – رحمه الله تعالىٰ – معلقاً علىٰ قوله تعالىٰ: ﴿ ... وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ... ﴾ [الأعراف: ٨٩].

﴿ ... وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا ... ﴾. أي: يمتنع علىٰ مثلنا أن نعود فيها، فإن هذا من المحال. فآيسهم عليه الصلاة والسلام من كونه يوافقهم من وجوه متعددة؛ من جهة أنهم كارهون لها، مبغضون لما هم عليه من الشرك. ومن جهة أنه جعل ماهم عليه كذباً، وأشهدهم أنه إن اتبعهم ومن معه، فإنهم كاذبون.

ومنها اعترافهم بمنة الله عليهم إذ أنقذهم الله منها.

ومنها: أن عودتهم فيها – بعد ما هداهم الله – من المحالات، بالنظر إلىٰ حالتهم الراهنة، وما في قلوبهم من تعظيم الله تعالىٰ، والاعتراف له بالعبودية وأنه الإله وحده، الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده، لا شريك له، وأن آلهة المشركين، أبطل الباطل، وأمحل المحال. وحيث إن الله منَّ عليهم بعقول يعرفون بها الحق والباطل، والهدىٰ والضلال. وأما من حيث النظر إلىٰ مشيئة الله، وإرادته النافذة في خلقه، التي لاخروج لأحد عنها، ولو تواترت الأسباب وتوافقت القوىٰ، فإنهم لا يحكمون علىٰ أنفسهم أنهم سيفعلون شيئاً أو يتركونه.

ولهذا استثنىٰ: ﴿ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا ﴾ أي: فلا يمكننا ولا غيرنا، الخروج عن مشيئته، التابعة لعلمه وحكمته وقد ﴿ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ فيعلم ما يصلح للعباد وما يدبرهم عليه)[1] اهـ.

---

(١) تفسير السعدي عند الآية (٨٩) من سورة الأعراف.

ويقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالىٰ عند هذه الآية :

(قال تعالىٰ إخباراً عن نبيه شعيب أنه قال لقومه : ﴿ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا ... ﴾ [الأعراف : ٨٩] . وهذا يبطل تأويل القدرية المشيئة في مثل ذلك بمعنىٰ الأمر . فقد علمت أنه من الممتنع علىٰ الله أن يأمر بالدخول في ملة الكفر والشرك به ، ولكن استثنوا بمشيئته التي يُضل بها من يشاء ويهدي من يشاء . ثم قال شعيب : ﴿ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ فرد الأمر إلىٰ مشيئته وعلمه ؛ فإن له سبحانه في خلقه علماً محيطاً ومشيئته نافذة وراء ما يعلمه الخلائق ؛ فامتناعنا من العود فيها هو مبلغ علومنا ومشيئتنا ، ولله علم آخر ومشيئة أخرىٰ وراء علومنا ومشيئتنا فلذلك رد الأمر إليه) أهـ[1] .

ويقول سيد قطب رحمه الله تعالىٰ عند هذه الآية أيضاً :

(ولكن شعيباً بقدر ما يرفع رأسه ، وبقدر ما يرفع صوته ، في مواجهة طواغيت البشر من الملأ الذين استكبروا من قومه . . بقدر ما يخفض هامته ، ويسلم وجهه في مواجهة ربه الجليل الذي وسع كل شيء علماً . فهو في مواجهة ربه ، لا يتألىٰ عليه ولا يجزم بشيء أمام قدره ، ويدع له قياده وزمامه ، ويعلن خضوعه واستسلامه :

﴿ .... إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا .. ﴾

إنه يفوض الأمر لله ربه ، في مستقبل ما يكون من أمره وأمر المؤمنين

(١) بدائع التفسير (٢ / ٢٦١) .

معه.. إنه يملك رفض ما يفرضه عليه الطواغيت، من العودة في ملتهم؛ ويعلن تصميمه والمؤمنين معه علىٰ عدم العودة؛ ويعلن الاستنكار المطلق للمبدأ ذاته..ولكنه لا يجزم بشيء عن مشيئة الله به وبهم.. فالأمر موكول إلىٰ هذه المشيئة، وهو والذين آمنوا معه لا يعلمون، وربهم وسع كل شيء علماً. فإلىٰ علمه ومشيئته تفويضهم واستسلامهم.

إنه أدب ولي الله مع الله. الأدب الذي يلتزم به أمره، ثم لا يتالىٰ بعد ذلك علىٰ مشيئته وقدره. ولا يتأبىٰ علىٰ شيء يريده به ويقدره عليه.

وهنا يدع شعيب طواغيت قومه وتهديدهم ووعيدهم، ويتجه إلىٰ وليه بالتوكل الواثق، يدعوه أن يفصل بينه وبين قومه بالحق)أهـ[١] .

○ تعظيم موسى عليه الصلاة والسلام لربه وخوفه منه:

وذلك عندما سأل ربه عز وجل أن يراه حباً له وشوقاً إليه، فأخبره ربه تعالىٰ بامتناع ذلك في الدنيا، وأراه آية ذلك في الجبل الذي جعله الله تعالىٰ دكاً حينما تجلىٰ الله عز وجل للجبل فخر موسىٰ صعقاً؛ قال الله تعالىٰ: ﴿ **وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (١٤٣)** ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

والشاهد من ذلك تعظيم موسىٰ عليه الصلاة والسلام لربه عز وجل

---

(١) في ظلال القرآن عند الآية (٨٩) من سورة الأعراف.

وتنزيهه وسؤاله ربه المغفرة والتوبة، وكل هذا الشعور العظيم من موسىٰ عليه الصلاة والسلام نابع من معرفته بربه المعرفة الحقة التي أثمرت هذا التعظيم والخوف من الله عز وجل.

يقول الشيخ السعدي رحمه الله تعالىٰ عند هذه الآية:

(قوله تعالىٰ: ﴿ **وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ** ﴾ إذا تجلىٰ الله له ﴿ **فَسَوْفَ تَرَانِي** ﴾ ﴿ **فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ** ﴾ الأصم الغليظ ﴿ **جَعَلَهُ دَكًّا** ﴾ أي: انهال مثل الرمل، انزعاجاً من رؤية الله وعدم ثبوته لها.

﴿ **وَخَرَّ مُوسَىٰ** ﴾ حين رأىٰ ما رأىٰ ﴿ **صَعِقًا** ﴾ أي: مغشياً عليه.

﴿ **فَلَمَّا أَفَاقَ** ﴾ تبين له حينئذ، أنه إذا لم يثبت الجبل لرؤية الله، فموسىٰ أولىٰ أن لا يثبت لذلك. واستغفر ربّه، لما صدر منه من السؤال، الذي لم يوافق موضعاً ولذلك: ﴿ **قَالَ سُبْحَانَكَ** ﴾ أي: تنزيهاً لك، وتعظيماً عما لا يليق بجلالك.

﴿ **تُبْتُ إِلَيْكَ** ﴾ من جميع الذنوب، وسوء الأدب معك ﴿ **وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ أي جدد عليه الصلاة والسلام إيمانه بما كمل الله له مما كان يجهله قبل ذلك)اهـ[١].

○ تعظيم عيسى عليه الصلاة والسلام لربه سبحانه وأدبه مع ربه عز وجل:

وذلك عند سؤال الله عز وجل له يوم القيامة وهو أعلم: ﴿ ... **أَأَنتَ**

---

(١) تفسير السعدي عند الآية (١٤٣) من سورة الأعراف.

قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله ... ﴾ [المائدة: ١١٦].

قال الله تعالىٰ: ﴿ وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب (١١٦) ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد (١١٧) إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم (١١٨) قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم (١١٩) لله ملك السماوات والأرض وما فيهن وهو على كل شيء قدير (١٢٠) ﴾ [المائدة: ١١٦ - ١٢٠].

والشاهد من هذا الحوار هو ذلك التعظيم والأدب الجم من عيسىٰ ﷺ لربه سبحانه، وذلك العلم العظيم من عيسىٰ عليه الصلاة والسلام لأسماء الله عز وجل وصفاته الحسنىٰ حيث اختار من الأسماء والصفات ما يناسب المقام وخاصة عند قوله ﷺ لربه عز وجل: ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ فكونه ﷺ ختم كلامه هذا بقوله: ﴿ فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ ولم يقل: (فإنك أنت الغفور الرحيم) فإن هذا يدل علىٰ معنىٰ عظيم وعلم شريف خص الله عز وجل به أنبياءه عليهم الصلاة والسلام. ويدل علىٰ ذلك ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: «تلقىٰ عيسىٰ حجته، لقاه الله في قوله: ﴿ وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله ﴾ قال أبو هريرة

عن النبي ﷺ: فلقــاه الله: ﴿سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ...﴾ الآية كلها)[١].

وقد علق الإمام ابن القيم رحمه الله تعالىٰ علىٰ المعاني الشريفة اللطيفة في هذه الآيات وما في رد عيسىٰ عليه الصلاة والسلام من التعظيم والتنزيه والأدب لربه عـز وجل فـقـال: « وتأمل أحـوال الرسل صلوات الله وسـلامـه عليهم مع الله، وخطابهم وسؤالهم. كـيف تجدها كلها مشحـونة بالأدب قائمة به؟ قال المسيح عليه السلام: ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾ ولـم يقل: لم أقله، وفـرق بين الجوابين في حقيـقـة الأدب. ثم أحـال الأمر علىٰ علمه سبحانه بالحال وسره. فقال: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي﴾ ثم برأ نفسه عن علمه بغيب ربه وما يختص به سبحانه، فقال: ﴿وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ ثـم أثنىٰ علىٰ ربه، ووصفه بتفرده بعلم الغيوب كلها فقال: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ ثم نفىٰ أن يكون قال لهم غير ما أمره ربه به – وهو محض التـوحـيـد – فـقـال: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ ثم أخبر عن شهادته عليهم مدة مقامه فيهم. وأنه بعد وفاته لا اطلاع له عليهـم، وأن الله عز وجل وحده هو المنفرد بعد الوفـاة بالاطلاع عليهم؛ فقال: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ ثم وصفه بأن شهادته سبحانه فوق كل شهادة وأعم؛ فـقـال: ﴿وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ ثم قـال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ وهذا من أبلغ الأدب مع الله في مثل هذا المقام؛ أي شأن السيد رحمة عبيده والإحسان إليهم. وهؤلاء عبيدك ليسوا عبيداً لغيرك. فإذا

---

(١) أخرجه الترمذي رقم (٣٠٦٤) في التفسير ، وقال : هذا حديث حسن صحيح.

عذبتهم – مع كونهم عبيدك – فلولا أنهم عبيد سوء من أبخس العبيد، وأعتاهم علىٰ سيدهم، وأعصاهم له لم تعذبهم؛ لأن قربة العبودية تستدعي إحسان السيد إلىٰ عبده ورحمته. فلماذا يعذب أرحم الرحمين، وأجود الأجودين، وأعظم المحسنين إحساناً عبيده؟ لولا فرط عُتُوِّهم وإبائهم عن طاعته، وكمال استحقاقهم للعذاب.

وقد تقدم قوله: ﴿ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ أي هم عبادك. وأنت أعلم بسرهم وعلانيتهم. فإذا عذبتهم: عذبتهم علىٰ علم منك بما تعذبهم عليه. فهم عبادك وأنت أعلم بما جنوه واكتسبوه. فليس في هذا استعطاف لهم، كما يظنه الجهال، ولا تفويض إلىٰ محض المشيئة والملك المجرد عن الحكمة، كما تظنه القدرية. وإنما هو إقرار واعتراف وثناء عليه سبحانه بحكمته وعدله، وكمال علمه بحالهم، واستحقاقهم للعذاب.

ثم قال: ﴿ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ولم يقل «الغفور الرحيم» وهذا من أبلغ الأدب مع الله تعالىٰ؛ فإنه قاله في وقت غضب الرب عليهم، والأمر بهم إلىٰ النار، فليس هو مقام استعطاف ولا شفاعة. بل مقام براءة منهم. فلو قال: «فإنك أنت الغفور الرحيم» لأشعر باستعطافه ربَّه علىٰ أعدائه الذين قد اشتد غضبه عليهم. فالمقام مقام موافقة للرب في غضبه علىٰ مَنْ غضب الرب عليهم. فعدل عن ذكر الصفتين اللتين يسأل بهما عطفه ورحمته ومغفرته إلىٰ ذكر العزة والحكمة، المتضمنتين لكمال القدرة وكمال العلم.

والمعنىٰ: إن غفرت لهم فمغفرتك تكون عن كمال القدرة والعلم. ليست عن عجز عن الانتقام منهم، ولا عن خفاء عليك بمقدار جرائمهم؛

وهذا لأن العبد قد يغفر لغيره لعجز عن الانتقام منه، ولجهله بمقدار إساءته إليه. والكمال: هو مغفرة القادر العالم وهو العزيز الحكيم. وكان ذكر هاتين الصفتين في هذا المقام عين الأدب في الخطاب)[١] أهـ.

○ تعظيم نبينا محمد ﷺ لربه سبحانه وخوفه منه:

ونختم هذه الأمثلة من تعظيم الأنبياء لربهم سبحانه وخوفهم منه ببعض الشواهد من تعظيم نبينا محمد ﷺ لربه وخوفه منه مع أنه سيد المرسلين، وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. ولا غرابة في ذلك فهو كما قال عن نفسه ﷺ: «**فوالله إني لأعلمهم بالله، وأشدهم له خشية**»[٢].

ومن ذلك ما يلي:

□ عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً**»[٣] ولذلك ما رؤي رسول الله ﷺ مستجمعاً ضاحكاً قط؛ إنما كان يتبسم.

□ عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا عصفت الريح قال: «**اللَّهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به**» قالت: وإذا تخيّلت السماء تغير لونه، وخرج ودخل وأقبل وأدبر. فإذا أمطرت سُرّي عنه، فعرفت ذلك عائشة؛ فسألته فقال: «**لعله يا عائشة كما قال قوم**

(١) مدارج السالكين ٢/ ٣٧٨، ٣٧٩.

(٢) سبق تخريجه: ص٥٥.

(٣) البخاري رقم (٦٤٨٦) في الرقاق، ومسلم رقم (٢٣٥٩) في الفضائل.

عاد: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا...﴾ . [الأحقاف: ٢٤] (١)

□ وفي رواية أخرى عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ مستجمعاً ضاحكاً قط حتى أرى منه لهواته. إنما كان يتبسم وقالت: كان إذا رأى غيماً أو ريحاً عرف ذلك في وجهه، قالت: يا رسول الله، إن الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيها المطر، وأراك إذا رأيته عرف في وجهك الكراهية؟ فقال: « **يا عائشة ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب! قد عذب قوم بالريح، وقد رأى قوم العذاب فقالوا: هذا عارض ممطرنا** »(٢).

□ عن جُبير بن مُطعِم، قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، نُهِكَت الأنفس، وجاع العيال، وهلكت الأموالُ، فاستسق لنا ربك، فإنا نستشفع بالله عليك، وبك على الله. فقال النبي ﷺ «**سُبحان الله، سبحان الله!**» فما زال يُسبِّح، حتى عُرف ذلك في وجوه أصحابه. ثم قال: «**ويحك، أتدري ما الله؟ إن شأن الله أعظمُ من ذلك، إنه لا يُستشفع بالله على أحد**» وذكر الحديث(٣).

□ عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه وهم يختصمون في القدر. فكأنما يفقأ في وجهه

---

(١) رواه مسلم – كتاب الاستسقاء – باب التعوذ عند رؤية الريح والغيم برقم (١٥ تحت ٨٩٩).

(٢) البخاري – كتاب التفسير – تفسير سورة الأحقاف رقم (٤٨٢٨)، (٤٨٢٩)، ومسلم كتاب الاستسقاء رقم (١٦ تحت ٨٩٩).

(٣) أبو داود في السنن (٤٧٢٦) وصححه ابن القيم في تهذيب السنن (٧/ ٩٥).

حب الرمان من الغضب. فقال: «**بهذا أمرتم أو لهذا خلقتم؟ تضربون القرآن بعضه ببعض. بهذا هلكت الأمم قبلكم**»(١).

ثانياً: كثرة ذكرهم لله عز وجل وشدة تضرعهم ودعائهم له سبحانه مع قوة عبادتهم:

وهذا الجانب من هديهم عليهم الصلاة والسلام ثمرة من ثمار الإيمان الصادق والتوحيد الكامل النابعين من كمال حبهم لله عز جل وتعظيمهم له.

وإن المتأمل في هذا الجانب من هديهم ليأخذه العجب والإجلال والحب الخالص لهذه الصفوة المختارة من عباد الله، وهو يرىٰ إخباتهم لربهم سبحانه وكثرة ذكرهم له، وتضرعهم ودعاءهم المتواصل لربهم مع كثرة عبادتهم وطولها وتنوعها. كل ذلك وهم أولياء الله وأنبياؤه وصفوته من خلقه، وإن في هذا الهدي لعبرة لمن هو دونهم ممن يحسب نفسه من الدعاة المتبعين لهم. نعم إن في ذلك لعبرة لمن جاء بعدهم من المحبين لهم في أن يولوا هذا الجانب حقه، وأن يقتدوا بهؤلاء المصطفين الأخيار في كثرة ذكرهم لله عز وجل، وكثرة دعائهم وتضرعهم وعبادتهم له سبحانه مع ماهم فيه من هم الدعوة والجهاد والانشغال في أمر هذا الدين في الليل والنهار، ولكن كل ذلك لم يشغلهم عن الخلوة بربهم سبحانه والتفرغ لذكره ودعائه وعبادته. وفي هذا رد علىٰ ما قد يتذرع به بعضنا – إذا نبه إلىٰ هذا الجانب المهم في حياة الداعية – من ضيق الوقت وكثرة المشاغل وتعب الجسد وإجهاده في طلب العلم والدعوة إلىٰ الله عز وجل، فيدخل

(١) صحيح سنن ابن ماجة (٦٩) ١/ ٢١.

الشيطان إلىٰ النفس من هذا الباب – (باب التفريط) – فيجد الداعية نفسه وقد أهملها في أعظم رافد له في دعوته وأكبر زاد له في طريقه إلىٰ الله. وأورد الآن نماذج من هذا الهدي المبارك لعلها أن تشحذ الهمم وتقوي العزائم، ولعلها في الوقت نفسه أن تطامن منا بعض النفوس التي أصابها داء العجب؛ فتشعر وهي تقرأ هذه النماذج بأنها لا زالت مقصرة ومفرطة في جنب الله، فيحصل مقت النفس في ذات الله عز وجل واحتقارها؛ الاحتقارالذي يؤدي مع الاستعانة بالله عز وجل إلىٰ علاجها ويقظتها.

ومن هذه النماذج ما يلي:

○ **تضرعهم عليهم الصلاة والسلام إلى ربهم سبحانه وسؤاله قضاء حوائجهم:**

ذكر الله عز وجل في آخر سورة الأنبياء مجموعة من أنبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام، وهم يسألون ربهم ويتضرعون إليه في قضاء حوائجهم، ويتوسلون إلىٰ الله عز جل بأسمائه وصفاته كما يتوسلون بفاقتهم وافتقارهم إلىٰ الله عز وجل.

قال الله تعالىٰ: ﴿**وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٣) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ (٨٤) وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ (٨٥) وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ (٨٦) وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨) وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ**

الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾.

[الأنبياء: ٨٣ – ٩٠]

يقول الإمام ابن القيم – رحمه الله تعالىٰ – معلقاً علىٰ هذا الدعاء الخاشع من أيوب عليه الصلاة والسلام:

(جمع في هذا الدعاء بين حقيقة التوحيد وإظهار الفقر والفاقة إلىٰ ربه ووجود طعم المحبة في التملق له، والإقرار له بصفة الرحمة وأنه أرحم الراحمين، والتوسل إليه بصفاته سبحانه، وشدة حاجته هو وفقره، ومتىٰ وجد المبتلىٰ هذا كشفت عنه بلواه)[1] أهـ.

وفي قوله تعالىٰ: ﴿ وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ ﴾ أي أن في صبر أيوب عليه الصلاة والسلام ودعائه عبرة للعابدين من بعده ليقتدوا بصبره وعبادته ودعائه ويقينه.

وفي هذه الآيات أيضاً ذكر إسماعيل وإدريس وذا الكفل وأنهم من الصابرين، وأن الله عز وجل جازاهم بأن أدخلهم في الصالحين.

يقول الشيخ السعدي – رحمه الله تعالىٰ – عن هؤلاء الأنبياء:

(فهؤلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قد وصفهم الله بالصبر. فدل أنهم وفوها حقها، وقاموا بها كما ينبغي. ووصفهم أيضاً بالصلاح وهو يشمل صلاح القلب، بمعرفة الله ومحبته، والإنابة إليه كل وقت. وصلاح اللسان، بأن يكون رطباً من ذكر الله. وصلاح الجوارح، باشتغالها بطاعة الله

---

(١) بدائع التفسير (٣/ ١٨٩).

وكَفِّها عن المعاصي. فبصبرهم وصلاحهم أدخلهم الله في رحمته وجعلهم مع إخوانهم من المرسلين وأثابهم الثواب العاجل والآجل. ولو لم يكن من ثوابهم إلا أن الله تعالىٰ نَوَّهَ بذكرهم في العالمين، وجعل لهم لسان صدق في الآخرين، لكفىٰ بذلك شرفاً وفضلاً»[١] أهـ.

ويتحدث الإمام ابن القيم – رحمه الله تعالىٰ – عند قوله تعالىٰ عن يونس عليه السلام: ﴿... **فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ** (٨٧)﴾ [الأنبياء: ٨٧].

فيقول: (فإن فيها من كمال التوحيد: التنزيه للرب تعالىٰ، واعتراف العبد بظلمه وذنبه ما هو من أبلغ أدوية الكرب والهمِّ والغمِّ، وأبلغ الوسائل إلىٰ الله سبحانه في قضاء الحوائج؛ فإن التوحيد والتنزيه يتضمنان إثبات كل كمال لله، وسلب كل نقص وعيب وتمثيل عنه. والاعتراف بالظلم يتضمَّن إيمان العبد بالشرع والثواب والعقاب، ويوجب انكساره ورجوعه إلىٰ الله واستقالته عثرته، والاعتراف بعبوديته، وافتقاره إلىٰ ربه؛ فها هنا أربعة أمور قدوقع التوسل بها: التوحيد، والتنزيه، والعبودية، والاعتراف)[٢] أهـ.

وقد وصف الله سبحانه: نبيه يونس عليه الصلاة والسلام بأنه كان من المسبحين في وقت الرخاء فقال تعالىٰ: ﴿**فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ** (١٤٣) **لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ** (١٤٤)﴾ [الصافات: ١٤٣، ١٤٤].

يقول الشيخ السعدي – رحمه الله تعالىٰ –: (﴿**فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ**﴾ أي في وقته السابق بكثرة عبادته لربه وتسبيحه وتحميده، وفي بطن الحوت)[٣].

---

(١) تفسير السعدي (٣/ ٢٩٥).

(٢) بدائع التفسير: (٣/ ١٩٠).

(٣) تفسير السعدي (٤/ ٢٧٢).

وهذا هو دأب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في كثرة ذكر الله عز وجل وتسبيحه في الرخاء والشدة وفي كل حين مع دعائهم لربهم واعترافهم بظلمهم لأنفسهم، فما عسانا نحن أن نقول اليوم يا من غرقنا في بحر الذنوب والخطايا؟! فاللَّهم غفرانك ورحمتك.

ويبقىٰ في الآيات السابقة وصف زكريا ويحيىٰ عليهما السلام بقوله تعالىٰ: ﴿ ... إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ (٩٠) ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

يقول الشيخ السعدي – رحمه الله تعالىٰ –:

(﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ﴾ أي: يبادرون إليها ويفعلونها في أوقاتها الفاضلة، ويكملونها علىٰ الوجه اللائق الذي ينبغي، ولا يتركون فضيلة يقدرون عليها، إلا انتهزوا الفرصة فيها.

﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ﴾ أي: يسألوننا الأمور المرغوب فيها من مصالح الدنيا والآخرة ويتعوذون بنا من الأمور المرهوب منها من مضار الدارين، وهم راغبون لا غافلون، راهبون(١)، لا مدلون.

﴿ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ أي خاضعين متذللين متضرعين، وهذا لكمال معرفتهم بربهم) أ هـ(٢).

هذه هي صلة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بربهم: ذكرٌ، وتسبيحٌ، ودعاءٌ.

(١) (راهبون): في الأصل: (لاهون)، ولعل الصواب ما أثبتناه ليستقيم السياق.
(٢) تفسير السعدي (٣/٢٩٧).

○ خشوعهم وبكاؤهم عند ذكر الله عز وجل:

فبعد أن ذكر الله عز وجل مجموعة من الأنبياء في سورة مريم أثنىٰ عليهم بقوله تعالىٰ: ﴿ **أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا** ﴿٥٨﴾ ﴾ [مريم: ٥٨].

يقول الشيخ السعدي – رحمه الله تعالىٰ – عند هذه الآية: (فهذه خير بيوت العالم اصطفاهم الله، واختارهم واجتباهم. وكان لهم عند تلاوة آيات الرحمن عليهم، المتضمنة للإخبار بالغيوب، وصفات علاّم الغيوب، والإخبار باليوم الآخر، والوعد والوعيد.

﴿ **خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا** ﴾ أي: خضعوا لآيات الله، وخشعوا لها، وأثرت في قلوبهم من الإيمان والرغبة والرهبة ما أوجب لهم البكاء والإنابة، والسجود لربهم. ولم يكونوا من الذين إذا سمعوا آيات الله: ﴿ **خروا عليها صماً وعميانا** ﴾ وفي إضافة الآيات إلىٰ اسمه ﴿ **الرَّحْمَٰنِ** ﴾ دلالة علىٰ أن آياته من رحمته بعباده وإحسانه إليهم؛ حيث هداهم بها إلىٰ الحق وبصرهم من العمىٰ، وأنقذهم من الضلالة، وعلمهم من الجهالة)[1] أهـ.

○ دعاؤهم عليهم الصلاة والسلام ربهم بالثبات على الحق والموت على التوحيد والإسلام:

ومن ذلك قول الله تعالىٰ عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام أنه قال: ﴿ ... **وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ** ﴿٣٥﴾ ﴾ [إبراهيم: ٣٥]. وقوله تعالىٰ

---

(١) تفسير السعدي (٣/٢٠٩).

عن دعائه الآخر أيضاً: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (٨٣)﴾ [الشعراء: ٨٣]. وقوله تعالىٰ عنه أيضاً: ﴿رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا ...﴾ [الممتحنة: ٥]. وقوله تعالىٰ عن موسىٰ عليه السلام عندما أخذت قومه الرجفة قوله: ﴿... إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ (١٥٥) وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ...﴾ [الأعراف: ١٥٥، ١٥٦]. وقوله تعالىٰ عن سليمان عليه الصلاة والسلام أنه قال: ﴿... رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (١٩)﴾.

[النمل: ١٩]

وقوله تعالىٰ عن يوسف عليه الصلاة والسلام أنه قال: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (١٠١)﴾.

[يوسف: ١٠١]

يقول السعدي - رحمه الله تعالىٰ - عند هذه الآية: (ينبغي للعبد أن يتضرع إلىٰ الله دائماً في تثبيت إيمانه، ويعمل الأسباب لذلك: يسأل الله حسن الخاتمة وتمام النعمة، ويتوسل بنعمه الحاصلة إلىٰ ربه أن يتمها عليه ويحسن له العاقبة. وليس هذا من «يوسف» تمنياً للموت - كما ظن بعضهم - بل هو دعاء الله أن يحسن خاتمته ويتوفاه علىٰ الإسلام، كما يسأل العبد ربه ذلك كل وقت)[1] أهـ.

---

(١) تفسير السعدي: (٢/٤٥٢).

ويقول ابن القيم – رحمه الله تعالىٰ – عند هذه الآية أيضاً: (جمعت هذه الدعوة الإقرار بالتوحيد، والاستسلام للرب، وإظهار الافتقار إليه، والبراءة من موالاة غير الله سبحانه، وكون الوفاة علىٰ الإسلام أجل غايات العبد، وأن ذلك بيد الله لا بيد العبد، والاعتراف بالمعاد، وطلب مرافقة السعداء)[١] أهـ.

وأختم هذه الأدعية النبوية بذلك الدعاء الذي كثيراً ما كان يلهج به الرسول ﷺ ويردده؛ فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول: «**يا مقلب القلوب ثبت قلبي علىٰ دينك**»، فقلت: يا رسول الله قد آمنا بك وبما جئت به، فهل تخاف علينا؟ قال: «**نعم، إن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء**»[٢].

فإذا كان هذا هو حال أنبياء الله عز وجل وصفوته من خلقه فحري بمن دونهم أن يخاف علىٰ نفسه من سوء الخاتمة، فمن ذا الذي يأمن الفتنة بعد أنبياء الله عز وجل؟

○ القوة في طاعة الله تعالى وعبادته:

هذه الصفة العظيمة من أبرز ما في حياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام حيث إنهم أكثر الناس عبادة وصلاة وإخباتاً لله عز جل. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله تعالىٰ – عند قوله تعالىٰ: ﴿**وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾**﴾ [ص: ٤٥]. (عن عطاء

(١) بدائع التفسير: (٢/٤٧٦).

(٢) الترمذي (٢١٤١) في القدر وقال: حسن صحيح.

الخراساني: ﴿أُوْلِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ﴾ قال: أولو القوة في العبادة والعلم بأمر الله، وعن مجاهد، وروي عن قتادة قال: أعطوا قوة في العبادة وبصراً في الدين)[١] أهـ.

والشواهد في ذكر عبادة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كثيرة منها:

- قوله تعالىٰ علىٰ لسان إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴿٤٠﴾﴾ [إبراهيم: ٤٠].

- وقوله تعالىٰ: في مدح إسماعيل عليه الصلاة والسلام: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾ [مريم: ٥٥].

- وقوله تعالىٰ في مدح إسحاق ويعقوب: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنبياء: ٧٣].

- وقوله تعالىٰ في وصف عبادة داود عليه الصلاة والسلام وإنابته وكثرة تسبيحه وخشوعه فيه حتىٰ أن الجبال والطير تردد معه؛ قوله تعالىٰ: ﴿اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾﴾ [ص: ١٧ - ١٩]. ووصف توبته بقوله سبحانه ﴿...وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾﴾ [ص: ٢٤].

وقد جاء في سجدة (ص) هذه: (عن مجاهد قال: سألت ابن عباس:

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٩/ ١٧٠).

من أين سجدت؟ قال: أو ما تقرأ: ﴿ ... **وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ** ... ﴾ [الأنعام: ٨٤]. إلىٰ: ﴿ **أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ** ... ﴾ [الأنعام: ٩٠]. فكان داود ممن أمُر نبيكم ﷺ أن يقتدي به، فسجدها عليه السلام فسجدها رسول الله ﷺ)[١].

وقد وصف لنا الرسول ﷺ جانباً من كثرة عبادة داود عليه الصلاة والسلام وقوته فيها فقال: «**أحب الصلاة إلىٰ الله صلاة داوود، وأحب الصيام إلى الله صيام داود، وكان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً، ولايفر إذا لاقىٰ**»[٢].

* أما عن نبينا محمد ﷺ وكثرة عبادته وقوته فيها فهي كثير جداً مع أنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. ولا غرابة في ذلك فهو الذي امتلأ قلبه معرفة بربه سبحانه وحباً وتعظيماً له، وهو الذي قال له ربه سبحانه: ﴿ **يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ① قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ② نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ③ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ④** ﴾ [المزمل: ١ - ٤]. وهو الذي قال له ربه عز وجل: ﴿ **وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ㉖** ﴾ [الإنسان: ٢٦]. وقال له: ﴿ ... **فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ㉕** ﴾ [مريم: ٦٥]. وأكتفي بشاهدين اثنين من أحواله الكثيرة في عبادته ﷺ وقوته فيها:

- فعن حذيفة رضي الله عنه قال: (صليت مع النبي ﷺ ذات ليلة،

---

(١) البخاري في التفسير رقم (٤٨٠٧).

(٢) البخاري في التهجد (١١٣١)، مسلم كتاب الصيام (١٨٩).

فافتتح البقرة فقلت: يركع عند المائة، ثم مضىٰ، فقلت: يصلي بها في الركعة، فمضىٰ، فقلت: يركع بها، ثم افتتح النساء، فقرأها، ثم افتتح آل عمران، فقرأها؛ يقرأ مترسلاً، إذا مرّ بآية فيها تسبيح سبح، وإذا مر بسؤال سأل، وإذا مر بتعوذ تعوذ. ثم ركع فجعل يقول: سبحان ربي العظيم، فكان ركوعه نحواً من قيامه، ثم قال: سمع الله لمن حمده - زاد في رواية ربنا لك الحمد - ثم قام قياماً طويلاً قريباً مما ركع، ثم سجد فقال: سبحان ربي الأعلىٰ، فكان سجوده قريباً من قيامه)[١].

وعن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال: قام النبي ﷺ حتىٰ تورمت قدماه، فقيل له: قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر قال: «**أفلا أكون عبداً شكورا**»[٢].

وأخيراً فهذه أحوال المصطفين الأخيار من أنبياء الله عز وجل. وما سبق ذكره إن هو إلا جانب يسير وغيض من فيض من صلتهم بالله عز وجل ذكراً وتسبيحاً ودعاء وصلاة، فهل من مشمر للأخذ بهديهم كما أمر الله عز وجل ﴿**فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ**﴾؟ وهل بقي مجال لأحد أن يعتذر بكثرة المشاغل الدعوية وطلب العلم في التفريط في هذا الزاد العظيم؟

وتبقىٰ مسألة مهمة تبرز للمتأمل في تلك الكلمات والجُمل العطرة الجامعة والتي تتألف منها أذكارهم وأدعيتهم عليهم الصلاة والسلام؛ ألا وهي تجريد التوحيد لله عز وجل وإخلاص العبادة له وحده؛ (والدعاء هو

---

(١) مسلم (٧٧٢) في صلاة المسافرين.

(٢) البخاري رقم (٤٨٣٦) في التفسير، ومسلم رقم (٢٨١٩) في صفات المنافقين.

العبادة) لأنه مظهر من مظاهر العبودية لله سبحانه، والاعتراف بأنه وحده الذي يكشف الضر وترفع إليه الحاجات، وهو وحده الذي تُرجىٰ رحمته ويُخشىٰ عذابه، ولذلك وصف الله عز وجل أنبياءه ورسله بقوله تعالىٰ: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾ [الإسراء: ٥٧].

فهل بقي عذر لمن يتوجه إلىٰ الأنبياء أو غيرهم في جلب نفع أو دفع ضر، وهذا هو شأنهم مع ربهم في دعائهم له؟

ثالثاً: كمال توكلهم على الله عز وجل واستعانتهم به وحده ورضاهم بحكمه:

وهذه الصفات من هديهم عليهم الصلاة والسلام تدخل في آثار معرفتهم بالله عز وجل وبأسمائه وصفاته، والبينات العظيمة التي يجدونها في نفوسهم عن ربهم سبحانه. فأثمر ذلك كله هذا التوكل الصادق والثقة العظيمة بالله عز وجل والتفويض المطلق إلىٰ الله سبحانه. وهذا كله يفسر لنا ذلك الثبات العظيم والشجاعة التي ليس لها مثيل في تاريخ البشر، والتي واجهوا بها قوىٰ الشر والطغيان وواجهوا بها كل صنوف التهديد والأذىٰ والقتل والتشريد، وكلما كان الاتِّباع لهم شديداً نال المتبع والمقتدي بهديهم من هذا التوكل والثبات والاطمئنان نصيباً يكافئ صدق توحيده وصدق اتباعه واقتدائه، جعلنا الله عز وجل من المقتدين بهم المتبعين لهديهم، وحشرنا في زمرتهم وألحقنا بركبهم، إنه علىٰ كل شيء قدير.

ونستعرض الآن شيئاً من هذه النماذج الفريدة في صدق التوكل والاستعانة بالله وحده التي أثمرت الطمأنينة والشجاعة والتسليم لأمرالله عز وجل.

١- أمثلة في الشجاعة والثبات:

● قال الله عز وجل عن نبيه نوح عليه الصلاة والسلام: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنظِرُونِ (٧١) ﴾ [يونس: ٧١].

● وقال تعالى عن نبيه هود عليه الصلاة والسلام في محاجته لقومه: ﴿ ... قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٦) ﴾.

[هود: ٥٤ - ٥٦]

هذان موقفان متشابهان في الشجاعة والتحدي يواجه بها كلٌّ نبي قومه الغلاظ الشداد وهو وحيد فريد، وما ذلك إلا من العلم بالله عز وجل وأسمائه وصفاته الذي أثمر هذا التوكل والثبات وحسن الظن بالله عز وجل؛ يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى:

(ولما علم نبي الله هود عليه السلام أن ربه على صراط مستقيم في خلقه وأمره ونهيه، وثوابه وعقابه، وقضائه وقدره، ومنعه وعطائه، وعافيته

وبلائه وتوفيقه وخذلانه، لا يخرج في ذلك عن موجب كماله المقدس، الذي تقتضيه أسماؤه وصفاته، من العدل والحكمة والرحمة والإحسان والفضل، ووضع الثواب موضعه، والعقوبة في موضعها اللائق بها، ووضع التوفيق والخذلان والعطاء والمنع والهداية والإضلال، كل ذلك في أماكنه ومحاله اللائقة به، بحيث يستحق علىٰ ذلك كمال الحمد والثناء - أوجب له ذلك العلم والعرفان، إذ نادىٰ علىٰ رءوس الملأ من قومه بجنان ثابت وقلب خائف بل متجرد لله: ﴿ . . .**إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَىٰ اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾.

ثم أخبر عن عموم قدرته وقهره لكل ما سواه، وذل كل شيء لعظمته فقال: ﴿**مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ فكيف أخاف من ناصيته بيد غيره، وهو في قهره وقبضته، وتحت قهره وسلطانه دونه، وهل هذا إلا من أجهل الجهل وأقبح الظلم؟)[1] أهـ.

ويعلق محمد العدوي في كتابه «دعوة الرسل» علىٰ هذا الثبات العظيم من نوح وهود عليهما الصلاة والسلام فيقول:

(فكان من نبيّ الله بعد ذلك التهديد أن قال لهم: ﴿**إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا**

(١) بدائع التفسير (٢ / ٤٣١، ٤٣٢).

﴿تُنظِرُونِ﴾ ومن أعظم آيات الصدق والإخلاص أن يواجه بهذا الكلام رجل واحد أمة عطاشا إلىٰ إراقة دمه، يرمونه عن قوس واحدة، ثقة بربه أن يعصمه منهم فلا تنشب فيه مخالبهم. ومثل ذلك قول نوح عليه السلام: ﴿... ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنظِرُونِ (٧١)﴾ [يونس: ٧١]. وانظر إلىٰ قوله ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا﴾ يريد أنني لا أبالي بكم وبكيدكم، ولا أخاف معرتكم وإن تعاونتم عليّ، وأنتم الأشداء الأقوياء، فكيف تضرني آلهتكم، وما هي إلا جماد، وكيف تنتقم مني إذا نلت منها، وصددت عن عبادتها، بأن تخبلني وتذهب بعقلي. نعم إن هذه آية من آيات الله في أنصار الحقّ، وعبرة من العبر من آيات الله فيهم أن يزيل من قلوبهم هيبة الظالمين، وخشية المفسدين؛ لأن قلوبهم امتلأت بالخشية من الله والخوف منه. ولأنهم واثقون بضعف كيد الشيطان، وأنصار الباطل، وقد أرانا الله تعالىٰ أن الباطل لجلج، وأن الحقّ واضح أبلج، وأن العاقبة لأوليائه، والخذلان لأعدائه، وقدوتنا الحسنة في ذلك أئمة الهدىٰ، وهداة البشر؛ من اختارهم الله تعالىٰ لقيادة الناس وسعادة الإنسانية، فهم الذين يرسمون لنا طريق الدعوة، ويعرفوننا الاستهانة بالباطل، وإكبار الحقّ، ومن أجل ذلك كانوا أشجع الناس قلوباً، وأوثقهم عقيدة، وأربطهم جأشاً؛ تضطرب الأرض ومن عليها بفساد المفسدين وهم لا يضطربون، وتضج من هول الجبابرة والمستكبرين، وهم علىٰ دينهم دائبون، وبدعوتهم معتصمون، وعلىٰ ربهم متوكلون. وانظر إلىٰ قوله بعد ذلك التحدّي ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ لتعلم سر هذه الشجاعة النادرة، والثقة الغالية؛ سرّها أنه متوكل علىٰ ربه، معتصم بمولاه ﴿... وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٠١)﴾ [آل عمران:

١٠١]. وجدير بمن يتوكل على ربه ويلجأ إلى خالقه أن يبدل خوفه أمناً وضعفه قوّة، ويرزقه عزاً لا ينقطع، وقوة لا تقف عند حدّ: ﴿ ...وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ (٨) ﴾ [المنافقون: ٨]. وما أحوج الداعي إلى الله لذلك التوكل، وتفويض الأمور إلى الله تعالى، والاستعانة بالصبر والرضا، وطلب الأجر منه تعالى. ثم وصف الربّ الذي توكل عليه ووثق به في حفظه وكلاءته بما يوجب التوكل عليه فقال: ﴿ مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ﴾ والناصية: منبت الشعر في مقدّم الرأس، وإذا وصفوا إنساناً بالذلة والخضوع قالوا: ما ناصية فلان إلا بيد فلان، يريد أنه مطيع له؛ لأن كلّ من أخذت بناصيته فقد قهرته: أي ما من حيوان إلا تحت قهره وقدرته ومنقاد لقضائه وقدره، ثم ختم ذلك بقوله: ﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ يريد أنه على طريق الحقّ والعدل في ملكه، لا يفوته ظالم، ولا يضيع عنده معتصم به)[1] أهـ.

● ومن مواقف الشجاعة والثبات وحسن الظن بالله عز وجل ما قصه الله عز وجل علينا في كتابه عن موسى عليه الصلاة والسلام مع قومه عندما تبعهم فرعون وجنوده عند البحر.

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) ﴾.

[الشعراء: ٦١ – ٦٣]

---

(١) دعوة الرسل د. محمد أحمد العدوي (ص ٢٢).

- ومثل هذا الموقف ما قصه الله عز وجل عن نبينا محمد ﷺ وصاحبه أبي بكر إذ هما في الغار.

قال تعالىٰ: ﴿ **إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا ...** ﴾ [التوبة: ٤٠].

٢- أمثلة في حسن الظن بالله والرضى بحكمه:

وهذه الصفات يثمرها التوكل الصادق الذي ينبع من العلم بالله عز وجل ومعرفة أسمائه وصفاته وآثارها. ومن هذه الأمثلة:

● قوله تعالىٰ عن خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿ **فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ (١٠٦)** ﴾. [الصافات: ١٠١ - ١٠٦]

حقاً إن هذا لهو البلاء المبين والامتحان العظيم للثقة بالله عز وجل والرضىٰ بحكمه والاستسلام لأمره، وقد وصف الله سبحانه حالهما بقوله ﴿ **فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ** ﴾. أي أسلم الوالد والولد لأمر الله عز وجل وحكمه. الله أكبر، ما أعظم هذه النفوس وأنبلها وأطهرها وأعظم إيمانها وتوحيدها. فاللَّهم ألحقنا بهم، واحشرنا في زمرتهم يا أرحم الراحمين.

● ونموذج آخر يقصه الله سبحانه علينا عن توكل إبراهيم عليه السلام علىٰ ربه عز وجل والمسارعة في تنفيذ أمره والاستسلام لحكمه وذلك في ذهابه إلىٰ مكة مع زوجه هاجر وابنهما إسماعيل عليهم جميعاً الصلاة والسلام، ثم تركه لهما هنالك حيث لا ماء ولا طعام ولا أنيس ولا جليس.

قال الله عز وجل علىٰ لسان إبرهيم عليه الصلاة والسلام في دعائه لربه سبحانه بعد أن ترك إسماعيل وأمه في وادي مكة: ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧) ﴾.
[إبراهيم: ٣٧]

روىٰ البخاري في صحيحه أثراً عن ابن عباس رضي الله عنهما في قصة هاجر وابنها إسماعيل أورد بعضها - ولو أنها موقوفة علىٰ ابن عباس، لكن لما كانت هذه الأخبار مما لا مجال للاجتهاد فيه، وقد نهىٰ ابن عباس رضي الله عنهما عن الأخذ عن بني إسرائيل، وبعض أجزاء هذه القصة يرفعه ابن عباس إلىٰ الرسول الله ﷺ - فقد اخترت قطعة منها لما فيها من الشواهد الدالة علىٰ كمال توكل إبرهيم عليه السلام وزوجه هاجر وثقتهما بالله عز وجل والاستسلام لحكمه، والقصة تنطق بما فيها فلا تحتاج إلىٰ تعليق.

روىٰ البخاري رحمه الله تعالىٰ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل، اتخذت منطقاً لتعفي أثرها علىٰ سارة، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهي ترضعه حتىٰ وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلىٰ المسجد، وليس بمكة

يومئذ أحد وليس بها ماء. فوضعهما هنالك ووضع عندهما جراباً فيه تمر وسقاء فيه ماء.

ثم قفّىٰ إبراهيم منطلقاً فتبعته أم إسماعيل، فقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس به أنيس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مراراً وجعل لا يلتفت إليها ؛فقالت له: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذن لا يضيعنا. ثم رجعت.

فانطلق إبراهيم، حتىٰ إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الدعوات ورفع يديه فقال: ﴿ **رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ** (٣٧) ﴾.
[إبراهيم: ٣٧]

ورجعت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء، حتىٰ إذا نفد ما في السقاء عطشت وعطش ابنها وجعلت تنظر إليه يتلوىٰ - أو قال يتلبط - فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترىٰ أحداً؟ فلم تر أحداً، فهبطت من الصفا حتىٰ إذا بلغت بطن الوادي رفعت طرف درعها ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتىٰ جاوزت الوادي ثم أتت المروة فقامت عليها، ونظرت هل ترىٰ أحداً؟ فلم تر أحداً؛ فعلت ذلك سبع مرات.

قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: « **فلذلك سعىٰ الناس بينهما** ».

فلما أشرفت علىٰ المروة سمعت صوتاً فقالت: صه، تريد نفسها. ثم تسمعت فسمعت أيضاً، فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غواث. فإذا هي بالملك عند موضع زمزم، فبحث بعقبه - أو قال بجناحه - حتىٰ ظهر الماء، فجعلت تحوِّضه وتقول بيدها هكذاً، وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعد ما تغرف.

قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «**يرحم الله أم إسماعيل! لو تركت زمزم - أو قال: لو لم تغرف من الماء، لكان زمزم عيناً معيناً**» قال: فشربت وأرضعت ولدها. فقال لها الملك: لا تخافي الضيعة فإن ها هنا بيتاً يبنيه هذا الغلام وأبوه وإن الله لا يضيع أهله..» الحديث[1].

● ونموذج آخر من التوكل العظيم والثبات العظيم لإبراهيم عليه الصلاة والسلام فيما قصه الله عز وجل علينا عن إلقائه في النار. قال تعالىٰ: ﴿**قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾**﴾ [الأنبياء: ٦٨ - ٧٠].

روىٰ البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ﴿**حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ**﴾ قالها إبراهيم حين ألقي في النار. وقالها محمد حين قيل له ﴿**... إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾**﴾ [آل عمران: ١٧٣])[2].

---

(١) البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٦٤).

(٢) البخاري في التفسير (٤٥٦٣).

● ما قصَّه الله عز جل في سورة يوسف عن يعقوب عليه الصلاة والسلام وحسن ظنه بالله عز وجل والرضا بحكمه النابع من صدق توكله وثقته بربه سبحانه.

قال تعالىٰ في وصف رجائه وحسن ظنه بربه سبحانه بعدما فقد ابنه الثاني وقبله كان قد فقد يوسف عليه السلام: ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٨٣) وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (٨٤) قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ (٨٥) قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٨٦) يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (٨٧) ﴾.

[يوسف: ٨٣ – ٨٧]

وإن هذا الرجاء العظيم من يعقوب عليه الصلاة والسلام في ربه عز وجل وحسن ظنه به واستسلامه لحكمه ليظهر من قوله: ﴿ عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ وقد توسل عليه الصلاة والسلام إلىٰ ربه باسمه ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ و ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ وذلك لعلم يعقوب عليه الصلاة والسلام بربه وعلمه بأسمائه وصفاته ودلالاتها وآثارها فكأنه يقول: إنه هو ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بحالي في الحزن والأسف ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ الذي لم يبتلني بذلك إلا لحكمة ومصلحة.

وكذلك يتضح هذا الرجاء في الله عز وجل وعدم اليأس من رحمته من

قوله: ﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ .

يقول سيد قطب رحمه الله تعالىٰ: (هذا الشعاع من أين جاء إلىٰ قلب هذا الرجل الشيخ؟ إنه الرجاء في الله، والاتصال الواثق به، والشعور بوجوده ورحمته، ذلك الشعور الذي يتجلىٰ في قلوب الصفوة المختارة فيصبح عندها أصدق وأعمق من الواقع المحسوس الذي تلمسه الأيدي وتراه الأبصار... فيا للقلب الموصول!!!

﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾

تحسسوا بحواسكم في لطف وبصر، وصبر علىٰ البحث. ودون يأس من الله وفرجه ورحمته. وكلمة «روح» أدق دلالة وأكثر شفافية. ففيها ظل الاسترواح من الكرب الخانق بما ينسم علىٰ الأرواح من رَوْح الله الندي:

﴿ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾

فأما المؤمنون الموصولة قلوبهم بالله، الندية أرواحهم برَوْحه، الشاعرون بنفحاته المحيية الرخية فإنهم لا ييأسون من رَوْح الله ولو أحاط بهم الكرب واشتد بهم الضيق. وإن المؤمن لفي روح من ظلال إيمانه، وفي أنس من صلته بربه، وفي طمأنينة من ثقته بمولاه، وهو في مضايق الشدة ومخانق الكروب...)[1].

وهذه المواقف العظيمة من صدق التوكل والرجاء وحسن الظن بالله عز

(١) في ظلال القرآن (٤/٢٠٢٦).

وجل يفسرها قوله تعالىٰ علىٰ لسان يعقوب عليه السلام: ﴿ **وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ** ﴾ أي أعلم من رحمته وإحسانه وآثار أسمائه وصفاته ما لا تعلمون.

يتحدث سيد قطب رحمه الله تعالىٰ عند قوله سبحانه علىٰ لسان يعقوب عليه الصلاة والسلام: ﴿ **وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ** ﴾ فيقول: «وهذه قيمة الإيمان بالله، ومعرفته سبحانه هذا اللون من المعرفة. معرفة التجلي والشهود، وملابسة قدرته وقدره، وملامسة رحمته ورعايته، وإدراك شأن الألوهية مع العبيد الصالحين.

إن هذه الكلمات: ﴿ **وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ** ﴾ تجلو هذه الحقيقة بما لا تملك كلماتنا نحن أن تجلوها. وتعرض مذاقاً يعرفه من ذاق مثله فيدرك ماذا تعني هذه الكلمات في نفس العبد الصالح يعقوب..

والقلب الذي ذاق هذا المذاق لا تبلغ الشدائد منه - مهما بلغت - إلا أن يتعمق اللمس والمشاهدة والمذاق! ولا نملك أن نزيد. ولكننا نحمد الله علىٰ فضله في هذا، وندع ما بيننا وبينه له يعلمه سبحانه ويراه»[1] أهـ.

وتبقىٰ وقفة مهمة في هذه الحياة الإيمانية ليعقوب عليه الصلاة والسلام. ألا وهي عند قوله تعالىٰ: ﴿ **وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ** ﴾. فقد يقول قائل: ألا يتنافىٰ الحزن والغم مع الرضىٰ بقدر الله والاستسلام لحكمه؟ ويجيب العدوي علىٰ هذا السؤال فيقول:

---

(١) في ظلال القرآن (٤/ ٢٠٢٦).

(ولا ضير في أن يتألم نبيّ الله يعقوب لهذه الشدائد، ويحزن الحزن العميق لتلك الأحداث؛ لأن هذا طبع الإنسان واستعداده، ويمتاز الصالحون بأنهم لا يغضبون ربهم في حزنهم، ولا يخرجون به إلىٰ ما لا يحسن، ولقد بكىٰ رسول الله ﷺ علىٰ ولده إبراهيم، وقال «**إن القلب يحزن، والعين تدمع، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا لفراقك يا إبرهيم لمحزونون**»[١] والأنبياء بشر يجري عليهم ما يجري علىٰ سائر الناس من الحزن والفرح، والتألم للمصائب والاستبشار بالنعم)[٢].

إذن فالحزن والهم والغم الذي يصيب الأنبياء والصالحين هو من طبيعة البشر، والذي يجعله سبحانه أجراً وتكفيراً لعباده المؤمنين وألماً وحسرة علىٰ غيرهم، ولكن إذا خرج الحزن والهم بصاحبه إلىٰ الجزع والتسخط واليأس من رَوْح الله عز وجل فإن هذا هوالذي يتنافىٰ مع الإيمان بالله عز وجل والاستسلام لحكمه، وهذا مالم يتطرق إلىٰ قلب يعقوب عليه السلام؛ بل إنا وجدناه يقول: ﴿**يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ**﴾ ويقول: ﴿**... إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (٦٧)**﴾[يوسف: ٦٧].

● وختم الله عز وجل قصة يوسف بهذا الخطاب الخاشع الواثق بالله من يوسف عليه الصلاة والسلام؛ذلك الخطاب الذي كله رقة وخضوع

---

(١) البخاري في الجنائز (١٣٠٣)، ومسلم في الفضائل (٢٣١٥).
(٢) دعوة الرسل (ص١٤٧).

وتبرؤ من الحول والقوة وإرجاع الأمر إلىٰ لطف الله وتثبيته في جميع مراحل الابتلاءات التي مر بها. قال الله عز وجل: ﴿ ... **وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (١٠٠)** ﴾ [يوسف: ١٠٠].

وبالتأمل فيما قاله يوسف عليه الصلاة والسلام يظهر هذا الأدب العظيم منه عليه السلام مع ربه سبحانه، ورد الفضل والإحسان إليه عز وجل في جميع ما مر به في ابتلاءاته المختلفة، كما يلاحظ في هذا الدعاء أن يوسف عليه السلام ختمه بثلاث أسماء كريمة من أسماء الله عز وجل هي: اللطيف والحكيم والعليم، وهذا من فقه يوسف عليه الصلاة والسلام ومعرفته بربه سبحانه وأسمائه وصفاته العلا وآثارها؛ فلقد ربط ما أصابه في حياته وإخراجه من السجن ومجيء أهله إليه بلطف الله عز وجل وحكمته وعلمه. وهذا من حسن ظنه بربه، والاستسلام لحكمه وتفويض الأمور إليه[١].

يقول الشيخ السعدي رحمه الله تعالىٰ في عرضه للدروس المستنبطة من قصة يوسف عليه السلام:

(ومنها: أ نه ينبغي لمن أنعم الله عليه بنعمة، بعد شدة وفقر وسوء حال أن يعترف بنعمة الله عليه، وأن لا يزال ذاكراً حاله الأولىٰ، ليحدث

---

(١) انظر للاستزادة: رسالة: ﴿إن ربك حكيم عليم﴾.

لذلك شكراً كلما ذكرها، لقول يوسف عليه السلام:

﴿ ... وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ ... ﴾ [يوسف: ١٠٠].

ومنها: لطف الله العظيم بيوسف، حيث نقله في تلك الأحوال، وأوصل إليه الشدائد والمحن، ليوصله بها إلىٰ أعلىٰ الغايات، ورفيع الدرجات)[١].

٣- أمثلة في الاستعانة بالله عز وجل والتبرؤ من الحول والقوة:

وهذه الصفة من أعظم ثمار العلم بالله عز وجل وتوحيده والتوكل عليه، فترىٰ حياتهم كلها قائمة علىٰ الاستعانة بالله وحده والاعتصام به سبحانه، وأنهم لا يرون لأنفسهم فضلاً ولا قوة إلا بما يمدهم الله به من توفيقه وعزته عز وجل، وهذه الصفة بارزة في هديهم جميعاً نكتفي منها بما يلي:

● قول الله عز وجل في دعاء نوح عليه السلام بعد أن كذَّبه قومه وبذل جميع الأسباب في هدايتهم: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴿١٠﴾ ﴾. [القمر: ١٠]

● قوله تعالىٰ عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام أنه قال: ﴿ ... رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٥﴾ ﴾[الممتحنة: ٤، ٥].

---

(١) تفسير السعدي (٢/ ٤٥٢).

● وقوله تعالىٰ: عن موسىٰ عليه الصلاة والسلام في وصيته لقومه بعد أن هددهم فرعون بقتل أولادهم: ﴿ **قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٢٨)** ﴾ .

[الأعراف: ١٢٨]

● وقوله تعالىٰ أيضاً عن وصية أخرىٰ من موسىٰ لقومه: ﴿ **وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ (٨٤)** ﴾ .

[يونس: ٨٤]

● وقوله تعالىٰ عن موسىٰ عليه السلام عندما هدده فرعون بالقتل: ﴿ **وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَّ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ (٢٧)** ﴾ [غافر: ٢٧].

● وقوله تعالىٰ: عن يوسف عليه الصلاة والسلام عندما تعرض لفتنة النساء: ﴿ **قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٤)** ﴾ [يوسف: ٣٣، ٣٤].

يقول الشيخ السعدي رحمه الله في الفوائد المستنبطة من سورة يوسف عند هذه الآية:

(ومنها: أنه ينبغي للعبد، أن يلتجئ إلىٰ الله، ويحتمي بحماه عند وجود أسباب المعصية، ويتبرأ من حوله وقوته؛ لقول يوسف عليه السلام: ﴿ **وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ**

الْجَاهِلِينَ ﴾)[١].

ويقول الإمام ابن كثير رحمه الله تعالىٰ عند هذه الآية: (أي إن وكلتني إلىٰ نفسي، فليس لي من نفسي قدرة، ولا أملك لها ضراً ولا نفعاً إلا بحولك وقوتك، أنت المستعان، وعليك التكلان؛ فلا تكلني إلىٰ نفسي)[٢].

ويعلق سيد قطب رحمه الله تعالىٰ علىٰ هذه الآية بقوله:

(وهي دعوة الإنسان العارف ببشريته. الذي لا يغتر بعصمته؛ فيريد مزيداً من عناية الله وحياطته، يعاونه علىٰ ما يعترضه من فتنة وكيد وإغراء.

﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾..

وهذا الصرف قد يكون بإدخال اليأس في نفوسهن من استجابته لهن بعد هذه التجربة؛ أو بزيادة انصرافه عن الإغراء حتىٰ لا يحس في نفسه أثراً منه. أو بهما جميعاً.

﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ الذي يسمع ويعلم، يسمع الكيد ويسمع الدعاء، ويعلم ما وراء الكيد وما وراء الدعاء. وهكذا اجتاز يوسف محنته الثانية، بلطف الله ورعايته)[٣]أهـ.

---

(١) تفسير السعدي: (٢/٤٤٧).

(٢) تفسير ابن كثير ط. الشعب (٤/٣١٣).

(٣) في ظلال القرآن (٤/١٩٨٥).

الجانب الثاني :

من هديهم عليهم الصلاة والسلام في السلوك والأخلاق

لقد خص الله عز وجل أنبياءه عليهم الصلاة والسلام بالكمال البشري في الأخلاق والسلوك فجاءوا قدوات لمن بعدهم يُهتدىٰ بأخلاقهم ويُقتدىٰ بسلوكهم كما كان الشأن في توحيدهم وإيمانهم ومعرفتهم بربهم سبحانه. ولا غرابة فيما وصلوا إليه من أخلاق عالية وصفات نبيلة فإن هي إلا من آثار التصور الصحيح والإيمان العظيم، فالارتباط بين المعتقد والسلوك ارتباط قوي وبينهما تناسب طردي تشهد له الأدلة والتجارب، فكلما صح الاعتقاد وكان سليماً فإن الأخلاق تعلو وتنبل وتشرف والعكس بالعكس.

وإن الفكر ليكلَّ والقلم يعجز عن الإحاطة بأخلاق وسلوكيات هؤلاء الصفوة من عباد الله عز وجل، سواءً من جهة الكم أو الكيف. ولكن حسبنا أن نستعرض بعض هذه الأخلاق السامقة لتدلنا علىٰ بقيتها؛ لعل القلوب ترق والعزائم تستيقظ لتلحق بهذه الصفوة المباركة فتهتدي بأخلاقهم وتترسم سلوكهم، وخاصة في مثل زماننا المعاصر والذي يشهد أزمة أخلاق وسوء ممارسات وتعامل بين الناس، خاصة بين بعض أهل الخير منهم. فإن كنا محبين للأنبياء حقيقة فهذه أخلاقهم عليهم الصلاة والسلام، وقد أمرنا الله عز وجل بالاقتداء بهم فيها وفي غيرها: ﴿ **أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ** ﴾.

ومن هذه الأخلاق ما يلي:

(١) خلق النصح والرحمة بالناس والشفقة عليهم من عذاب الله عز وجل:

لقد قص الله عز وجل علينا في كتابه الكريم من أخبار أنبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام ما يدل دلالة واضحة علىٰ شدة نصحهم للناس ورحمتهم بهم وشفقتهم عليهم. وبذلوا في ذلك جميع الأسباب الممكنة لهدايتهم وإنقاذهم من عذاب الله سبحانه.

والأدلة علىٰ ذلك كثيرة منها:

● قوله تعالىٰ عن نبيه نوح عليه الصلاة والسلام: ﴿**قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾**﴾ [الأعراف: ٦١، ٦٢].

● وقوله تعالىٰ عن نبيه هود عليه الصلاة والسلام: ﴿**قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾**﴾ [الأعراف: ٦٧، ٦٨].

● وقوله تعالىٰ عن نبيه صالح عليه الصلاة والسلام بعد هلاك قومه: ﴿**فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ﴿٧٩﴾**﴾ [الأعراف: ٧٩].

● وقوله تعالىٰ عن نبيه شعيب عليه الصلاة والسلام بعد هلاك قومه: ﴿**فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ**

آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [الأعراف: ٩٣].

● وقوله تعالىٰ عن دعوة نوح عليه الصلاة والسلام لقومه: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الأعراف: ٥٩].

يقول الشيخ السعدي رحمه الله تعالىٰ عند هذه الآية: (ثم خوفهم – إن لم يطيعوه – عذاب الله فقال: ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ وهذا من نصحه عليه الصلاة والسلام، وشفقته عليهم حيث خاف عليهم العذاب الأبدي ، والشقاء السرمدي، كإخوانه من المرسلين الذين يشفقون علىٰ الخلق أعظم من شفقة آبائهم وأمهاتهم)[١] أهـ.

وهذا التخوف علىٰ الناس من عذاب الله عز وجل كان عند جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ ومن ذلك قول الله عز وجل عن شعيب عليه الصلاة والسلام يحذر قومه: ﴿ وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ [هود: ٨٩].

● وقد وصف الله عز وجل نبيه محمد ﷺ بقوله: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [التوبة: ١٢٨]. ولقد بلغ النصح والشفقة علىٰ الناس من نبينا محمد ﷺ حتىٰ كاد هذا الأمر أن يهلكه – فخاطبه الله عز وجل قائلاً: ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [الشعراء: ٣]، فكان ﷺ

(١) تفسير السعدي (٢/١٢٢).

يحزن حزناً شديداً علىٰ عدم إيمانهم نصحاً لهم وشفقة عليهم.

الله أكبر، ما أعظم هذه الأخلاق، وما أزكىٰ هذه القلوب المخلصة لربها المتجردة من الأهواء والشحناء وإرادة الدنيا. ما أحوجنا إلىٰ هذه الأخلاق العظيمة والقلوب النقية. خاصة في زماننا اليوم الذي قلّ فيه الناصحون المشفقون علىٰ عباد الله سبحانه، حيث تحوّلت الدعوة عند كثير منّا – إلا من رحم الله تعالىٰ – إلىٰ خصومات وتصيّد للأخطاء وفرح بها. وما ذاك إلا من خلل في الإخلاص، ودخول الأهواء إلىٰ القلوب. فإذا كان شأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مع أقوامهم الكفار، هو الرحمة بهم والنصح لهم والشفقة عليهم، فلأن يكون هذا الشعور مع من أخطأ من المسلمين أو انحرف منهم أقوىٰ وأقوىٰ، ولو أنا انطلقنا في دعوتنا مقتدين بهدي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ؛ انطلاق الناصح الرحيم المشفق بإخوانه المسلمين من دعاة وغيرهم لكان الأمر علىٰ غير ما نراه اليوم من الشحناء والأحقاد والخصومات والأهواء، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وإن هذه الأخلاق النبيلة لتنبع من الإخلاص وسلامة القلوب. كما أنها في نفس الوقت تقتضي وتثمر أخلاقاً أخرىٰ لازمة له. فالناصح لعباد الله عز وجل لا تراه إلا صابراً حليماً رفيقاً يحب الرفق والأناة في الأمور كلها. لا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها. وهذه الأخلاق جميعها واضحة في حياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأدلتها كثيرة في القرآن الكريم، ولكن المقام لا يتسع لذكرها.

ويبقىٰ أمر مهم في الحديث عن خلق النصح والرحمة عند الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ ألا وهو نصحهم ورحمتهم وشفقتهم بأقاربهم

وتوجيه النصح والدعوة بادئ ذي بدء إليهم، والشواهد على ذلك كثيرة منها:

● دعوة نوح عليه الصلاة والسلام ابنه إلى الإيمان والركوب معه في السفينة التي نجى الله فيها المؤمنين من الغرق.

قال الله تعالى: ﴿ ... **وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ** (٤٢) ﴾ [هود: ٤٢].

ومما يلفت النظر في هذه المناداة من نوح عليه السلام لابنه أنه حذّره بأن لا يكون مع الكافرين، ولم يقل: مع الهالكين أو المغرقين؛ لأن نهاية الغرق الموت، أما نهاية الكفر فغضب الله عز وجل والخلود في نار جهنم. وقد حقت كلمة الكفر على ابن نوح ﴿ ... **وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ** ... ﴾ [هود: ٤٣]. ومع ذلك فقد أدرك حب الولد ورحمته نوحاً عليه الصلاة والسلام فتوجه إلى ربه لعله أن يرحم ولده. وهذا من باب الرحمة والنصح والشفقة على الأقارب.

● ومن هذا الباب أيضاً وصية نوح عليه الصلاة والسلام لأحد أبنائه المسلمين وذلك حين حضرته الوفاة:

فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: (كنا عند رسول الله ﷺ فجاء رجل من أهل البادية عليه جبة سيجان. مزرورة بالديباج فقال: (ألا إن صاحبكم هذا قد وضع كل فارس ابن فارس، أو قال: يريد أن يضع كل فارس ابن فارس، ورفع كل راع ابن راع).

قال فأخذ رسول الله ﷺ بمجامع جبته وقال: «**ألا أرىٰ عليك لباس من لايعقل!؟**» ثم قال: «**إن نبي الله نوحاً عليه السلام لما حضرته الوفاة قال لابنه: إني قاص عليك الوصية؛ آمرك باثنتين وأنهاك عن اثنتين: آمرك بلا إله إلا الله فإن السماوات السبع والأرضين السبع لو وضعت في كفة ووضعت لا إله إلا الله في كفة رجحت بهن لا إله إلا الله، ولو أن السماوات السبع والأرضين السبع كن حلقة مبهمة ضمتهن لا إله إلا الله. وسبحان الله وبحمده. فإن بها صلات كل شيء، وبها يرزق الخلق. وأنهاك عن الشرك والكبر**» قال: قلت – أو قيل – يا رسول الله، هذا الشرك قد عرفناه، فما الكبر؟ أن يكون لأحدنا نعلان حسنتان لهما شراكان حسنان؟ قال: «**لا**» قال: هو أن يكون لأحدنا حلة يلبسها؟ قال: «**لا**» قال: هو أن يكون لأحدنا دابة يركبها؟ فقال: «**لا**» قال: هو أن يكون لأحدنا أصحاب يجلسون إليه؟ قال: «**لا**» قلت: – أو قيل – يا رسول الله فما الكبر؟ قال: «**سفه الحق وغمط الناس**»[1].

● ومن هذا الباب أيضاً تلك الدعوة التي وجهها إبراهيم عليه الصلاة والسلام لأبيه والتي كلها نصح وشفقة ورحمة مع أدب جم وحلم وتلطف من الابن النبي إلىٰ أبيه الكافر.

قال الله تعالىٰ: ﴿**وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا (٤٢)**

(١) رواه أحمد في مسنده (٢/١٦٩، ١٧٠)، والبخاري في الأدب المفرد (٢/٢٥١) فضل الله الصمد، وقال أحمد شاكر رحمه الله تعالىٰ: إسناده صحيح (٦٥٨٣).

يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣) يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥) قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (٤٦) قَالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (٤٧) ﴾ [مريم : ٤١ - ٤٧].

ومع أن الأب الشقي رد نصيحة إبراهيم عليه الصلاة والسلام وهدده وتوعده بالرجم وطالبه بالهجر والمقاطعة إلا أن الابن البار الخائف علىٰ أبيه من عذاب يمسه من الرحمن قال : ﴿ **سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا** ﴾ فلما أيس من إيمانه تبرأ منه واعتزله وترك الاستغفار له. ومع ذلك فإن إبراهيم عليه الصلاة والسلام يحاول الشفاعة فيه يوم القيامة ولكن حقت كلمة العذاب علىٰ الكافرين.

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال : «**يلقىٰ إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلىٰ وجه آزر قترة وغبرة فيقول له إبراهيم : ألم أقل لك لا تعصني ؟ فيقول أبوه : الآن لا أعصيك . فيقول إبراهيم : يا رب إنك وعدتني ألا تخزني يوم يبعثون فأي خزي أخزىٰ من أبي الأبعد ؟ فيقول الله : إني حرمت الجنة علىٰ الكافرين . ثم يقال : يا إبراهيم انظر ما تحت رجليك ؟ فينظر فإذا هو بذيخ ملتطخ ، فيؤخذ بقوائمه فيلقىٰ في النار**»[١].

● ومن ذلك قوله تعالىٰ عن إسماعيل عليه السلام : ﴿ **وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ**

---

(١) البخاري : كتاب الأنبياء (٣٣٥٠).

بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ ﴾ [مريم: ٥٥].

يقول الشيخ السعدي رحمه الله تعالىٰ: (أي وكان مقيماً لأمر الله علىٰ أهله فيأمرهم بالصلاة المتضمنة للإخلاص للمعبود، وبالزكاة المتضمنة للإحسان إلىٰ العبيد، فكمل نفسه وكمل غيره وخصوصاً أخص الناس عنده وهم أهله لأنهم أحق بدعوته من غيرهم)[1].

● ومن ذلك أمر الله عز وجل نبيه محمد ﷺ بدعوة قرابته في قوله تعالىٰ: ﴿ **وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ...** ﴾ [طه: ١٣٢].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله تعالىٰ: (أي استنقذهم من عذاب الله بإقام الصلاة، واصبر أنت على فعلها كما قال تعالىٰ: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ...** ﴾ [التحريم: ٦]) اهـ[2].

● ومنه قوله تعالىٰ: ﴿ **وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾** ﴾ [الشعراء: ٢١٤]. وقد امتثل الرسول ﷺ الأمر فنادىٰ قرابته الأبعد ثم الأقرب فأنذرهم عذاب الله عز وجل وحذرهم من عقوبة ماهم عليه من الشرك.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قام رسول الله ﷺ حين أنزل الله تعالىٰ: ﴿ **وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ** ﴾ فقال: «**يا معشر قريش - أو كلمة نحوها -. اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا عباس بن عبد المطلب لا أغني**

---

(١) تفسير السعدي: (٣/٢٥٨).

(٢) تفسير ابن كثير عند الآية (١٣٢) من سورة طه.

عنك من الله شيئاً، يا صفية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئاً، ويا فاطمة بنت محمد سليني ما شئت من مالي لا أغني عنك من الله شيئاً»(١).

وبعد هذه الشواهد الدالة علىٰ شدة عناية الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بأقاربهم وخوفهم عليهم من عذاب الله عز وجل، هل بقي بعد هذا عذر لنا في إهمال أولادنا وأهلينا وأقاربنا وترك النصح والتوجيه لهم؟ نعم إن كثيراً منا اليوم قد نراه نشيطاً في دعوة الناس وإسداء النصح والخير لهم، وهذا شيء طيب ومطلوب، ولكن أين نصيب الأهل والأقارب من هذه الدعوة؟ إن الواقع خلاف ذلك إلا من وفق الله عز وجل. ولذلك وفي مثل زماننا اليوم الذي أقبلت الفتن فيه كقطع الليل المظلم وكاد طوفان الفساد أن يعم الصالح والفاسد، أتوجه باللوم الشديد لنفسي ومن يشاركني هذا الإهمال، وأدعو نفسي وإخواني الدعاة أن نبدأ بداية جادة في صفوف أهلينا وأقاربنا، نعلمهم الخير ونحذرهم الشر، والناس والحمد لله لا زال في قلوبهم الخير، ولكن يريدون من ينفض الغبار عن هذه القلوب ويجمعهم علىٰ الخير. وينبغي الحذر ممن يثبطنا عن هذا العمل بحجة تضييع الجهد أو صعوبة البداية أو غير ذلك، فهذا كله من وساوس الشيطان وصده عن سبيل الله، والأمر يسير والحمد لله ولا يحتاج إلا إلىٰ الإخلاص والصدق ثم يأتي تيسير الله عز وجل وتسخير النفوس لقبول مثل هذا المشروع الذي يحقق للداعية ثمرتين عظيمتين لا تقل إحداهما عن الأخرىٰ؛ فإما أن تثمر الدعوة في وسط الأقارب خيراً فيحصل القبول والاتعاظ وتتطهر النفوس

---

(١) البخاري في الوصايا (٢٧٥٣)، ومسلم في الإيمان (٢٠٦).

والبيوت من الفساد والمنكرات، وفي هذا أجر عظيم. وإما أن يحصل للداعية الإعذار وإبراء الذمة. وقد أخبرني من له تجربة في هذا الأمر أنه كان متهيباً في بداية الأمر، ولكنه استعان بالله عز وجل وبدأ مشروعه في لم شمل الأقارب في شكل لقاء شهري يدور بين بيوت الأقارب يجتمع فيه الكبير والصغير وتطرح فيه بعض المناصحات والاقتراحات، وقراءة بعض الفتاوىٰ في بعض المنكرات، ثم لم يقف اجتماع شمل الأقارب عند هذا الحد بل نتج عنه اجتماع شمل الشباب فيها وتعاونوا علىٰ الخير والمناصحة فيما بينهم، وأثمر ذلك برامج دعوية هادفة في وسط الأقارب. ولنتصور أن الدعاة إلىٰ الله عز وجل – وما أكثرهم – بدأ كل واحد منهم ينشط في أقاربه مثل هذا النشاط. فكم من الخيرالعظيم سيسري في هذه الأمة؟!

٢- خلق الصبر والتقوىٰ:

وهذان الخلقان العظيمان هما أساس الإمامة في الدين، وقد منّ الله عز وجل علىٰ أنبيائه عليهم الصلاة والسلام بحظ عظيم منهما فحازوا قصب السبق فيهما. وقد سبق الحديث عن تقوىٰ الأنبياء عليهم السلام في ذكر خوفهم من الله سبحانه، وعبادتهم له؛ ولذلك سيكون الكلام هنا عن صبرهم.

قال الله تعالىٰ مسلياً نبيه محمد ﷺ: ﴿**وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾**﴾ [الأنعام: ٣٤].

وقال تعالىٰ عن بعض أنبيائه قولهم: ﴿**... وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا**

وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (١٢) ﴾ [إبراهيم: ١٢].

وقال عز وجل: ﴿ **فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ...** ﴾ [الأحقاف: ٣٥]. وقال تعالىٰ عن أيوب عليه الصلاة والسلام: ﴿ **... إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٤٤)** ﴾ [ص: ٤٤].

وقال سبحانه عن نبيه يوسف عليه الصلاة والسلام بعد تلك الابتلاءات المتنوعة والتي ثبته الله عز جل فيها وتجاوزها بنجاح أنه قال: ﴿ **... إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٩٠)** ﴾ [يوسف: ٩٠] والآيات في وصف صبر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وتقواهم وخشيتهم من الله سبحانه كثيرة لا يتسع المقام لذكرها. ومما تجدر الإشارة إليه أن من أهم أغراض قصص الأنبياء في القرآن الكريم هو أخذ العبر من صبرهم وتضحيتهم ومعاناتهم في مواجهة الشرك وإرجاع الناس إلىٰ عبادة الله عز وجل؛ وذلك حتىٰ يقتدي بصبرهم من جاء بعدهم من الدعاة والمصلحين فيثبتوا ولا يضعفوا، ويستبشروا ولا ييأسوا. قال تعالىٰ: ﴿ **وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (١٢٠)** ﴾ [هود: ١٢٠].

والأنبياء عليهم الصلاة والسلام يتفاوتون ويتفاضلون في الصبر؛ فصبر أولي العزم من الرسل هو أعظم الصبر لأنهم واجهوا من الأذىٰ والصد ما لم يواجهه نبي قط. وقد جاء التنويه بذكر صبرهم في قوله تعالىٰ: .﴿ **فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ...** ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

● فنوح عليه الصلاة والسلام صبر في دعوته لقومه صبراً عظيماً دام

ألف سنة إلا خمسين عاماً كلها دعوة وجهاد وصبر علىٰ أذىٰ قومه له وسخريتهم منه، واتهامهم له بالجنون تارة وبالسحر تارة وبالضلال تارة، وهو يقابل ذلك كله بالصبر والسماحة والحلم حتىٰ انتهىٰ بهم الأمر إلىٰ تهديده بالقتل رجماً قال تعالىٰ: ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (١١٦)﴾ [الشعراء: ١١٦]

● وهذا إبراهيم عليه الصلاة والسلام تعرض لمحن عظيمة فصبر لها صبر الموحد لربه الموقن بوعده؛ ذلك حين ألقي في النار؛ وحين أمر بذبح ابنه وفلذة كبده، وحين أمر بترك أهله بواد غير ذي زرع، وحين هاجر من موطنه وترك أباه وأقاربه.

● وهذا موسىٰ عليه الصلاة والسلام وما واجه من الأذىٰ والتهديد من فرعون وملئه، ثم ما واجه من الأذىٰ والتعنت من قومه بني إسرائيل حتىٰ أن الرسول ﷺ قال عن موسىٰ عليه الصلاة والسلام: «**يرحم الله موسىٰ قد أوذي بأكثر من هذا فصبر**»(١).

● وهذا عيسىٰ عليه الصلاة والسلام، جاءه من الأذىٰ والتهم الباطلة من بني إسرائيل حتىٰ تآمروا علىٰ قتله وصلبه، فصبرعلىٰ ذلك كله. ولكن الله عز وجل رفعه إليه

● وهذا خاتم الأنبياء محمد ﷺ تعرض للأذىٰ العظيم والاضطهاد الشديد في نفسه وفي أصحابه رضي الله عنهم؛ فقال عنه المشركون إنه

---

(١) البخاري في الأدب (٦١٠٠)، ومسلم في الزكاة (١٠٦٢).

ساحر وكاهن وشاعر ومجنون، وحُوصر مع أصحابه وقرابته في شعب أبي طالب حتىٰ أكلوا الجيف، وخرج إلىٰ الطائف فرده أهلها رداً عنيفاً ورموه بالحجارة حتىٰ دُميت قدماه الشريفتان، ولم يستطع دخول مكة - ذلك البلد الذي يأمن فيه الطير والوحش - لم يستطع دخولها إلا في جوار مطعم بن عدي، ثم تآمر المشركون علىٰ قتله فخرج مهاجراً إلىٰ المدينة وهناك بدأ الجهاد. وما يكاد يخرج من غزوة إلا ويدخل في أخرىٰ، وأصابه في بعضها القرح والآلام، وقتل من أصحابه الكثير بين يديه، واستمر على هذه الحياة الجهادية والتي كلها صبر ومصابرة حتىٰ توفاه الله عز وجل وقد أقر عينه بفتح مكة ودخول الناس في دين الله أفواجاً، فكمل الله به الدين، وأتم به النعمة، فصلىٰ الله وسلم عليه وعلىٰ إخوانه من النبيين والمرسلين.

وبعد هذا الاستعراض السريع لصبر بعض الأنبياء يحسن التفصيل في نموذج أو نموذجين من صبرهم عليهم الصلاة والسلام:

● فصَّل شيخ الإسلام رحمه الله تعالىٰ في جوانب الصبر في حياة يوسف عليه الصلاة والسلام والابتلاءات التي مر بها وأنه ما وصل إلىٰ تلك الحياة الكريمة في آخر حياته إلا بالتقوىٰ والصبر كما قال عن نفسه عليه الصلاة والسلام: ﴿ ... **إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ** ⦗٩٠⦘ ﴾ [يوسف: ٩٠]. ولكن شيخ الإسلام رحمه الله تعالىٰ نوه في بداية حديثه علىٰ أن هذا الصبر العظيم من يوسف عليه الصلاة والسلام لا يعني أنه فاق أولي العزم من الرسل في الصبر والتقوىٰ. فها هو يقول رحمه الله تعالىٰ: (وأما قصة نوح وإبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ وغيرهم صلوات الله عليهم فتلك أعظم، والواقع فيها من الجانبين؛ فما فعلته الأنبياء من الدعوة

إلىٰ توحيد الله وعبادته ودينه وإظهار آياته وأمره ونهيه ووعده ووعيده ومجاهدة المكذبين لهم والصبر علىٰ أذاهم هو أعظم عند الله، ولهذا كانوا أفضل من يوسف صلوات الله عليهم أجمعين، وما صبروا عليه وعنه أعظم من الذي صبر يوسف عليه وعنه، وعبادتهم لله وطاعتهم وتقواهم وصبرهم وبما فعلوه أعظم من طاعة يوسف وعبادته وتقواه، أولئك أولو العزم الذين خصهم الله بالذكر في قوله: ﴿ **وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾** ﴾ [الأحزاب: ٧]. وقوله: ﴿ **شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ...** ﴾ [الشورىٰ: ١٣]. وهم يوم القيامة الذين تطلب منهم الأمم الشفاعة، وبهم أمر خاتم الرسل أن يقتدي في الصبر بهم)[١].

وبعد هذا التنويه من شيخ الإسلام رحمه الله تعالىٰ يأتي إلىٰ إبراز ما في قصة يوسف عليه الصلا ة والسلام من جوانب الصبر العظيمة لتدل بدورها علىٰ من هو أعظم صبراً من يوسف عليه الصلاة والسلام. قال رحمه الله تعالىٰ: (وفي قول يوسف: ﴿ **... رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾** ﴾ [يوسف: ٣٣] عبرتان:

إحداهما: اختيار السجن والبلاء علىٰ الذنوب والمعاصي.

والثانية: طلب سؤال الله ودعائه أن يثبت القلب علىٰ دينه ويصرفه

---

(١) مجموع الفتاوىٰ ١٧ / ٣١، ٣٢.

إلىٰ طاعته، وإلا فإذا لم يثبت القلب وإلا صبا إلىٰ الآمرين بالذنوب، وصار من الجاهلين.

ففي هذا توكل علىٰ الله واستعانة به أن يثبت القلب علىٰ الإيمان والطاعة، وفيه صبر علىٰ المحنة والبلاء والأذىٰ الحاصل إذا ثبت علىٰ الإيمان والطاعة. وهذا كقول موسىٰ عليه السلام لقومه: ﴿ ... **اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ** (١٢٨) ﴾ [الأعراف: ١٢٨] لما قال فرعون: ﴿ ... **سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ** (١٢٧) **قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ** (١٢٨) ﴾.

[الأعراف: ١٢٧، ١٢٨]

وكذلك قوله: ﴿ **وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ** (٤١) **الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ** (٤٢) ﴾ [النحل: ٤١، ٤٢].

ومنه قول يوسف عليه السلام: ﴿ ... **فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ** (٩٠) ﴾ [يوسف: ٩٠]، ومنها قوله تعالىٰ: ﴿ ... **وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا** ... ﴾ [آل عمران: ١٢٠]، وقوله ﴿ ... **وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ** (١٨٦) ﴾ [آل عمران: ١٨٦] وقوله: ﴿ **بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ** (١٢٥) ﴾ [آل عمران: ١٢٥].

فلابد من التقوىٰ بفعل المأمور والصبر علىٰ المقدور، كما فعل يوسف

عليه السلام: اتقىٰ الله بالعفة عن الفاحشة، وصبر علىٰ أذاهم له بالمراودة والحبس، واستعان الله ودعاه، حتىٰ يثبته علىٰ العفة، فتوكل عليه أن يصرف عنه كيدهن، وصبر علىٰ الحبس...

ومن احتمل الهوان والأذىٰ في طاعة الله علىٰ الكرامة والعز في معصية الله، كما فعل يوسف عليه السلام وغيره من الأنبياء والصالحين؛ كانت العاقبة له في الدنيا والآخرة، وكان ما حصل له من الأذىٰ قد انقلب نعيماً وسروراً، كما أن ما يحصل لأرباب الذنوب من التنعم بالذنوب ينقلب حزناً وثبوراً؛ فيوسف عليه السلام خاف الله من الذنوب ولم يخف من أذىٰ الخلق وحبسهم إذ أطاع الله، بل آثر الحبس والأذىٰ مع الطاعة علىٰ الكرامة والعز وقضاء الشهوات ونيل الرياسة والمال مع المعصية، فإنه لو وافق امرأة العزيز نال الشهوة وأكرمته المرأة بالمال والرياسة، وزوجها في طاعتها، فاختار يوسف الذل والحبس، وترك الشهوة والخروج عن المال والرياسة مع الطاعة علىٰ العز والرياسة والمال وقضاء الشهوة مع المعصية، بل قدم الخوف من الخالق علىٰ الخوف من المخلوق وإن آذاه بالحبس والكذب، فإنها كذبت عليه؛ فزعمت أنه راودها ثم حبسته) أهـ[1].

ويشير محمد العدوي إلىٰ قوة الإرادة وعزة النفس عند يوسف عليه الصلاة والسلام واستعانته بربه سبحانه علىٰ ذلك فيقول: (﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ...﴾ جواب رجل أعدّه الله لأن يكون نبياً وهيأه لأن يكون زعيماً دينياً؛ جواب ما أبرده علىٰ قلب المؤمن، وأحبه

(١) مجموع الفتاوىٰ ١٥ / ١٣٠ - ١٣٥ (باختصار).

إلىٰ نفسه يقول يوسف فيه مخاطبا لربه ومولاه وصاحب الفضل الأوّل عليه: إن السجن علىٰ ما فيه من شظف العيش، وخشونة الفراش، وحيلولة بين الرجل وبين الحياة، هو أحبّ إلىٰ نفسي مما يدعونني إليه؛ لأنهنّ يدعونني إلىٰ عصيانك، والخروج علىٰ طاعتك، وامتهان النفس، وضياع الخلق والكرامة، وضعف الإرادة، فأنا أفضل أن أعيش في السجن متحملاً ما فيه من تعذيب علىٰ مايدعونني إليه من عصيانك والفسوق عن أمرك)أهـ[١].

ويقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالىٰ: (وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - يقول: كان صبر يوسف عن مطاوعة امرأة العزيز علىٰ شأنها أكمل من صبره علىٰ إلقاء أخوته له في الجب، وبيعه وتفريقهم بينه وبين أبيه. فإن هذه أمور جرت عليه بغير اختياره، لا كسب له فيها، ليس للعبد فيها حيلة غير الصبر، وأما صبره عن المعصية، فصبر اختيار ورضىٰ، ومحاربة للنفس، ولا سيما مع الأسباب التي تقوىٰ معها دواعي الموافقة. فإنه كان شاباً، وداعية الشباب إليها قوية. وعزباً ليس له ما يعوضه ويرد شهوته. وغريباً، والغريب لا يستحيي في بلد غربته مما يستحيي منه من بين أصحابه ومعارفه وأهله. ومملوكاً، والمملوك أيضاً ليس له وازعه كوازع الحر. والمرأة جميلة وذات منصب وهي سيدته. وقد غاب الرقيب. وهي الداعية له إلىٰ نفسها والحريصة علىٰ ذلك أشد الحرص، ومع ذلك توعدته إن لم يفعل بالسجن والصغار. ومع هذه الدواعي كلها صبر اختياراً وإيثاراً لما عند الله. وأين هذا من صبره في الجب علىٰ ما ليس

---

(١) دعوة الرسل إلىٰ الله تعالىٰ محمد العدوي ص ١١١.

من كسبه)أهـ[١].

كما يقول رحمه الله تعالىٰ في مواطن آخر: (وكذلك كان صبر نوح وإبرهيم وموسىٰ وعيسىٰ عليهم الصلاة والسلام – علىٰ ما نالهم في الله باختيارهم وفعلهم، ومقاومتهم قومهم – أكمل من صبر أيوب علىٰ ما ناله في الله من ابتلائه وامتحانه بما ليس مسبباً عن فعله، وكذلك صبر إسماعيل الذبيح، وصبر أبيه إبراهيم عليهما السلام علىٰ تنفيذ أمر الله أكمل من صبر يعقوب علىٰ فقد يوسف)أهـ[٢].

هذا هو صبر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وهذه هي تضحياتهم، وإذا أردنا أن نقتدي بهم في هذا الخلق العظيم وأن ننتفع به كما انتفعوا فلابد في هذا الصبر من شروط ثلاثة:

(١– أن يكون الصبر بالله. والمراد بذلك الاستعانة بالله سبحانه ورؤيته أنه هو المصبِّر، وأن صبر العبد بربه لا بنفسه؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ ...﴾ [النحل: ١٢٧].

٢– أن يكون لله؛ وهو أن يكون الباعث له علىٰ الصبر محبة الله، وإرادة وجهه والتقرب إليه لا لإظهار قوة النفس والاستحماد إلىٰ الخلق وغير ذلك من الأغراض.

٣– أن يكون الصبر مع الله؛ وهو دوران العبد مع مراد الله الديني منه؛

---

(١) مدارج السالكين ٢ /١٥٦.

(٢) المصدر السابق ٢ /١٦٩.

ومع أحكامه الدينية سائراً بسيرها مقيماً بإقامتها؛ أي يجعل نفسه وقفاً علىٰ أوامره ومحابه)أهـ[١].

وفي ختام الكلام عن هذا الخلق العظيم من خلق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أنقل مقتطفات مما كتبه سيد قطب رحمه الله تعالىٰ عن هذا الجانب العظيم بعد معاناة وتجارب واجهها وقاساها في دعوته وابتلاءاته المريرة؛ يقول رحمه الله تعالىٰ: (والدعوة إلىٰ الصبر والتوجيه إليه صاحبت كل دعوة وتكررت لكل رسول ولكل مؤمن يتبع الرسول، وهي ضرورية لثقل العبء ومشقة الطريق، ولحفظ هذه النفوس متماسكة راضية موصولة بالهدف البعيد منطلقة كذلك إلىٰ الأفق البعيد. والصبر حتىٰ يحكم الله في الوقت المقدر ما يريد: ﴿ **فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ** ... ﴾ [القلم: ٤٨].. إن مشقة الدعوة الحقيقية هي مشقة الصبر لحكم الله حتىٰ يأتي موعده في الوقت الذي يريده بحكمته. وفي الطريق مشقات التكذيب والتعذيب، ومشقات الالتواء والعناد، ومشقات انتفاش الباطل وانتفاخه، ومشقات افتتان الناس بالباطل المزهو المنتصر فيما تراه العيون، ثم مشقات إمساك النفس عن هذا كله، راضية مستقرة مطمئنة إلىٰ وعد الله الحق، لا ترتاب ولا تتردد في قطع الطريق مهما تكن مشقات الطريق.. وهو جهد ضخم مرهق يحتاج إلىٰ عزم وصبر ومدد من الله وتوفيق: ﴿ **فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا** ﴿٥﴾ ﴾ [المعارج: ٥] والصبر الجميل هو الصبر المطمئن الذي لا يصاحبه السخط ولا القلق ولا الشك في صدق الوعد. صبر الواثق من العاقبة،

---

(١) انظر مدارج السالكين ٢ / ١٥٧ (باختصار).

الراضي بقدر الله، الشاعر بحكمته من وراء الابتلاء الموصول بالله، المحتسب كل شيء عنده مما يقع به.. وهذا اللون من الصبر هو الجدير بصاحب الدعوة؛ فهي دعوة الله، وهي دعوة إلىٰ الله، ليس له هو منها شيء، وليس له وراءها من غاية؛ فكل ما يلقاه فيها فهو في سبيل الله، وكل ما يقع في شأنها هو من أمر الله. فالصبر الجميل إذن ينبعث متناسقاً مع هذه الحقيقة ومع الشعور بها في أعماق الضمير.. والله صاحب الدعوة التي يقف لها المكذبون، وصاحب الوعد الذي يستعجلون به ويكذبون. يقدر الأحداث ويقدر مواقيتها كما يشاء وفق حكمته وتدبيره للكون كله.. ولكن البشر لا يعرفون هذا التدبير وذلك التقدير فيستعجلون، وإذا طال عليهم الأمد يستريبون. وقد يساور القلق أصحاب الدعوة أنفسهم، وتجول في خاطرهم أمنية ورغبة في استعجال الوعد ووقوع الموعود..عندئذ يأتي التثبيت من الله ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلاً﴾ تثبيتاً للقلب علىٰ ما يلقىٰ من عنت المناوأة والتكذيب.. (اصبر).. إنها الإشارة إلىٰ الطريق المطروق في حياة الرسل عليهم صلوات الله. الطريق الذي يضمهم أجمعين؛ فكلهم ساروا في هذا الطريق.. كلهم عانىٰ. كلهم ابتلي. وكلهم صبر. وكان الصبر هو زادهم جميعاً. وطابعهم جميعاً. كل حسب درجته في سلم الأنبياء.. لقد كانت حياتهم كلها تجربة مفعمة بالابتلاءات مفعمة بالآلام. لكأنما كانت تلك الحياة المختارة – بل إنها كذلك – صفحات من الابتلاء والصبر معروضة للبشرية، لتسجل كيف تنتصر الروح الإنسانية علىٰ الآلام والضرورات وكيف تستعلي علىٰ كل ما تعتز به في الأرض، وتتجرد من الشهوات والمغريات، وتخلص لله وتنجح في امتحانه، وتختاره علىٰ كل شيء سواه.

ثم لتقول للبشرية في النهاية: هذا هو الطريق.. هذا هو الطريق إلىٰ الاستعلاء وإلىٰ الإرتفاع. هذا هو الطريق إلىٰ الله. فالصبر هو طريق الرسالات وطريق الدعوات: ﴿ ... **إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ** ﴿١٠﴾ ﴾ [الزمر: ١٠].. الدعوة إلىٰ الصبر.. الصبر علىٰ التكذيب، والصبر علىٰ الأذىٰ، والصبرعلىٰ نفخة الباطل وانتشائه بالغلبة والسلطان في فترة من الزمان، والصبر علىٰ طباع الناس وأخلاقهم وتصرفاتهم من هنا وهناك، والصبر علىٰ النفس وميولها وقلقها وتطلعها ورغبتها في النصر القريب وما يتعلق به من رغائب وآمال، والصبر علىٰ أشياء كثيرة في الطريق قد تجيء من جانب الأصدقاء قبل أن تجيء من جانب الأعداء..﴿ **فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ** ... ﴾ [الروم: ٦٠]. مهما يطل الأمد ومهما تتعقد الأمور ومهما تتقلب الأسباب) أهـ[١].

٣- خلق الكرم والوفاء والشجاعة:

إن خلق الكرم والشجاعة والوفاء ثلاثة أخلاق لا ينفك أبداً بعضها عن بعض؛ فقل أن يوجد شجاع وهو غير كريم أو وفي. وقل أن يوجد كريم وهو جبان أوخائن؛ فالجبن والبخل والخيانة قرناء سوء يولد بعضها بعضاً، كما أن الكرم والشجاعة والوفاء قرناء خير يولد بعضها بعضاً. وقد سبق الحديث عن تلك الشجاعة العظيمة والثبات الشديد عند الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ وذلك في الحديث عن صدق توكلهم علىٰ الله عز وجل ومعرفتهم بربهم سبحانه وأسمائه وصفاته.

---

(١) طريق الدعوة في ظلال القرآن (ص ٢٠٣، ٢٠٤).

ولذلك سيكون الكلام في هذه الفقرة عن خلقي الكرم والجود والوفاء عند الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والذين ضربوا أروع الأمثلة في ذلك؛ فمن ذلك ما يلي:

(١) الكرم الذي كان من إبراهيم عليه الصلاة والسلام لأضيافه من الملائكة؛ قال الله تعالىٰ: ﴿ **هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنكَرُونَ (٢٥) فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (٢٦)** ﴾ [الذاريات: ٢٤ – ٢٦] .

ويتحدث الإمام ابن القيم رحمه الله تعالىٰ عند هذه الآية عن كرم إبرهيم عليه الصلاة والسلام وحسن ضيافته فيقول:

(قوله: ﴿ **فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (٢٦) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٢٧)** ﴾ [الذاريات: ٢٦، ٢٧] متضمن وجوهاً من المدح وآداب الضيافة وإكرام الضيف.

– منها قوله: ﴿ **فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ** ﴾ والروغان الذهاب بسرعة واختفاء، وهو يتضمن المبادرة إلىٰ إكرام الضيف، والاختفاء يتضمن ترك تخجيله وألا يعرضه للحياء، وهذا بخلاف من يتثاقل ويتبارد علىٰ ضيفه ثم يبرز بمرأىٰ منه ويحل صرة النفقة ويزن ما يأخذ ويتناول الإناء بمرأىٰ منه ونحو ذلك، مما يتضمن تخجيل الضيف وحياءه. فلفظة ﴿ **رَاغَ** ﴾ تنفي هذين الأمرين.

– وفي قوله تعالىٰ: ﴿ **إِلَىٰ أَهْلِهِ** ﴾ مدح آخر لما فيه من الإشعار أن كرامة الضيف معدة حاصلة عند أهله، وأنه لا يحتاج أن يستقرض من

جيرانه ولا يذهب إلىٰ غير أهله، إذ قرىٰ الضيف حاصل عندهم.

- وقوله: ﴿ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ الذاريات: ٢٦] يتضمن ثلاثة أنواع من المدح:

أحدها: خدمة ضيفه بنفسه؛ فإنه لم يرسل به، وإنما جاء به بنفسه.

الثاني: أنه جاءهم بحيوان تام لم يأتهم ببعضه، ليتخيروا من أطيب لحمه ما شاءوا.

الثالث: أنه سمين ليس بمهزول، وهذا من نفائس الأموال؛ ولد البقر السمين فإنهم يعجبون به، فمن كرمه هان عليه ذبحه وإحضاره.

- وقوله: ﴿إِلَيْهِمْ﴾ متضمن المدح وآداباً أخرىٰ؛ وهو إحضار الطعام إلىٰ بين يدي الضيف، بخلاف من يهيئ الطعام في موضع ثم يقيم ضيفه فيورده عليه.

- وقوله: ﴿أَلا تَأْكُلُونَ ﴾ فيه مدح وآداب أخر؛ فإنه عرض عليهم الأكل بقوله: ﴿أَلا تَأْكُلُونَ﴾ وهذه صيغة عرض مؤذنة بالتلطف، بخلاف من يقول: ضعوا أيديكم في الطعام، كلوا، تقدموا، ونحو هذا)أهـ[١].

(٢) وهذا يوسف عليه الصلاة والسلام يقول الله عز وجل علىٰ لسانه وهو يخاطب إخوته: ﴿ ...أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [يوسف: ٥٩]. أي خير المضيفين لأنه أحسن ضيافتهم[٢].

---

(١) بدائع التفسير: (٤ / ٢٤٣).

(٢) انظر تفسير القرطبي عند هذه الآية.

(٣) أما إذا جئنا إلىٰ كرم الرسول ﷺ وجوده فهو الكرم الذي لا يضاهىٰ والجود الذي لا يبارىٰ. ويكفينا في ذلك قول ذلك الأعرابي الذي جاء إلىٰ رسول الله ﷺ فوجد عنده من الكرم والسخاء ما يبهر العقول حتىٰ قال مقولته المشهورة لما رجع إلىٰ قومه وقد أعطاه الرسول ﷺ غنماً بين جبلين فقال: (يا قوم أسلموا فإن محمداً يعطي عطاءً لا يخشىٰ الفاقة)[١].

وليس المراد في هذا البحث الإحاطة بتفاصيل كرم الأنبياء وكرم نبينا محمد عليه وعلىٰ جميع الأنبياء أفضل الصلاة والسلام. وإنما أردت في الحديث عن هذا الخلق العظيم التنبيه علىٰ أهميته في أخلاق الداعية؛ لأنه علامة علىٰ الزهد والترفع علىٰ حب الدنيا. وهذا له أثر في كسب القلوب والتأثير علىٰ الناس. فإنه لايصلح بل لا يمكن أن تصدر إمامة الدين ودعوة الناس من إنسان بخيل شحيح. وبالنظر في حياة الأنبياء والمصلحين والمجددين نجد أن صفة الكرم والبذل والسخاء ظاهرة بارزة عند الجميع.

● أما صفة الوفاء فهي بارزة في حياة الأنبياء عليهم السلام الذين بلغوا الرسالة وأدوا الأمانة وجاهدوا في الله حق جهاده؛ فمنهم إبراهيم عليه السلام الذي قال عنه ربه تعالىٰ: ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾ ﴾ [النجم: ٣٧]. قال الإمام ابن كثير رحمه الله تعالىٰ: (قال سعيد بن جبير والثوري: أي بلّغ جميع ما أُمر به، وقال ابن عباس ﴿ وَفَّىٰ ﴾ ما أمر به، وقال قتادة: ﴿ وَفَّىٰ ﴾ طاعة الله وأدىٰ رسالته إلىٰ خلقه . وهذا القول هو اختيار ابن جرير وهو يشمل الذي قبله)أهـ[٢].

---

(١) مسلم: كتاب الفضائل (٢٣١٢).

(٢) تفسير ابن كثير عند الآية (٣٧) من سورة النجم.

وقد ربط بعض المفسرين بين هذه الآية في مدح إبرهيم عليه الصلاة والسلام وبين الآية التي في سورة البقرة وهي قوله تعالىٰ: ﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ... ﴾ [البقرة: ١٢٤].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله تعالىٰ: (يقول تعالىٰ منبهاً علىٰ شرف إبراهيم خليله عليه السلام، وأن الله تعالىٰ جعله إماماً للناس يقتدىٰ به في التوحيد، حتىٰ قام بما كلفه الله تعالىٰ به من الأوامر والنواهي ولهذا قال: ﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ ﴾ أي: واذكر - يا محمد - لهؤلاء المشركين وأهل الكتابين الذين ينتحلون ملّة إبراهيم وليسوا عليها وإنما الذي هو عليها مستقيم، فأنت والذين معك من المؤمنين - اذكر لهؤلاء ابتلاء الله إبراهيم، أي: اختباره له بما كلفه به من الأوامر والنواهي ﴿ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾، أي: قام بهن كلهن، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴾، أي: وَفَّىٰ جميعَ ما شرع له، فعمل به صلوات الله عليه... وقال عبدالرزاق أيضاً: أخبرنا معمر، عن ابن طاوس، عن أبيه، عن ابن عباس: ﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ ﴾. قال: ابتلاه الله بالطهارة: خمس في الرأس، وخمس في الجسد؛ في الرأس: قص الشارب، والمضمضة، والاستنشاق، والسواك، وفَرْق الرأس. وفي الجسد: تقليم الأظفار، وحلق العانة، والختان، ونَتْف الإبط، وغسل أثر الغائط والبول بالماء.

قال ابن أبي حاتم: ورُوي عن سعيد بن المسيب، ومجاهد، والشعبي والنَّخَعي، وأبي صالح وأبي الجلد نحو ذلك.

قلت: وقريب من هذا ما ثبت في صحيح مسلم عن عائشة - رضي

الله عنها – قالت: (قال رسول الله ﷺ: «**عشرٌ من الفطرة: قصُّ الشارب، وإعفاء اللحية، والسواك، واستنشاق الماء، وقص الأظفار، وغسل البَراجم، ونتف الإبط، وحلق العانة، وانتقاص الماء**». ونسيت العاشرة إلا أن تكون: المضمضة[١]) أهـ[٢].

● وعودة مرة أخرىٰ إلىٰ إمام الحنفاء إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام في نموذج آخر من نماذج الصدق والصبر علىٰ الوفاء بالعهد والوعد مع الله عز وجل؛ وذلك في قصته عليه الصلاة والسلام عندما أُمر بذبح ابنه إسماعيل عليه الصلاة والسلام، وذلك في قوله تعالىٰ: ﴿**فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦)**﴾.

[الصافات: ١٠٢ – ١٠٦]

يقول العدوي – أثابه الله – في كتابه دعوة الرسل: (من عادة القرآن أن يحذف من القصة ما لا تدعو إليه العبرة، ولا يتوقف عليه الفهم اعتماداً علىٰ فطنة السامع؛ فيرينا الله تعالىٰ أنه بعد أن بشره بغلام ووهبه ذلك الغلام، ثم نشأ وترعرع حتىٰ وصل إلىٰ سنٍّ يستطيع معه أن يسعىٰ قال له: ﴿**يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ**﴾ وهي استشارة

(١) مسلم كتاب الطهارة (٢٦١).

(٢) تفسير ابن كثير. ط الشعب (١/٢٣٧).

تحمل في حناياها لواعج الألم ومثيرات الحزن والأسىٰ، استهلها نبي الله بقوله: ﴿يَا بُنَيَّ﴾ وكأنه يقول: يا بنيّ، ويا فلذة كبدي، الذي وهبك الله لي بعد دعائي إياه أن يهب لي ذرية صالحة، تعاونني في الدعوة وتناصرني في إقامة دين الله، إني أرىٰ في المنام أني أذبحك، فما الذي أنت فاعل في ذلك البلاء؟ وبأيّ عزيمة تلقىٰ تلك المحنة؟ وإنها لمحنة ما أشدها علىٰ نفسي الوالد والولد فماذا. كان جوابه عن ذلك السؤال الرهيب وتلك الاستشارة الموجعة؟ ولو أن ملكاً من ملوك الدنيا بعث إلىٰ رجل من رعيته برسوله له يبلغه أن ذلك الملك المطاع أمر أن تصادر أملاكه ويعيش صفر اليدين، أو أمر أن ينفىٰ من بلده ويحال بينه وبين مواطنيه. لو أن رجلاً من الناس بلغه ذلك علىٰ لسان رسول لا يكذب لكان من شأن ذلك الخبر أن ينخلع له قلب ذلك الرجل عند سماع القصة، فكيف بصبيّ يبلغه عن ربه، بواسطة أبيه - وأبوه رسول لا يكذب، مطيع لا يعصي - أن يحرمه من هذه الحياة، ويحول بينه وبين أن يعيش؟ كيف بصبيّ يبلغه أبوه رؤياه المنامية أنه يذبحه؟! ماذا تكون نفسه التي بين جنبيه في ذلك الحين؟ وماذا يكون قلبه؟ وماذا تكون إجابته؟ [وقد استشير]، ولو أن الأمر كان من طريق القسر لكان أهون علىٰ النفس وأخفّ في الاحتمال. كان جواب ذلك الصبيّ أن يقول قالة الراضي المطمئن: ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ وكأنه يقول لأبيه: إنني أقدّر قيمة ألمك لتلك التضحية، وجهاد نفسك في ذلك العمل الشاق، لأني قطعة منك، ولكن حقّ الله عليك فوق حقّ الأبناء والأحفاد، وإجابتك لداعيه أهمّ من إجابتك لدواعي الفطرة، فأجب داعي الله، وتغاض عن داعي الشفقة والحنان،

واصدع بأمر الله إرغاماً للشيطان. فإذا كنت قد ناديتني بقولك: ﴿ يَا بُنَيَّ ﴾ فإني أناديك بقولي لك: ﴿ يَا أَبَتِ ﴾، وأقول لك قول الراضي بقضاء الله وحكمه: ﴿ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ﴾ وسوف لا تراني ممتعضاً بذلك البلاء: ﴿ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾. فلم يكن من نبيّ الله إبراهيم وولده سوىٰ استسلامهما لأمر الله، فأخذ إبراهيم ينفذ أمره، وأخذ ولده يصبر لقضاء الله وحكمه. فحينما أسقطه علىٰ التلّ، ناداه الله: أن يا إبراهيم قد حققت الرؤيا؛ فاغتبط وأبشر بالفرج بعد الشدّة، واليسر بعد العسر، ولا تعجب من ذلك، فإن هذه سنتنا فىٰ جزاء المحسن) أهـ(١).

ولذلك مدح الله سبحانه نبيه إسماعيل عليه الصلاة السلام بقوله: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ ﴾ [مريم: ٥٤].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله تعالىٰ: (وقال بعضهم: وإنما قيل له ﴿ صَادِقَ الْوَعْدِ ﴾ لأنه قال لأبيه: ﴿ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ فصدق في ذلك)أهـ(٢).

● ومنهم موسىٰ عليه الصلاة السلام وما وفىٰ لربه سبحانه في تبليغ بني إسرائيل دعوة الله عز وجل وصبره علىٰ أذاهم وتعنتهم وسوء أدبهم، وقد كان له موقف وفاء قبل بعثته، ألا وهو موقفه عليه الصلاة والسلام مع شيخ مدين حينما آجر نفسه عشر سنين وهي أتم الأجلين عند الشيخ والد

---

(١) دعوة الرسل محمد العدوي ص ٦٠، ٦١.

(٢) تفسير ابن كثير عند الآية (٥٤) من سورة مريم.

البنتين حتىٰ يتزوج إحداهما، وكان قد خيره بين الثمان سنين والعشر فاختار أكمل الأجلين.

عن سعيد بن جبير، قال: سألني يهودي من أهل الحيرة: أي الأجلين قضىٰ موسىٰ فقلت: لا أدري حتىٰ أقدم علىٰ حبر العرب فأسأله. فقدمت فسألت ابن عباس فقال: (قضي أكثرهما وأطيبهما، إن رسول الله إذا قال فعل)[١].

٤- التأسي بهم في الهدي الظاهر:

يحسن بمناسبة الحديث عن خصال الفطرة التي وفىٰ إبراهيم عليه السلام بها الإشارة إلىٰ الاقتداء بهدي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في الهدي الظاهر كما هو مشار إليه في عناية إبراهيم عليه الصلاة والسلام بجسده ونظافته وخاصة بعد ما جاء ذلك علىٰ لسان نبينا محمد ﷺ من التأكيد علىٰ هذه الخصال الحسنة من خصال الفطرة. ومن هذا: الاقتداء بإبراهيم عليه السلام في نظافة مظهره، ومراعاة مصالح بدنه، وإعطاء كل عضو ما يستحقه من الإصلاح والتحسين، وإزاله ما يشين من زيادة شعر أو ظفر أو وجود وسخ أو قلح.

كما أذكر بهذه المناسبة استنباطاً لطيفاً للشيخ الشنقيطي رحمه الله تعالىٰ ذكره في تفسير سورة طه عند الآية (٩٤)؛ وذلك في التدليل علىٰ أن إعفاء اللحية من هدي الأنبياء عليهم السلام، وأن له دليلاً من القرآن الكريم، قال رحمه الله تعالىٰ: عند تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ **قَالَ يَا بْنَؤُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي ...** ﴾ [طه: ٩٤]: (هذه الآية الكريمة بضميمة

(١) البخاري: (٢٦٨٤) في الشهادات.

آية «الأنعام» إليها تدل علىٰ لزوم إعفاء اللحية؛ فهي دليل قرآني علىٰ إعفاء اللحية وعدم حلقها. وآية الأنعام المذكورة هي قوله تعالىٰ: ﴿ ... **وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ** ... ﴾ [الأنعام: ٨٤]. ثم إنه تعالىٰ قال بعد أن عد الأنبياء الكرام المذكورين: ﴿ **أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ** ... ﴾ [الأنعام: ٩٠] فدل ذلك علىٰ أن هارون من الأنبياء الذين أمر نبينا ﷺ بالاقتداء بهم، وأمره ﷺ بذلك أمرٌ لنا؛ لأن أمر القدوة أمر لأتباعه كما بينا إيضاحه بالأدلة القرآنية في هذا الكتاب المبارك في سورة «المائدة»، وقد قدمنا هناك أنه ثبت في صحيح البخاري أن مجاهداً سأل ابن عباس: من أين أخذت «السجدة» في «صٓ» قال: أو ما تقرأ ﴿ **وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ** ﴾ إلىٰ قوله: ﴿ **أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ** ... ﴾ فسجدها داود فسجدها رسول الله ﷺ[١]. فإذا علمت بذلك أن هارون من الأنبياء الذين أمر نبينا ﷺ بالاقتداء بهم في سورة «الأنعام»، وعلمت أن أمره أمر لنا؛ لأن لنا فيه الأسوة الحسنة. وعلمت أن هارون كان موفراً شعر لحيته بدليل قوله لأخيه: ﴿ ... **لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي** ... ﴾ [طه: ٩٤]. لأنه لو كان حالقاً لما أراد أخوه الأخذ بلحيته؛ تبين لك من ذلك بإيضاح: أن إعفاء اللحية من السمت الذي أمرنا به في القرآن العظيم، وأنه كان سمت الرسل الكرام صلوات الله وسلامه عليهم) أهـ[٢].

---

(١) سبق تخريجه ص ٧٨.

(٢) أضواء البيان (٤/ ٥٠٦).

الجانب الثالث:

من هديهم عليهم الصلاة والسلام في الدعوة والتبليغ

إن هذا الجانب من هدي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لمن أهم جوانب الاقتداء الذي ينبغي دراسته والوقوف عنده والتركيز عليه من قبل الدعاة اليوم، لأن النصر والتمكين الذي ينشده كل مسلم مرهون باتباع المعالم الأساسية لدعوتهم والذي اكتمل وتم تفصيله في سيرة نبينا محمد ﷺ. وما أحوجنا إلىٰ هديهم عليهم الصلاة والسلام بخاصة في واقعنا المعاصر حيث التفرق والاختلاف والتخبط والاضطراب ، كل ذلك بسبب الغفلة أو البعد عن المنهج المعصوم: منهج الأنبياء عليهم الصلاة والسلام المتمثل في الثوابت والمعالم المشتركة لهم جميعاً في الدعوة والتبليغ. ويمكن إجمال أهم هذه المعالم والثوابت فيما يلي:

١- العقيدة أولاً: علماً وعملاً ودعوة وتضحية.

٢- الولاء والبراء علىٰ أساس العقيدة والمفاصلة والتميز علىٰ ضوئها.

٣- الإخلاص في الدعوة وعدم ابتغاء الأجر إلا من الله عز جل.

٤- التعرض للأذىٰ والصد عن سبيل الله عز وجل من قبل أعداء الدعوة وأنصارالباطل.

٥- التدرج في الدعوة ومراعاة المصالح والمفاسد وقواعد الترجيح عند التعارض.

٦- السنن الربانية في دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

وتفصيل ذلك فيما يلي:

المعْلَم الأول:

العقيدة أولاً: علماً وعملاً ودعوة وتضحية.

إن مصطلح العقيدة يطلق ويراد منه ما يعقد عليه القلب من تصديق وإذعان وقبول بما جاءت به الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من الإيمان بربوبية الله عز وجل، وألوهيته، وأسمائه وصفاته، وإفراده وحده لا شريك له بالعبادة والطلب والقصد، والتبرؤ من كل ما يعبد من دون الله تعالىٰ، كما تشمل العقيدة أيضاً الإيمان بالملائكة والكتب المنزلة والرسل والإيمان باليوم الآخر والجزاء والحساب والجنة والنار وكل ما أخبر به الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من أمور الغيب، وانقياد كل قوم لما جاء به رسولهم من الأوامر والنواهي، وقبول حكم الله تعالىٰ ورفض ما سواه، والموالاة والمعاداة علىٰ أساس ذلك كله حسب ما جاءنا عن نبينا ﷺ بفهم السلف الصالح.

وإذا تأملنا في دعوة الرسل عليهم الصلاة والسلام فإنا نجد أن أول شيء دعوا إليه وضحوا من أجله وكان هو همهم وشغلهم الشاغل هو أمر هذه العقيدة من: إفراد الله بالعبادة، والإيمان باليوم الآخر، والتصديق بالوحي والرسالة. ولقد واجههم في ذلك من الأذىٰ ما تشيب له الرؤوس، ولكنهم صبروا وصابروا حتىٰ أتاهم نصر الله عز وجل، ولقد علموا من ربهم سبحانه أن أول أمر يجب أن يدعىٰ الناس إليه هو أمر التوحيد وإفراد الله سبحانه بالعبادة بكل شمولها، وأن البدء في الدعوة بغيرذلك مخالف لأمر الله تعالىٰ، العليم بما يصلح عباده، والحكيم فيما يأمر به وينهىٰ وفيما يقضيه ويقدره.

وفيما يلي بعض الآيات من القرآن الكريم تدل علىٰ أن أول شيء دعا إليه أنبياء الله ورسله عليهم الصلاة والسلام هو التوحيد وإفراد الله عز وجل بالعبادة والإيمان باليوم الآخر؛ قال تعالىٰ: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٥٩) ﴾ [الأعراف: ٥٩].

وقال تعالىٰ: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٦٥) ﴾ [الأعراف: ٦٥].

وقوله سبحانه: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ... ﴾ [الأعراف: ٧٣].

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٣٦) ﴾.

[العنكبوت: ٣٦]

وقوله عز وجل: ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١٦) ﴾ [العنكبوت: ١٦].

وقوله تعالىٰ: ﴿ ... وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ (٧٢) ﴾ [المائدة: ٧٢].

وقوله تعالىٰ لخاتم النبيين محمد ﷺ: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا

يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾ ﴾ [الكهف: ١١٠].

ولقد كان القرآن الكريم طيلة الفترة المكية يتحدث عن العقيدة علماً وعملاً مرة من خلال قصص - الأنبياء عليهم السلام - ودعوة أقوامهم إلىٰ التوحيد، ومرة من خلال المحاجة المباشرة مع المشركين وهلهلة عقيدتهم وتسفيهها، وغير ذلك من الأساليب المختلفة. فإذا كان هذا هو شأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وشغلهم الشاغل في الدعوة إلىٰ العقيدة بادئ ذي بدء، وكان أيضاً هو الهم الأول في دعوة الرسول ﷺ وخاصة في الفترة المكية، إذن فلا بد من الوقوف عند هذا المعلم من معالم الدعوة عند الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ولماذا كان أول أمر دعوا الناس إليه هو توحيد الله وعبادته.

أورد الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالىٰ: في كتاب التوحيد باب (الدعاء إلىٰ شهادة أن لا إله إلا الله) وذكر فيه الحديث الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما (أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذاً إلىٰ اليمن قال له: «**إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله** - وفي رواية -: **إلىٰ أن يوحدوا الله** ... الحديث»)[١].

ثم ذكر في مسائل الباب قوله: (كون التوحيد أول واجب وأنه يبدأ به قبل كل شيء حتىٰ الصلاة)[٢].

---

(١) البخاري في مواضع منها: ك الزكاة (١٤٥٨)، ومسلم في الإيمان (١٩).

(٢) فتح المجيد: ص ٧٢.

وقال الشيخ عبد الرحمن بن حسن رحمه الله تعالىٰ في شرحه لهذا الحديث: (وفيه دليل علىٰ أن التوحيد – الذي هو إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، وترك عبادة ما سواه – هو أول واجب، ولهذا كان أول ما دعت إليه الرسل عليهم السلام)أهـ[١].

ولقد كان في مقدور الأنبياء عليهم الصلاة والسلام البدء مع أقوامهم من غير هذا الطريق الشاق الذي كلفهم العناء والبلاء، والذي قد يبدو ولأول وهلة أنه الأسهل، كأن تبدأ الدعوة في جمع الناس علىٰ أهداف قبلية وعصبية، أو أهداف اجتماعية طبقية، أو أهداف أخلاقية سلوكية؛ فإذا اجتمعوا علىٰ هذه الرايات بلغوهم العقيدة وطالبوهم بالتزامها ورفض ما سواها!! هذا هو تصور البشر القاصر الجاهل ولكن رب البشر سبحانه والذي له الأسماء الحسنى والصفات العلا، والذي هو أعلم بخلقه وما يصلح لهم وهو اللطيف الخبير. لم يرد هذا الطريق، ولو بدا لأول وهلة أنه الأيسر والأسهل. إنه سبحانه أراد البدء بدعوة الناس إلىٰ عبادته وتوحيده سبحانه وخلع كل ما يعبد من دون الله حتىٰ إذا امتلأت القلوب بمعرفة الله وتوحيده والخوف منه جاءت الأوامر والنواهي والأحكام والنظم وقد استعدت النفوس لقبولها وأذعنت لتنفيذها. إذن فلابد من حكمة عظيمة في دعوة الناس إلىٰ العقيدة بادئ ذي بدء ينبغي الوقوف عندها. ولقد حاول الأستاذ سيد قطب رحمه الله تعالىٰ الإشارة إلىٰ هذه الحكمة وهويرد علىٰ من يرىٰ البدء بغير العقيدة تيسيراً عليهم بزعمه، حتىٰ إذا اجتمعوا علىٰ راية معينة طرح أمر العقيدة بعد ذلك عليهم!!

---

(١) فتح المجيد: ص ٦٤.

يقول رحمه الله تعالىٰ: (فلمَّا تقررت العقيدة - بعد الجهد الشاق - وتقررت السلطة التي تركن إليها هذه العقيدة.. لَمَّا عرف الناس ربهم وعبدوه وحده.. لَمَّا تحررالناس من سلطان العبيد ومن سلطان الشهوات سواء..لَمَّا تقررت في القلوب «لا إله إلا الله».. صنع الله بها وبأهلها كل شيء مما يقترحه المقترحون.. تطهرت الأرض من «الرومان والفرس».. لا ليتقرر فيها سلطان «العرب». ولكن ليتقرر فيها سلطان «الله».. لقدتطهرت من سلطان «الطاغوت» كله: رومانياً، وفارسياً وعربياً، علىٰ السواء، وتطهر المجتمع من الظلم الاجتماعي بجملته. وقام «النظام الإسلامي»، يعدل بعدل الله، ويزن بميزان الله، ويرفع راية العدالة الاجتماعية باسم الله وحده ويسميها راية «الإسلام». لا يقرن إليها اسماً آخر، ويكتب عليها: «لا إله إلا الله»!

وتطهرت النفوس والأخلاق وزكت القلوب والأرواح، دون أن يحتاج الأمر حتىٰ للحدود والتعازير التي شرعها الله -إلا في الندرة النادرة - لأن الرقابة قامت هناك في الضمائر، ولأن الطمع في رضىٰ الله وثوابه والخوف من غضبه وعقابه، قد قاما مقام الرقابة ومكان العقوبات.

وارتفعت البشرية في نظامها، وفي أخلاقها، وفي حياتها كلها، إلىٰ القمة السامقة التي لم ترتفع إليها من قبل قط والتي لم ترتفع إليها من بعد إلا في ظل الإسلام.

ولقد تم هذا كله لأن الذين أقاموا هذا الدين في صورة دولة ونظام وشرائع وأحكام، كانوا قد أقاموا هذا الدين من قبل في ضمائرهم وفي

حياتهم، في صورة عقيدة وخلق وعبادة وسلوك. وكانوا قد وُعِدُوا علىٰ إقامة هذا الدين وعداً واحداً لا يدخل فيه الغلب والسلطان.. ولا حتىٰ انتصار هذا الدين علىٰ أيديهم.. وعداً واحداً لايتعلق بشيء في هذه الدنيا.. وعداً واحداً هو الجنة. هذا كل ما وعدوه علىٰ الجهاد المضني والابتلاء الشاق، والمضي في الدعوة، ومواجهة الجاهلية بالأمر الذي يكرهه أصحاب السلطان في كل زمان وفي كل مكان وهو: « لاإله إلا الله » .

فَلَمَّا أن ابتلاهم الله فصبروا، ولَمّا أن فرغت نفوسهم من حظ نفوسهم، ولَمَّا أن علم الله منهم أنهم لا ينتظرون جزاء في هذه الأرض - كائناً ما كان هذا الجزاء، ولو كان هو انتصار هذه الدعوة علىٰ أيديهم، وقيام هذا الدين في الأرض بجهدهم - ولَمَّا لم يعد في نفوسهم اعتزاز بجد ولا قوم، ولا اعتزاز بوطن ولا أرض، ولا اعتزاز بعشيرة ولا بيت.. لَمَّا أن علم الله منهم ذلك كله، علم أنهم قد أصبحوا - إذن - أمناء علىٰ هذه الأمانة الكبرىٰ.. أمناء علىٰ العقيدة، التي يتفرد فيها الله سبحانه بالحاكمية في القلوب والضمائر، وفي السلوك والشعائر، وفي الأرواح والأموال، وفي الأوضاع والأحوال.. وأمناء علىٰ السلطان الذي يوضع في أيديهم ليقوموا به علىٰ شريعة الله ينفذونها، وعلىٰ عدل الله يقيمونه، دون أن يكون لهم من ذلك السلطان شيء لأنفسهم ولا لعشيرتهم، ولا لقومهم، ولا لجنسهم. إنما يكون السلطان الذي في أيديهم لله، ولدينه وشريعته، لأنهم يعلمون أنه من الله، وهو الذي آتاهم إياه.

ولم يكن شيء من هذا المنهج المبارك ليتحقق علىٰ هذا ا لمستوىٰ الرفيع

إلا أن تبدأ الدعوة ذلك البدء. وإلا أن ترفع الدعوة هذه الراية وحدها.. راية لا إله إلا الله.. ولا ترفع معها سواها. وإلا أن تسلك الدعوة هذا الطريق الوعر الشاق في ظاهره، المبارك الميسر في حقيقته)أهـ[١].

ولا يفهم من الكلام السابق أن نترك الدعوة إلىٰ الالتزام بالأحكام الشرعية والتي اكتملت بموت النبي ﷺ كلا؛ فالدعوة إلىٰ الإسلام شاملة للعقيدة والانقياد للأوامر والنواهي الشرعية. وإنما كان المقصود الاهتمام بالعقيدة وعدم إهمالها في الدعوة لأنها هي الأساس في التزام الأحكام الشرعية الأخرىٰ.

وفيما سبق رد علىٰ من يستعجل في إقامة الدولة الإسلامية قبل استقرار العقيدة في القلوب وتخلصها من ركام الشرك بشتىٰ صوره، لأنه لا قيمة لنظام إسلامي يقوم – إن قام – والناس الذين سيحكمهم النظام الإسلامي لم يستعدوا بعد لقبوله ولم يتخلصوا من رواسب الجاهلية وأدران الشرك. إنه يجب أن تستقر العقيدة في قلوب الداعين إليها أولاً ثم يدعون الناس إليها علماً وعملاً لا مجرد عقيدة نظرية لا رصيد لها في القلوب ولا في الواقع. ولا شك أن هذا الأمر يحتاج إلىٰ وقت طويل وجهد مرير وصراع مع الباطل وأهله حتىٰ تتهيأ النفوس لنصر الله عز وجل في وقته الذي يختاره الله سبحانه. إن ميزة عقيدة الإسلام أنها عقيدة حية إيجابية ما إن تستقر في القلب حتىٰ تحوله إلىٰ شعلة وحركة وجهاد وتضحية، وهذا هو الذي يظهر للمتأمل في دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

---

(١) معالم في الطريق ص ٣٣ – ٣٦.

حيث علموا العقيدة، وعملوا بمقتضاها ،ودعوا إليها، وصبروا علىٰ الأذىٰ في سبيلها، وضحوا من أجلها بكل نفس ونفيس.

تنبيه:

هناك من يفهم من الكلام السابق أن مسألة الحاكمية وتوحيد الطاعة والاتباع لم يكن له ذكر في بداية الدعوة حيث التركيز علىٰ العقيدة فقط، وهذا فهم خاطئ نشأ من الخلط بين الدعوة إلىٰ أن يكون الحكم لله وحده وبين إقامة الحكم الإسلامي، والنظر إلىٰ أنهما سواء. وهذا غلط؛ فتوحيد الحكم لله وحده مسألة عقدية خوطب بها الناس في أول الأمر وطولبوا بأن لا يشركوا في حكم الله أحداً كما طولبوا بأن لا يعبدوا مع الله أحداً؛ قال تعالىٰ في سورة الكهف – وهي مكية –: ﴿ ...**وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا** (٢٦) ﴾ [الكهف: ٢٦]، وقال سبحانه في السورة نفسها: ﴿ ... **وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا** (١١٠) ﴾ [الكهف: ١١٠] فتوحيد الحكم وهو توحيد الطاعة والاتباع ركن ركين من التوحيد، ويجب أن يكون في أول ما يُدعىٰ الناس إليه مع توحيد النسك والعبادة سواء بسواء؛ لأنه يعني رد الأمر إلىٰ الله عز وجل في كل شيء وتوحيد مصدر التلقي في الله وحده.

أما موضوع الدعوة إلىٰ إقامة النظام والحكم الإسلامي فهو شيء آخر، وهو الذي سبق الحديث عنه وأنه لا بد أن يسبقه فهم العقيدة وتعلمها واستسلام القلوب لها والولاء والبراء علىٰ أساسها. ولذلك يخطئ خطأً بالغاً من يقول إن رسول الله ﷺ والأنبياء من قبله لم تتوجه دعوتهم إلا لمحاربة الأصنام والأوثان. وأمرهم بعبادة الله وحده بالصلاة والذبح والنذر

والاستعانة ... إلىٰ آخر أنواع العبادة، وأنهم لم يتطرقوا للحكم والتحاكم! إن هذا غلط فاحش ولا أدل علىٰ ذلك من ورود ذكر الحكم والتحاكم ، وردّ الحكم إلىٰ الله تعالىٰ في كثير من السور المكية والتي نزلت في أول الدعوة إلىٰ العقيدة. ومن ذلك:

قوله تعالىٰ في سورة الأنعام - وهي مكية بالإجماع - : ﴿ **أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً ...** ﴾ [الأنعام: ١١٤]، وقوله تعالىٰ في السورة نفسها : ﴿ **وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (١٢١)** ﴾ [الأنعام: ١٢١]، أي أن استحلال الميتة التي حرمها الله عز وجل وطاعة غير الله في ذلك هو شرك أكبر لأنه رد لحكم الله وقبول حكم غيره .

يقول الشنقيطي رحمه الله تعالىٰ: (فهي فتوىٰ سماوية من الخالق جل وعلا صرح فيها بأن متبع تشريع الشيطان المخالف لتشريع الرحمن مشرك بالله تعالىٰ)[١].

وقوله تعالىٰ في سورة القصص وهي مكية: ﴿ **وَهُوَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الأُولَىٰ وَالآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٧٠)** ﴾ .

[القصص: ٧٠]

وقوله تعالىٰ في نفس السورة: ﴿ **وَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا إِلَهَ إِلاَّ**

---

(١) أضواء البيان (٧/ ١٧٠).

هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٨) ﴾ [القصص: ٨٨]. وقوله تعالىٰ عن يوسف عليه الصلاة والسلام وهو يدعو صاحبي السجن إلىٰ التوحيد ﴿ ... **إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٤٠)** ﴾ [يوسف: ٤٠]، وقوله تعالىٰ عن يعقوب عليه السلام قوله: ﴿ ... **إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (٦٧)** ﴾ [يوسف: ٦٧]، وقال تعالىٰ في سورة الشورىٰ - وهي مكية -: ﴿ **وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (١٠)** ﴾ [الشورىٰ: ١٠]، وعندما نقول عن السورة أنها (مكية) فإنما نقصد أن هذه الآيات قد نزلت ولم يقم بعد للمسلمين نظام ولا حكم ولا دولة.

أبعد هذا يجوز لقائل أن يقول إن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وخاتمهم نبينا محمد ﷺ لم يضمنوا دعوتهم إلىٰ العقيدة، بادئ ذي بدء مسألة الحكم والتحاكم؟! إن رد الأمور إلىٰ حكم الله عز وجل وحده هو أخصّ خصائص العقيدة، بل إن انحراف الناس عن التوحيد ووقوعهم في الشرك بشتىٰ صوره لم ينشأ إلا لعدم رد الأمر إلىٰ حكم الله عز وجل وأمره ونهيه؛ قال تعالىٰ: ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ (١٠٤)** ﴾. [المائدة: ١٠٤]

فبين عز وجل في هذه الآية أن منشأ كفرهم وشركهم أنهم ردوا أمرهم إلىٰ حكم آبائهم وعاداتهم ولم يردوه إلىٰ الله عز وجل ورسوله.

الخلاصة:

نخلص من كل ما سبق إلىٰ أن أمر العقيدة شأنه عظيم، وأنه أول ما دعىٰ إليه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وأن علىٰ من جاء بعدهم أن يهتدي بهديهم ويقتدي بمنهجهم، بالتركيز علىٰ موضوع العقيدة بكل شمولها، فيتعلمها الدعاة إلىٰ الله عز وجل، ويعملوا بمقتضاها، ويدعوا الناس إليها، ويربوهم عليها، ويصبروا علىٰ ما يصنعه الباطل وأهله من عراقيل تصد الناس عنها، وأن يضحوا من أجلها ويصبروا علىٰ ما يصيبهم في سبيلها فإن العاقبة للمتقين.

إن إدراك هذا المعلم المهم من معالم دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مهم جداً وبخاصة في مثل زماننا اليوم، الذي يشهد كثرة المناهج الدعوية وتباين أهدافها ووسائلها. إن غياب هذا المعلم أو الغفلة عنه عند البعض نشأ عنه عدة مشارب ومدارس دعوية مختلفة، نظر كل منها إلىٰ واقع الأمة فشخص مرضها وانطلق من تشخيصه هذا في العلاج؛ ومع أن كل هذه النظرات كان لها دور إيجابي في دعوتها ولا يجوز بحال أن نبخسها حقها أو أن نتجاهل ما تقدمه من خير ودعوة لهذا الدين، إلا أن واجب النصح بين المسلمين، وواجب التعاون علىٰ البر والتقوىٰ يقتضي توجيه النصح لكل هؤلاء بالانتباه إلىٰ أصل المرض قبل العَرَض؛ وذلك بالتأكيد علىٰ العقيدة بكل شمولها وضرورة البدء بها في الدعوة إلىٰ الله عز وجل، وضرورة تعلمها وفهمها الفهم الذي يريده الله سبحانه، والذي بعث به رسله عليهم الصلاة والسلام وبلغوه لأقوامهم. ولا نريد من تعلم

العقيدة وفهمها ذلك العلم النظري والفهم العقلي فحسب، كلا وإنما نريد ترجمة هذا الفهم وهذا العلم إلىٰ صورة حية تستقر في القلوب وتتحرك في الواقع. نعم لا نريد هذه الصور المؤسفة التي يسير عليها تعليم العقيدة في كثير من بلدان المسلمين إليوم من شحن الأذهان بمعلومات ومعارف كثيرة يتنافس الطلاب علىٰ إخراجها في الامتحانات، ثم تطوىٰ وتنسىٰ ولا يكون لها أثر في الضمائر والواقع. إن أخذ العقيدة بهذا الأسلوب لا يحتاج إلىٰ أكثر من عدة شهور حتىٰ تمتلئ الأذهان بها وينتهي الأمر. أما أخذ العقيدة لتعقد عليها القلوب وتتغير بها الأعمال والمواقف ويجاهد في سبيلها حتىٰ تتغير النفوس ويكون الدين كله لله؛ فإن مثل هذا المأخذ سيحتاج إلىٰ وقت طويل وصبر مرير. وهذا ما قام به الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في دعوتهم إلىٰ هذه العقيدة وتربية الناس عليها حتىٰ أن أولهم نوح عليه الصلاة والسلام لبث يدعو قومه إليها ألف سنة إلا خمسين عاماً كلها صبر ومعاناة وتضحيات. فهلا اعتبرنا بذلك في عدم العجلة وعدم استطالة الطريق؟ وهلا وطنًّا أنفسنا علىٰ الصبر والتضحية؟!

يقول سيد قطب رحمه الله تعالىٰ: (هكذا ينبغي أن تطول مرحلة بناء العقيدة وأن تتم خطوات البناء علىٰ مهل، وفي عمق وتثبت.. ثم هكذا ينبغي ألا تكون مرحلة دراسة نظرية للعقيدة، ولكن مرحلة ترجمة لهذه العقيدة - أولاً بأول - في صورة حية، متمثلة في ضمائر متكيفة بهذه العقيدة ومتمثلة في بناء جماعي....، يعبر نموه من داخله ومن خارجه عن نمو العقيدة ذاتها، متمثلة في حركة واقعية تواجه الجاهلية، وتخوض معها المعركة في الضمير وفي الواقع كذلك، لتتمثل العقيدة حية، وتنمو

نمواً حياً في خضم المعركة.

وخطأ أي خطأ – بالقياس إلىٰ الإسلام – أن تتبلور العقيدة في صورة «نظرية» مجردة للدراسة الذهنية.. المعرفية الثقافية) أ. هـ[١].

وقد يقول قائل: إننا ولله الحمد في زماننا اليوم نختلف عن حالة الناس قبل بعثة الرسل إليهم، فالتوحيد منتشر بين الناس اليوم، والدعوة قائمة والصلاة تؤدىٰ، .. إلخ فلماذا البدء في الدعوة اليوم من العقيدة، والعقيدة موجودة؟

والجواب علىٰ ذلك: صحيح أن الوضع يختلف من حيث بقاء أصل الخير وبقاء طائفة تدعو إلىٰ الحق حتىٰ يأتي أمر الله تعالىٰ، وأن الجاهلية المطلقة في الزمان قد انتهت بعد مبعث الرسول ﷺ. ولكن هذا لا يعني أن الشرك لم يخرج في هذه الأمة بل إن كثيراً من صورالشرك قد خرجت اليوم بشكل يعلمه القاصي والداني، وعادت غربة الإسلام التي أخبر بها النبي ﷺ في قوله: «**بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبىٰ للغرباء**»[٢].

والدليل علىٰ ذلك ما يلي:

● ألم تظهر في كثير من بلدان المسلمين صور صارخة من الشرك الصريح الذي يهدم التوحيد من أساسه، كالطواف حول القبور والاستغاثة

---

(١) معالم في الطريق: ص ٤٤ (باختصار).

(٢) رواه مسلم (١٤٥) في الإيمان باب: بيان أن الإسلام بدأ غريباً.

بالأولياء، وطلب شفاعتهم، ورفع الحوائج إليهم، والذبح والنذر لهم.. الىٰ آخر أنواع العبادات التي لا يجوز صرفها إلا لله الواحد القهار؟!

● ألم يظهر في كثير من بلدان المسلمين ما يسمىٰ بالطرق الصوفية وما يعتقد في مشائخها من عصمة وكشف وعلم للغيب، ناهيك عن البدع الشنيعة التي عمت وطمت عندهم؟!

● ألم ينتشر بين كثير من المسلمين اليوم الذهاب إلىٰ الكهنة والسحرة وأهل الشعوذة واستجابة الناس لمطالبهم الشركية الشيطانية؟!

● ألم يُنح شرع الله عز وجل في أكثر بلدان المسلمين، حتىٰ أصبح شرع الطاغوت الظالم الجاهل هوالذي يحكم في دماء المسلمين وعقولهم وأموالهم وأعراضهم، وظهر الشرك في الحكم وتوجهت الطاعة في التحليل والتحريم إلىٰ غير الله تعالىٰ؟!

● ألم ينجم النفاق وتظهر الزندقة – العلمانية – في زماننا اليوم من أناس هم من بني جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا، يرفعون عقيرتهم بأنه لا دخل للإسلام في الحياة والسياسة والاقتصاد وغير ذلك؟!

● ألم تستمر الفرق الضالة القديمة تبث بدعها اليوم وتلبس علىٰ الناس دينهم وعقيدتهم من رافضة ومعتزلة ومرجئة وخوارج وأشعرية... إلخ.

● ألم تقم ولاءات أكثر الناس اليوم علىٰ غير العقيدة؛ إما علىٰ أساس الجنس أو الوطن أو القوم أو.....إلخ .

● بل ألم يُوال أعداء الله من اليهود والنصارىٰ وغيرهم من أهل الشرك والإلحاد؟!

فهل بعد هذا مجال لقول من يقول: إن عقيدة الأمة لازالت بخير، وإن الحديث حول مسائل العقيدة أمر مبالغ فيه؟!

تنبيه ثان:

إن القول بضرورة التركيز علىٰ العقيدة والبدء بها مع الناس لا يعني إهمال جوانب الدين الأخرىٰ في الدعوة إلىٰ الله عز وجل. بل لابد أن يكون لها اهتمامها الخاص، ولابد من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتعليم الناس أحكام دينهم من صلاة وزكاة وحج وصيام وغير ذلك من أحكام العبادات والمعاملات، وتحذيرهم من الفساد في الأخلاق والسلوكيات. كل هذا ينبغي أن يسير جنباً إلىٰ جنب مع الدعوة إلىٰ العقيدة وإفهام الناس لها. والقلوب لا زال فيها خير إن شاء الله تعالىٰ، فلذلك ينبغي إيقاظ هذا الخير وإزالة الركام عنه. وهذا هو الفرق بين الدعوة إلىٰ العقيدة في أمة أطبق عليها الشرك كما هو الحال قبل بعثة كل نبي، وبين أحوالنا اليوم حيث لازالت آثار الإسلام باقية.

* * *

المعْلَم الثاني:
الولاء والبراء علىٰ أساس العقيدة والتميز علىٰ ضوئها

وهذا المعلم لا ينفك عن سابقه؛ لأنه لا عقيدة ولا توحيد لله عز وجل بدون ولاء وبراء. بل إن كلمة التوحيد التي لا يدخل أحد إلىٰ الإسلام إلا بها هي ولاء وبراء؛ فنصفها ولاء والنصف الآخر براء: فـ (لا إله) براءة من كل شيء يعبد من دون الله عز وجل و(إلا الله) ولاء وعبودية لله وحده؛ فيكون معناهما جميعاً: لا معبود بحق إلا الله تعالىٰ.

وإن المتأمل في دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إلىٰ التوحيد لَيلْمَسْ هذه الحقيقة واضحة جلية في دعوتهم وقلوبهم وواقعهم ومواقفهم؛ فهذا إبراهيم عليه الصلاة والسلام إمام الحنفاء يقول الله عز وجل عنه: ﴿ **وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٢٧) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٨)** ﴾ [الزخرف: ٢٦ – ٢٨]. وقد وصانا الله عز وجل بالاقتداء بإمام الحنفاء في ولائه وبرائه هذا فقال تعالىٰ: ﴿ **قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ...** ﴾ [الممتحنة: ٤]

وقال الله عز وجل لنبيه نوح عليه الصلاة والسلام عندما دعا ربه لابنه الهالك: ﴿ **قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٤٦)** ﴾ [هود: ٤٦]

وهذا من نوح عليه السلام ليس تجاهلا منه لعقيدة الولاء والبراء ،فحاشاه ولكنها عاطفة الأب مع ابنه في أن لا يكون من المعذبين. ولكن الله عز وجل عاتبه علىٰ ذلك وعزَّاه في ذلك بأن لا يحزن عليه فليس بينه وبين ابنه وشيجة ولا صلة مادام أن وشيجة العقيدة قد انبتت وانقطعت بينهما.

يعلق سيد قطب رحمه الله تعالىٰ علىٰ هذه الآية فيقول: (إن الوشيجة التي يتجمع عليها الناس في هذا الدين وشيجة فريدة تتميز بها طبيعة هذا الدين، وتتعلق بآفاق وآماد وأبعاد وأهداف يختص بها ذلك المنهج الرباني الكريم.

إن هذه الوشيجة ليست وشيجة الدم والنسب؛ وليست وشيجة الأرض والوطن، وليست وشيجة القوم والعشيرة، وليست وشيجة اللون واللغة، وليست وشيجة الجنس والعنصر، وليست وشيجة الحرفة والطبقة.. إن هذه الوشائج جميعها قد توجد ثم تنقطع العلاقة بين الفرد والفرد؛ كما قال الله سبحانه وتعالىٰ لعبده نوح عليه السلام وهو يقول: ﴿**رب إن ابني من أهلي**﴾.. «﴿ **يانوح إنه ليس من أهلك** ﴾ ثم بين له لماذا يكون ابنه.. ليس من أهله.. ﴿**إنه عمل غير صالح**﴾.. إن وشيجة الإيمان قد انقطعت بينكما يانوح: ﴿**فلا تسألن ماليس لك به علم**﴾ فأنت تحسب أنه من أهلك، ولكن هذا الحسبان خاطئ. أما المعلوم المستيقن فهو أنه ليس من أهلك، ولو كان هو ابنك من صلبك!

وهذا هو الْمَعْلَم الواضح البارز علىٰ مفرق الطريق بين نظرة هذا الدين إلىٰ الوشائج والروابط، وبين نظرات الجاهلية المتفرقة.. إن الجاهليات تجعل الرابطة آناً هي الدم والنسب؛ وآناً هي الأرض والوطن، وآناً هي القوم

والعشيرة، وآناً هي اللون واللغة، وآناً هي الجنس والعنصر، وآناً هي الحرفة والطبقة! تجعلها آناً هي المصالح المشتركة، أو التاريخ المشترك، أو المصير المشترك. .وكلها تصورات جاهلية – علىٰ تفرقها و تجمعها – تخالف مخالفة أصيلة عميقة عن أصل التصور الإسلامي!

والمنهج الرباني القويم – ممثلاً في هذا القرآن الذي يهدي للتي هي أقوم وفي توجيهات الرسول ﷺ – وهي من هذا القرآن وعلىٰ نسقه واتجاهه – قد أخذ الأمة المسلمة بالتربية علىٰ ذلك الأصل الكبير. . والْمَعْلَم الواضح البارز في مفرق الطريق. .

وهذا المثل الذي يضربه في هذه السورة من نوح وابنه فيما يكون بين الوالد والولد ضرب أمثاله لشتىٰ الوشائج والروابط الجاهلية الأخرىٰ ليقرر من وراء هذه الأمثال حقيقة الوشيجة الوحيدة التي يعتبرها . .)أهـ[1] .

● وهذا هود عليه السلام يقول الله عز وجل عنه: ﴿ ... قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ ﴾ [هود: ٥٤، ٥٥]، وقال تعالىٰ عن نوح ولوط عليهما الصلاة والسلام مع زوجيهما: ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [التحريم: ١٠].

---

(١) في ظلال القرآن (٤ / ١٨٨٦).

والآيات في ذكر مواقف الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مع أقوامهم وبراءتهم منهم ومن شركهم كثيرة جداً كما أن الآيات التي نهىٰ الله عز وجل فيها المؤمنين عن موالاة الكفار كثيرة أيضاً. وليس المقصود هنا استقصاء جميع الأدلة والشواهد علىٰ عظم هذا الركن العظيم من أركان التوحيد الذي دعا إليه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ولكن المقصود هنا الإشارة إلىٰ أن هذا المعلم المهم من معالم العقيدة قد كان من صميم دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وهذا أساس تميزهم والمؤمنين معهم تجاه أقوامهم ومفاصلتهم لهم.

إن الولاء والبراء في هذه العقيدة ليس كلمة تقال باللسان؛ ولكنها حقيقة عظيمة يلزم عليها لوازم كثيرة، ويترتب عليها تبعات وتضحيات باهظة.

- فهي التي من أجلها أوذي الأنبياء وأتباعهم تارة بالسجن وتارة بالطرد وتارة بالقتل.

- وهي التي من أجلها هجر الأنبياء أوطانهم وأهليهم فراراً بدينهم وبغضاً وعداوة للكفر وأهله،؛قال تعالىٰ عن إبرهيم عليه الصلاة والسلام بعد إنجائه من النار: ﴿ **وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٩٩)** ﴾ [الصافات: ٩٩]، وقال تعالىٰ عنه أيضاً: ﴿ **وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ (٧١)** ﴾ [الأنبياء: ٧١].

- وهي التي من أجلها حوصر الرسول ﷺ وصحابته الكرام في شعب أبي طالب حتىٰ بلغ منهم الجهد مبلغه.

وهي التي من أجلها هاجر الرسول ﷺ والمسلمون معه إلىٰ المدينة وتركوا أموالهم وأوطانهم التي أحبوها ونشأوا فيها - وهي التي من أجلها قام سوق الجهاد مع أعداء الله تعالىٰ.

- وهي معنىٰ قوله ﷺ: **«من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه علىٰ الله»**[(١)].

يقول الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالىٰ: «وهذا من أعظم ما يبين معنىٰ (لا إله إلا الله)؛ فإنه لم يجعل التلفظ بها عاصماً للدم والمال، بل ولا معرفة معناها مع لفظها، بل ولا الإقراربذلك، بل ولا كونه لايدعو إلا الله وحده لا شريك له، بل لا يحرم ماله ودمه حتىٰ يضيف إلىٰ ذلك الكفر بما يعبد من دون الله، فإن شك أو توقف لم يحرم ماله ودمه. فيالها من مسألة ما أعظمها وأجلها، وياله من بيان ما أوضحه وحجة ما أقطعها للمنازع)[(٢)].

إن علىٰ الدعاة إلىٰ الله عز وجل في هذا الزمان أن لا يغفلوا في دعوتهم عن هذا الجانب العظيم من العقيدة، وأن يولوه الاهتمام الشديد في أنفسهم، وبرامجهم ومناهجهم وتربيتهم فهو الجدار الصلب والسور المنيع الذي يحمي الله به المجتمعات المسلمة من الذوبان في ثقافات الكفار وأفكارهم ونظمهم وعاداتهم.

ولقد فطن الأعداء إلىٰ خطر عقيدة الولاء والبراء عليهم؛ فما فتئوا منذ زمن طويل يسلطون معاولهم لتكسيرها، ذلك ليقينهم بعدم جدوى

---

(١) مسلم في الإيمان (٢٣).

(٢) فتح المجيد ص ٨٧.

خططهم ومكرهم ما دام هذا الحاجز المنيع من الشعور ببغض الكافر وعداوته موجوداً عند المسلمين، ولقد نجحوا إلىٰ حد بعيد في إضعاف هذه العقيدة، والتهوين من شأنها. وصرنا نرىٰ صوراً من تقليد الكافر في مظهره وأفكاره وعاداته وأعياده، وأصبحنا نسمع أصواتاً كفحيح الأفعىٰ تنادي تارة بالتسامح الديني، وتارة بزمالة الأديان، وتارة بالتعايش السلمي واحترام حقوق الإنسان، ومن آخر تقليعاتهم ما يسمىٰ بالنظام العالمي الجديد حيث (زعموا) أن العالم سيسوده السلام في ظل هذا النظام الطاغوتي الكافر وفي ظل ما يسمونه بالشرعية الدولية.

إنه والله حكم الطاغوت الدولي الأكبر الذي يجب علىٰ كل مسلم – بما تفرضه عليه عقيدته – أن يكفر به ويقول ما قاله إبراهيم عليه الصلاة السلام لقومه: ﴿... **كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ...**﴾[الممتحنة: ٤].

إن علىٰ الدعاة إلىٰ الله عز وجل أن يترسموا هدي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في هذا المعلم العظيم من معالم التوحيد؛ بداية في أنفسهم وأولادهم، ثم في دعوة الناس وتربية النشء عليه، ومقاومة وفضح ما ينقضه في مجتمعات المسلمين اليوم. وما أحسن ما أوصىٰ به الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالىٰ أبناء عصره – ونحن في عصرنا إلىٰ هذه الوصية أحوج – قال رحمه الله تعالىٰ:

(إن الواجب علىٰ الرجل أن يعلم عياله وأهل بيته الحب في الله والبغض في الله، والموالاة في الله والمعاداة فيه، مثل تعليم الوضوء والصلاة؛

لأنه لا صحة لإسلام المرء إلا بصحة الصلاة، ولا صحة لإسلامه أيضاً إلا بصحة الموالاة والمعاداة في الله)أهـ[١].

ويبقىٰ في هذا المعلم من معالم دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أن نشير إلىٰ بعض الصور الخطيرة من صور موالاة الكفار والتي ظهرت في زماننا الحاضر؛ وبعضها يخرم أصل الإيمان، وبعضها يخرم كماله الواجب والتي يجب التحذير منها والتخلص منها[٢].

ومن ذلك ما يلي:

١- محبة الكفار محبة قلبية لأجل دينهم ونحلتهم. فهذا والعياذ بالله يخرم أصل الإيمان، وهذا هو التولي الذي قال الله عز وجل عنه: ﴿ ...وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ... ﴾ [المائدة: ٥١].

٢- ومن صور التولي نصرة الكفار علىٰ المسلمين سواء بمال أو سلاح أو رأي أو حتىٰ تمني نصرهم بالقلب. وهذا أيضاً يخرم الإيمان من أصله.

٣- محبة أحكام الكفار ونظمهم المحادة لشرع الله عز وجل والرضىٰ بالتحاكم إليها أو الحكم بها بين المسلمين مع العلم بما فيها من تحليل ما حرمه الله عز وجل أو تحريم ما أحله. وهذا أيضاً من التولي الذي يخرم أصل الإيمان ويخرج بصاحبه عن دائرة الإسلام.

---

(١) الرسائل الشخصية للإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالىٰ: ص ٣٢٣.

(٢) يراجع للمزيد من هذه الصور وتفصيلاتها كتاب الولاء والبراء للدكتور محمد سعيد القحطاني، وكتاب الموالاة والمعاداة للدكتور محماس الجلعود.

وأوضح مثالٍ لذلك تلك الدساتير والتشريعات الطاغوتية التي يُحكم بها في أكثر بلدان المسلمين اليوم، ومن خضع من الناس لهذه الأنظمة أو عمل بها وأحبها مختاراً عالماً فإن ذلك الصنيع منه موالاة صريحة لهذه الدساتير وهذه الأنظمة وبراءة صريحة من الإسلام.

إن عقيدة الولاء والبراء تفرض علىٰ كل مسلم المفاصلة الكاملة بينه وبين من ينهج غير منهج الإسلام. كما تفرض عليه التميز بعقيدة التوحيد بكل شمولها، وأن يعيش بعقيدته قوياً متميزاً معتزاً بدينه بعيداً عن المصانعة والمداهنة وأنصاف الحلول.

٤- التشبه بالكفار وعاداتهم السيئة سواء كان ذلك في الملبس أو المأكل أو في العادات والأعياد والمناسبات الخاصة بهم. كل ذلك من صور الموالاة للكفار، وما أكثرها اليوم في بلدان المسلمين، لكن إن كان التقليد والتشبه لا يصل إلىٰ حد التعظيم للكفار وعاداتهم السيئة فإن هذا محرم ويقدح في كمال الإيمان الواجب. أما إذا كان التشبه نابعاً من محبة وتعظيم وتفضيل للأشياء التي تشبه بها علىٰ ما يضادها من أخلاق الإسلام فهذا يؤول بصاحبه إلىٰ التولي الذي يقدح في أصل الإيمان إذا كان الفاعل لذلك عالماً.

٥- الانحياز إلىٰ صف الأنظمة التي تحكم بأنظمة الكفر التي تستحل ما حرم الله عز وجل مقابل الصف المؤمن الذي يقوم بالدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في ظل هذه الأنظمة. إن من يضع نفسه في صف الأنظمة المحادة لشرع الله عز وجل مقابل الدعاة إلىٰ الله عز وجل الذين

قامت العداوة بينهم وبين هذه الأنظمة؛ إن من يفعل ذلك عالماً مختاراً قد أعطىٰ ولاءه لأعداء التوحيد الذين أشركوا بالله في حكمه، وفي المقابل أعطىٰ عداءه وبراءته لدعاة التوحيد؛ شعر بذلك أم لم يشعر. وفي هذا خلل عظيم في أصل عقيدة من هذا فعله وصنيعه.

إن أعداء الدعاة إلىٰ الله عز وجل يمارسون بما يملكون من وسائل الدعاية والإعلام تشويهاً مستمراً لأهل الخير، ويصفونهم للناس بصفات عديدة تنفر الناس منهم. وقد ينخدع بهذا الزخم الإعلامي المتواصل بعض الطيبين من الناس. خاصة إذا صدرت من المنتسبين إلىٰ الدعوة بعض الأخطاء والممارسات المغلوطة.

فالحذر الحذر من أن يعطي المسلم ولاءه ومحبته وعاطفته للأنظمة المحادة لله عز وجل ورسول الله ﷺ بحجة أن بعض أهل الخير وقع في خطأ أو اثنين أو أكثر. وسبحان الله العظيم، فماذا تساوي نسبة أخطاء الدعاة غير المقصودة بجانب الانحرافات العظيمة لهذه الأنظمة التي شرعت من الدين مالم يأذن به الله؟!

يقول العلامة الشيخ عبد العزيز بن باز حفظه الله: (وكل دولة لا تحكم بشرع الله، ولا تنصاع لحكم الله فهي دولة جاهلية كافرة ظالمة فاسقة بنص هذه الآيات المحكمات، يجب علىٰ أهل الإسلام بغضها ومعاداتها في الله وتحرم عليهم مودتها وموالاتها حتىٰ تؤمن بالله وحده وتحكّم شريعته)أهـ[1].

---

(١) مجموع فتاوىٰ ومقالات الشيخ عبد العزيز بن باز (نقد القومية العربية) ١/٣٠٩.

ويقول د. محمد عبد الهادي المصري حفظه الله: (إن الولاء لله عز وجل هو من أهم ما يوزن به إيمان الإنسان بربه؛ ولا يكون المرء من حزب الله إلا إذا حرر ولاءه ومودته؛ فلم يعط أحدهما لعدو الله مهما كان نوعه؛ بل يعطي ولاءه لله ورسوله والمؤمنين بهذا الدين؛ وهذه هي الصفة الأولىٰ للمؤمنين؛ فلا ولاء في الإسلام إلا علىٰ أساس هذا الدين ومنطلقاته النظرية والعملية: وكل آصرة جاهلية يعطي الناس ولاءهم علىٰ أساسها هي آصرة باطلة فاسدة؛ بل المؤمنون وحدهم هم الذين تجب موالاتهم. فالمسلم يجب عليه وجوباً شرعياً أن يناصر المسلمين، ويهتم بأحوالهم، ويشاركهم في آمالهم وآلامهم مشاركة مادية ومعنوية... إن الأفراد والتجمعات والجماعات الإسلامية التي تعمل في الساحة الإسلامية اليوم داخل دائرة أهل السنة والجماعة؛ وتجاهد وتضحي بكل غال ونفيس من أجل إقامة دين الله في الأرض – إن هؤلاء جميعاً يمثلون حزب الله في الأرض – معسكر الحق والإيمان –. وإن الحكومات العلمانية التي تحكم في أكثر البلدان اليوم تمثل اليوم – مع أسيادها في الغرب: اليهودية والصليبية والعلمانية الدولية – حزب الشيطان ومعسكر الباطل.

وعلىٰ كل من ينتسب إلىٰ الإسلام اليوم أن يراجع قلبه ويتبين موقفه، ويتحسس موقعه: من يوالي اليوم؟ معسكر الإيمان أم معسكر الشيطان؟ أين قلبه ومودته مع أهل الحق أم أهل الباطل؟ من يظاهر ويعين ويناصر ويؤيد ويكثر سوادهم؟ حزب الله أم حزب الشيطان؟

إن أضعف الإيمان، والذي ليس وراءه حبة خردل من إيمان – أن يخلع المرء ولاءه عن هذه الأنظمة الفاجرة الظالمة، يكرهها بقلبه ويتمنىٰ زوالها

ووراثة حكم الله لها، لا يعينها علىٰ مسلم بقول أو بفعل - وإلا حشر معهم. وعليه في الوقت نفسه أن يحب أهل الحق ويوادهم بقلبه ويتمنىٰ أن ينصرهم الله علىٰ عدوهم، ويرفع بهم راية التوحيد والإيمان في الأرض. وعلىٰ الذين يقفون في صف هذه الأنظمة - وخاصة من أهل الأجهزة القمعية والإعلامية التي تعتمد عليها هذه الأنظمة في تثبيت دعائمها والبطش بخصومها من أهل الحق - علىٰ هؤلاء أن يسارعوا في مراجعة أنفسهم؛ لأن الموت أقرب إلىٰ أحدهم من شراك نعله؛ ويومها ستتوفاهم الملائكة - كما توفت أسلافهم - ظالمي أنفسهم، وسيُسألون: فيم كنتم؟ في معسكر الحق والإيمان؟ أم في معسكر الكفر والطغيان؟ ويومئذ لن تنفعهم معذرتهم بحجة الاستضعاف أو الخوف علىٰ النفس والمال والولد كما لم ينفع ذلك أسلافهم)[١].

ولعله الآن قد تبين لنا بعد كل ما سبق أهمية هذا المعلم العظيم من معالم التوحيد والذي دعا إليه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أول ما دعوا، وأنه لم يكن كلمة تقال باللسان بل كان عقيدة حية فاصلوا علىٰ أساسها قومهم وأهليهم المشركين وانبتت كل وشيجة بينهم إلا وشيجة هذه العقيدة، وقد كانت هذه المفاصلة في البداية شعورية قلبية تميز بها أهل التوحيد، وذلك بالبراءة من قومهم وما يعبدون من دون الله، واستمرت دعوة الأنبياء مع الصبر علىٰ هذا الأمر حتىٰ تميزت الصفوف إلىٰ حزبين لا

---

(١) (فيم كنتم) د. محمد عبد الهادي المصري ص (١٤٩ - ١٥٢) باختصار وتصرف يسير.

ثالث لهما، ولا قربىٰ ولا علاقة بينهما؛ حزب الرحمن وحزب الشيطان، وعندئذ يجيء الفتح من الله عز وجل فيأخذ الظالمين المستكبرين وينجي جنده الطائعين المستسلمين. وبهذا جرت سنة الله عز وجل؛ فلا فصل ولا فتح للمؤمنين قبل هذا التميز بين الحزبين. وهذا ما تشهد به دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. ولذلك يخطئ اليوم من يستعجل نصر الله عز وجل والصفوف المسلمة لا زالت غير متميزة، وعقيدة الولاء والبراء لا زالت غير واضحة أو متميعة في بعض النفوس المسلمة، كظهور كثير من الصور الصارخة لموالاة الأعداء ومحبتهم وتقريبهم. بل إن صفوف الدعاة إلىٰ الله عز وجل هي الأخرىٰ لا زالت بحاجة إلىٰ تطبيق هذا المعلم، والتحرك علىٰ ضوئه والتحرر من الحزبية المقيتة التي يعقد عليها البعض ولاءهم وبراءهم إلىٰ أن يكون الولاء والبراء علىٰ أساس الإسلام وعقيدة التوحيد. ولو تم هذا لاختفت هذه الصور المكروهة من التعصب والتحزب والشحناء والأهواء، ولتمت الوحدة المنشودة بين الدعاة والمصلحين.

إذن فكيف يطلب المستعجلون نصر الله عز وجل وقيام حكم الله عز وجل وهذه العقيدة العظيمة لم ترسخ بعد في قلوب بعض الدعاة فضلاً عن عامة الناس الذين لم يكن لهم حظ من دعوة ولاتربية، بل إن مبلغهم من العلم هو ما تبثه وسائل الإعلام والتعليم في أكثر بلدان المسلمين لزعزعة هذا المعلم وهدم هذا الجدار.

إذن فإن علىٰ دعاة الحق الذين منّ الله سبحانه عليهم بفهم عقيدة الولاء والبراء وتميزوا بها أن يبذلوا قصارىٰ جهدهم للتحرك بهذه العقيدة

والدعوة إليها والصبر علىٰ تبعاتها، وأن لا يُسْتطول الطريق ولا الوقت الذي يمضي في تقريرها. وقد يفنىٰ جيل كامل وهو يدعو إليها ويتحمل ما يتحمل من الآلام والمعاناة والتضحيات في نشرها وتقريرها في قلوب الناس، ولكن هذه المعاناة والتضحيات تهون في سبيل نشر التوحيد وتميز الناس علىٰ أساسه؛ ليهلك من هلك عن بينة ويحيىٰ من حي عن بينة.

ولا يطمع في نصر الله عز وجل وتمكينه قبل أن تأخذ هذه الدعوة حظها من الدعوة وقبول الناس لها ؛ وخاصة في صفوف الدعاة إلىٰ الله عز وجل والقناعة بالوحدة والائتلاف علىٰ ضوئها، هذا ما يُستوحىٰ من دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وسنة الله عز وجل في نصرهم ﴿ ... **فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً** (٤٣) ﴾ [فاطر: ٤٣].

* * *

المعْلَم الثالث:

الإخلاص في الدعوة وابتغاء الأجر من الله وحده

إن الدعوة إلىٰ الله عز وجل وإلىٰ توحيده وعبادته إن لم يصاحبها الإخلاص لله سبحانه، وابتغاء وجهه عز وجل، وعدم الطمع في الأجر من الناس أو نيل أي عرض من الدنيا فإنها دعوة منزوعة البركة عديمة الأثر علىٰ الناس؛ فوق ما فيها من فوات الأجر والثواب من الله عز وجل. وهذا أمر يجب أن يتفطن إليه الدعاة إلىٰ الله سبحانه أفراداً وجماعات، والحذر من أن تتلوث النيّات بهذه الدنيا الفانية، سواءكانت هذه الدنيا مالاً أو جاهاً أو منصباً أو ثناء وشهرة أو غير ذلك. ويجب أن يكون لنا الأسوة الحسنة في أنبياء الله عز وجل وأصفيائه حيث أعلنوها في بداية دعوتهم: أنهم لا يبتغون من الناس أجراً ولا مالاً علىٰ دعوتهم لهم، وإنما أجرهم علىٰ الله عز وجل. ولقد قالها كل نبي لقومه فصارت معلماً مهماً من معالم دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يجب الوقوف عنده ومحاسبة النفوس علىٰ ضوئه وهديه.

ولقد قص الله عز وجل في سورة الشعراء خبر بعض أنبيائه عليهم الصلاة والسلام وما قالوه لأقوامهم. ومن هؤلاء نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم الصلاة والسلام. وقد أخبر الله سبحانه عنهم جميعاً وبصيغة واحدة اتفقت في حروفها ومعانيها. فما قاله نوح قاله هود وصالح ولوط وشعيب عليهم جميعاً أفضل الصلاة والسلام. وأكتفي بما قاله سبحانه عن نوح عليه الصلاة والسلام وهو الذي قاله بقية الأنبياء، قال الله

عــزوجل: ﴿ **كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٠٦) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٠٨) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٩)** ﴾ [الشعراء: ١٠٥ – ١٠٩]، والشاهد من هذه الآيات اتفاق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام علىٰ قول: ﴿ **وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ بعد اتفاقهم علىٰ التوحيد والدعوة إلىٰ عبادة الله وحده.

وقال الله عز جل علىٰ لسان الرجل الصالح في وصفه للمرسلين: ﴿ **وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ (٢١)** ﴾ [يس: ٢٠، ٢١]، وأخبر الله عز وجل عن نبيه محمد ﷺ بقوله: ﴿ **وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (١٠٤)** ﴾ [يوسف: ١٠٤]، وقال سبحانه: ﴿ **قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ (٨٦)** ﴾ [ص: ٨٦]. والآيات في هذا كثيرة جداً.

والشاهد منها: إخلاص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لربهم، وترفعهم علىٰ الدنيا وزخرفها، وإرادتهم وجه الله عز وجل في كل حركة وسكنة من حياتهم. ولذلك اتسمت حياتهم بالزهد والتعفف عن ما في أيدي الناس، وكان كسبهم من عمل أيديهم؛ فموسىٰ ومحمدعليهما الصلاة والسلام عملا بالأجرة في رعي الغنم، وزكريا كان نجاراً، وداود كان يعمل في الحديد وصناعة الدروع وأثنىٰ عليه الرسول ﷺ بقوله: « **... ولا يأكل إلا من عمل يده** »[1].

(١) البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤١٧).

وفي هذا عزة النفس وحريتها، وقطع الطريق علىٰ من يريد المساومة والضغط عن طريق المال للتخلي عن الحق أو قول الباطل، فوق أنه يعين علىٰ الإخلاص لله عز وجل. وهذا أمر مهم يجب محاسبة النفوس عليه وأطرها عليه أطراً. فهو دليل علىٰ صدق الداعية وأنه صاحب عقيدة ومبدأ حق يعمل بما يدعو إليه ولا يسأل الناس أجراً علىٰ دعوته، ولا يربط رزقه بما في أيديهم وإنما يرجو رضىٰ ربه سبحانه ويخاف عذابه.

وإن الحذر من الدنيا وفتنتها يجب أن يكون علىٰ أشده في مثل زماننا اليوم الذي انفتحت فيه الدنيا علىٰ الناس وتعرّض بعض الدعاة لفتنة المال والمناصب وأصبح بعضهم يطلب العلم للوظيفة ويدعو إلىٰ الله من أجل الوظيفة!!

وإن الحديث عن هذا المعلم من هدي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من الوضوح بحيث لا يحتاج إلىٰ إطالة الكلام حوله. ولكن أختم الكلام فيه بموقف نبي الله سليمان عليه الصلاة والسلام من ملكة سبأ عندما أرسلت إليه المال كهدية تختبره بها ،فإن كان من ملوك الدنيا الذين لا هم لهم إلا المال قَبلها، وإن كان ملكاً مؤيداً من الله تعالىٰ ردها. قال تعالىٰ: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [النمل: ٣٦، ٣٧].

يعلق الشيخ العدوي أثابه الله علىٰ هذا الموقف الحازم من سليمان عليه السلام وترفّعه علىٰ الدنيا فيقول: (أي فلما جاء رسول بلقيس سليمان

يحمل الهدية غضب سليمان وقال منكراً لذلك العمل: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾ وهل أنا من طلاب المال الذين يفتنون به؟ وذلك هو المنتظر من نبيّ كنبيّ الله سليمان، لا يقبل رشوة في سبيل سكوته عن مطالبتها بالإسلام، وتركها بدون أن يدعوها إلىٰ الله تعالىٰ.

﴿فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم﴾ لأن الله أعطاه ملكاً ونبوّة أما هم فأعطوا ملكاً لم يكن معه نبوّة، أو المعنىٰ: فما آتاني الله من فيض رحمته وواسع فضله في العلم والحكمة: خير مما آتاكم من المال؛ لأن المال عرض زائل، أما ذلك الفضل الوافر، والرحمة الواسعة ورزق الله المعنوي فهو خير من رزقكم الحسي، وقد فتن الناس بالمال منذ خلقه الله، وظنت بلقيس أن سليمان ممن فتن كبقية الناس ولذلك أرسلت إليه بهدية لتنظر ماذا تترك في نفسه من الأثر، وإلىٰ أيّ حدّ تؤثر عليه وعلىٰ دعوته، وهل تلك الهدية تكون مدعاة لسكوته عن الدعوة، وإعراضه عن الفتح الذي أرسل الكتاب تمهيداً له، أو هو سيقابل المال كما يقابله به أصحاب النفوس العالية؛ يقابله بالرفض والتعفف، والإباء والعظمة، كلّ ذلك من أغراض ملكة سبأ.

فلم تجد من سليمان سوىٰ هذه الكلمة الغالية ﴿فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم﴾.

ويحق لكل مصلح أن يقول هذه الكلمة كلما عرضت عليه رشوة ، أو تقدّم المبطل إليه بعرض من الأعراض الزائلة، فإذا عرض الناس عليه منصباً ليتلهىٰ به عن دعوته، ويسكت به عن مبادئه، ويطيع به داعي الهوىٰ فليقل كما قال سليمان: ﴿فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم﴾ لأنه أعطي

خلقاً عظيماً، وعقيدة صالحة وأصبح مناراً يهتدي به السائرون، ويستضيء به الضالون، أعطي علماً قد جهله الناس، وخلقاً قوياً متيناً، نعم إذا طولب المصلح أن يسكت عن إصلاحه وأن يتغافل عن أخلاقه ومبادئه في سبيل وظيفة أو مال، وسواء أكانت تلك الوظيفة متعلقة بشخصه أو بأحد أولاده وأسرته - إذا طولب المصلح بشيء من ذلك فلا ينسىٰ ما قاله سليمان لأمراء بلقيس: ﴿ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم ﴾.

وكثيراً ما يلجأ المستعمرون إلىٰ ذلك النوع من الرشوة، وهذا الأسلوب من تملك قلوب الناس، فيتفرسون القوم ويتعرفون العنصر المتحرّك الذي من شأنه أن يقض مضاجعهم، ويؤلب عليهم فيساومونه علىٰ الوظيفة ويبتاعون شرفه وكرامته بدراهم معدودة؛ فإن كان همه المال أجابهم إلىٰ ما طلبوا، ومن كانت دعوته خالصة آثر الفقر علىٰ الغنىٰ وأبىٰ أن يقبل ذلك، وقدوته الصالحة، وأسوته الحسنة: نبيّ الله سليمان، إذ يقول لملكة سبأ: ﴿ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم ﴾[1].

* * *

(١) دعوة الرسل ص (٣٠٩ - ٣١٠)

المعْلَم الرابع

التعرض للأذىٰ والصد عن سبيل الله عز وجل من قبل أعداء الدعوة وأنصار الباطل

يعد هذا المعْلم من الثوابت في دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بل إنه سنة من سنن الله سبحانه في عباده المؤمنين؛ فما من نبي ولا داعية مخلص إلا وتعرض للأذىٰ والاستهزاء ووقوف المفسدين في طريق دعوته يصدون عنها ويشوهونها ويؤذونه بصنوف الأذىٰ والابتلاء، وصدق الله العظيم: ﴿ **وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ** (٣٤) ﴾ [الأنعام: ٣٤]، ولما جاء الرسول ﷺ إلىٰ ورقة بن نوفل ابن عم خديجة رضي الله عنها وأخبره بما رأىٰ في غار حراء من نزول الوحي قال له ورقة: (هذا الناموس الذي نزَّل الله علىٰ موسىٰ. يا ليتني فيها جذعاً ليتني أكون حياً إذ يخرج قومك، فقال رسول الله ﷺ: «**أو مخرجي هم**»، قال نعم. لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً)[1].

إذن فالأذىٰ والصد عن سبيل الله عز وجل من قبل أنصار الباطل هو من السنن الثابتة في دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وبالتالي في كل

---

(١) رواه البخاري في كتاب بدء الوحي الحديث رقم (٣).

دعوة خير وإصلاح علىٰ مدار التاريخ إلىٰ أن يرث الله الأرض ومن عليها. وإن إدراك هذا المعلم وهذه السنة مهم جداً للمصلحين وأنصار الحق في دعوتهم إلىٰ الله عز وجل؛ وذلك حتىٰ يتم توطين النفوس علىٰ هذه السنة والاستعداد لها بالصبر واليقين والاستعانة بالله عز وجل، وأن لا يستغرب الدعاة إلىٰ الله تعالىٰ هذه السنة ويفاجأوا بها؛ فيحصل ما يحصل عند البعض من اليأس أو الخوف أو وهن العزيمة وإيثار السلامة.

ونستعرض الآن بعض صور الأذىٰ والصد عن سبيل الله عز وجل والتي تعرض لها أنبياء الله ورسله عليهم الصلاة والسلام؛ وذلك حتىٰ يعلم الدعاة في هذا الزمان وفي كل زمان أن لهم أسوة من الأنبياء في ما يتعرضون له من أذىٰ وصد عن سبيل الله عز وجل فيقتدون بصبرهم، ويهتدون بهديهم، ويتسلَّون بما أصابهم. وسأحاول إن شاء الله تعالىٰ عقد التشابه بين صور الصد والأذىٰ في حياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وبين تلك الصور التي يتعرض لها دعاة الخير وأنصار الحق في كثير من بلدان المسلمين اليوم. ومن هذه الصور مايلي:

١- السخرية من أنبياء الله عز وجل ورسله عليهم الصلاة والسلام ورميهم - من قِبل الباطل - تارة بالسحر، وتارة بالجنون والسفاهة وتارة بالكذب والضلالة.

والشواهد من القرآن علىٰ هذا كثيرة منها:

● قوله تعالىٰ عن قوم نوح عليه السلام: ﴿**قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾**﴾ [الأعراف: ٦٠]، وقوله أيضاً عنهم: ﴿**إِنْ هُوَ إِلاَّ**

رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ (٢٥) ﴾ [المؤمنون: ٢٥].

وقال عز وجل عن قوم هود عليه السلام: : ﴿ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٦٦) ﴾ .

[الأعراف: ٦٦]

وقوله تعالىٰ عن قوم صالح عليه السلام: ﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٥٣) ﴾ [الشعراء: ١٥٣].

ونفس هذه المقوله قالها قوم شعيب لنبيهم: ﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٨٥) ﴾ [الشعراء: ١٨٥].

وقال تعالىٰ عن قوم فرعون: ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ (٧٦) ﴾ [يونس: ٧٦].

وقال تعالىٰ عن مشركي العرب مع رسول الله ﷺ: ﴿ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ (٥) ﴾ .

[الأنبياء: ٥]

وقال عز وجل مخبراً عن هذا الموقف الموحد من المشركين مع أنبيائهم عليهم السلام: ﴿ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٥٢) أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٥٣) ﴾ .

[الذاريات: ٥٢، ٥٣]

وصدق الله العظيم، فإن هذا الأسلوب الرخيص من الأذىٰ والسخرية

يتكرر في كل زمان يتواجه فيه الحق والباطل؛ حيث نجد سخرية الطواغيت وأتباعهم من أهل الحق وأتباع الأنبياء فيرمونهم بسفاهة العقل، وسذاجة التفكير، وسطحية الرؤية.. إلخ هذه التهم التي يقذفونهم بها زوراً وبهتانا ويملأون بها وسائل إعلامهم المختلفة؛ ليشوهوهم عند الناس وينفروهم منهم. وذلك ما تطفح به الصحف الخبيثة بأقلام أعداء هذا الدين من علمانيين وغيرهم؛ فهذا أحدهم يستهزئ في مقال له بالحجاب، ويصف عقول الداعين له بالانحطاط الفكري، ويصف من يدعو إلىٰ ترك نحت التماثيل والصور المجسمة خوفاً من عبادتها والرجوع إلىٰ الوثنية، بأنه ذو عقل خرافي. ويصف كاتب آخر علماءَ الإسلام بضيق الأفق والهمجية.. إلىٰ غير ذلك من الترهات والمسائل الجاهلية التي واجه بها المشركون الأولون أنبياءهم عليهم الصلاة والسلام. فما علىٰ دعاة الحق الا أن يصبروا ويهتدوا بهدي سلفهم الكريم من الأنبياء والمرسلين الذين واجهوا مثل هذا الأذىٰ بل أشد.

قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنعام: ٣٤].

٢- اتهام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأتباعهم بأنهم طلاب دنيا وملك وليسوا مخلصين فيما ينادون به.

ومن ذلك:

قوله تعالىٰ عن قوم نوح عليه السلام أنهم قالوا: ﴿... مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ

مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ...﴾ [المؤمنون: ٢٤].

وقوله تعالىٰ عن فرعون وقومه مع موسىٰ وهارون عليهما السلام: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ (٧٨)﴾ [يونس: ٧٨].

وقوله تعالىٰ أيضاً عن مقولة فرعون لموسىٰ عندما رأىٰ معجزة العصىٰ: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ (٥٧)﴾.
[طه: ٥٧]

هذا ما يقوله الأفَّاكون عن صفوة الناس، وأزهد الناس، وأخلص الناس لرب العالمين!!!، لكنه الأذىٰ، ولبس الحق بالباطل، وإثارة الدهماء علىٰ أنصار الحق بمثل هذه الافتراءات التي يعلم أصحابها أن الأنبياء وأتباعهم أبعد ما يكونون عنها. وهذا الأسلوب الاستهلاكي الرخيص هو نفسه الذي يُتّبع من أعداء الحق في كل زمان ومكان؛ فكم سمعنا وقرأنا عن مثل هذه التهم الباطلة التي يروجها زنادقة العصر بوسائلهم الإعلامية المختلفة من أن الدعاة إلىٰ الله عز وجل والمنادين بتحكيم شرعه يستترون بالدين لمآرب يخفونها، أو أنهم طلاب حكم وسلطة فحسب!!! وكم تردد في وسائل الإعلام الظالمة في أكثر بلدان المسلمين مثل هذه الافتراءات، وهذه تهويشات يراد منها التشويه وإثارة دهماء الناس علىٰ أهل الخير ودعاة الحق. وهي بعينها تلك التي قالها الجاهليون الأولون لأنبيائهم من قبل.

يعلق الشيخ العدوي علىٰ قول الملأ من قوم فرعون: ﴿... وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الأَرْضِ ...﴾ [يونس: ٧٨]. فيقول: (وهذه الكلمة

من ملأ فرعون هي إذكاء لشعور الرفعة وأبهة السلطان، وتأريث للعداوة والبغضاء لموسىٰ وصاحبه؛ لأنه يحاول بعمله هذا أن يسلب فرعون ملكه، ويقضي علىٰ نفوذه وعظمته، وهي دسيسة خبيثة دنيئة ألفناها من بطانات الرؤساء، وتعوّدناها من حواشي السوء إذا كرهوا رجلاً دسوا عليه تلك الدّسيسة، واتهموه بتلك التهمة؛ لأنهم يعلمون أن الرؤساء لا تتأثر بشيء تأثرها بما يمس سلطانها، ويتعلق بسلطانها، فإذا لقنوهم تلك الكلمة فإنهم لا يناقشونهم فيها، ولا يطلبون عليها دليلاً ولا شبه دليل من ذلك المبلغ الدسّاس، وهي طبيعة من طبائع التسلط وخُلق من أخلاقه لا تخصّ رجلاً دون آخر ولا تتعلق بجيل دون جيل.

وقد يعلم ملأ فرعون أن موسىٰ عليه السلام وأخاه هارون لا يريدان ملكاً وإنما يريدان إصلاحاً في الأرض وإنقاذاً لبني إسرائيل من بطش فرعون وظلمه، ولكن بطانات السوء تأبىٰ إلا أن تظهر المصلح بتلك الصورة التي من شأنها أن يطير لها لبّ فرعون ومن علىٰ شاكلته من الظلمة المستبدين، لذلك لجأوا إلىٰ تلك الدسيسة: دسيسة أنهما يريدان ملكاً ولا يريدان رسالة)أهـ[1].

٣- اتهام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بالفساد والإفساد وإثارة الفتن:

ويتضح هذا جلياً من قوله تعالىٰ عن المقولة الجائرة لفرعون اللعين:

---

(١) دعوة الرسل. محمد العدوي ص ٢٢١ (بتصرف).

﴿ **وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ (٢٦)** ﴾ [غافر: ٢٦]، وقال تعالىٰ عن الملأ من قوم فرعون: ﴿ **وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ** ... ﴾ [الأعراف: ١٢٧].

يعلق صلاح الخالدي حفظه الله علىٰ آية غافر فيقول:

(ما هي الأسباب التي سيقدمها فرعون إلىٰ قومه؟ ويبرر بها قَتل موسىٰ؟ إنها في قوله: ﴿ **إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ** ﴾.

هما سببان: **الأول**: الحفاظ علىٰ الدين، فموسىٰ عدو للدين، وفرعون حريص عليه. **الثاني**: الحفاظ علىٰ الأمن فموسىٰ ضد الأمن وفرعون هو حامي الأمن!!!

فرعون الكافر، الذي قال لقومه: ﴿ **أنا ربكم الأعلىٰ** ﴾ وقال لهم ﴿ **ما علمت لكم من إله غيري** ﴾ أصبح غيوراً علىٰ الدين، حارساً له من التغيير والتبديل الذي يتهدده علىٰ يد موسىٰ!!! وفرعون المفسد بطغيانه وكفره المخرب بتجبره وتكبره أصبح داعية إصلاح وخير وأمن ورفاه !!!

وهذا التعليل الفرعوني هو الذي يلجأ إليه الظالمون في محاربة الحق وأهله؛ يقدم الظالم نفسه للناس علىٰ أنه: المؤمن المتدين، الحريص علىٰ الإيمان، الحريص علىٰ الفضائل، الغيور علىٰ الأخلاق، الراغب في التعمير والتقدم والأمن والازدهار. بينما يقدم هذا الطاغيةُ الدعاةَ إلىٰ الله علىٰ

أنهم: مفسدون مخربون، ضالون مضلون، أعداء الله والأمة والوطن، وحلفاء الشيطان ورؤوس الفتنة، ودعاة الضلال، ولهذا يجب القضاء عليهم قبل تحقيق أهدافهم الشيطانية)أ.هـ(١).

ويقول سيد قطب رحمه الله تعالىٰ عند هذه الآية:

(أليست هي بعينها كلمة كل ظالم مفسد عن كل داعية مصلح؟ أليست هي بعينها كلمة الباطل الكالح في وجه الحق الجميل؟ أليست هي بعينها كلمة الخداع الخبيث لإثارة الخواطر في وجه الإيمان الهادئ؟

إنه منطق واحد يتكرر كلما التقىٰ الحق والباطل، والإيمان والكفر، والصلاح والطغيان علىٰ توالي الأزمان واختلاف المكان. والقصة قديمة مكرورة، تُعرض بين الحين والحين)(٢).

أما آية الأعراف فيعلق الشيخ العدوي أثابه الله عليها بقوله:

قال الله تعالىٰ: ﴿ وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ ... ﴾ [الأعراف: ١٢٧].

لما لم ينجح الملأ من قوم فرعون في دسيستهم الأولىٰ؛ وهي أن موسىٰ ساحر عالم بالسحر يريد بسحره أن يخرج فرعون وملأه من أرضه، وتبين أن ما أتىٰ به ليس سحراً وإنما هو مبطل للسحر، ثم كان من وراء

(١) مع قصص السابقين صلاح الخالدي ص ١٠٤، ١٠٥ (بتصرف يسير).
(٢) في ظلال القرآن (٥ / ٣٠٨٧) (بتصرف يسير).

ذلك إيمان السحرة الذين جمعهم فرعون ليهزموا موسىٰ، ثم تبع السحرة في الإيمان حزب. لما كان ذلك كله لجأوا إلىٰ أسلوب جديد يؤلّبون به فرعون علىٰ موسىٰ وشيعته فقالوا لفرعون: أتترك موسىٰ وقومه؟ وهم الذين تبعوا السحرة في الإيمان ليفسدوا في الأرض وليتركك وآلهتك كالشيء المهمل فيظهر للمصريين عجزك؟! يستفزون بذلك الأسلوب فرعون المستبدّ ليحول بين بني إسرائيل وبين موسىٰ: إما بحبسه وإما بقتله.

وانظر إلىٰ قوله: ﴿لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ﴾ وكيف يعدّون دعوة موسىٰ إلىٰ التوحيد، وإنقاذ الناس من ظلم فرعون وبطشه إفساداً في الأرض، وبالتالي يعدّون ما هم عليه من باطل صلاحاً! ولا ندري أقالوا ذلك ممالأة لفرعون وإرضاء لشهوته، وقضاء للباناتهم هم؛ لأن أعوان المستبدّ وبطانات الظالم التي تنتفع من ظلمه واستبداده، وتعيش علىٰ حساب بطشه وسلطانه، يظهرون جمهرة الشعب أمام ذلك الظالم بمظهر غير مظهره الحقيقي؛ فيسمون الإصلاح فساداً، والدّعوة إلىٰ الحقّ تهريجاً - أو أن ذلك الملأ بلغ من حمقه وغباوته أن كان الإصلاح الذي يدعو إليه نبيّ الله موسىٰ في نظره إفساداً في الأرض!!!

والذي تميل إليه النفس أن ذلك القول وأمثاله شأن بطانة السوء التي تلتفّ دائماً حول الظالمين وتعيش في أحضان المستبدّين؛ لاقتناعها أنها لا تستطيع أن تعيش إلا في أولئك الأوساط المظلمة، ولا تستطيع أن تصيد إلا في الماء العكر، فليس لها من المؤهلات ما تستطيع أن تعيش به علىٰ

حساب نفسها ، ولا من الأخلاق ما يسمح لها بقول الحقّ والاعتراف بالأمر الواقع. وقد ساعدهم على ذلك أنهم رأوا من أسيادهم استعداداً لذلك القول ، ولولا علمهم أن ذلك القول وأمثاله يتفق وشهوة صاحبهم ما قالوه، فهم إنما يصارحون الناس بما يجيش في صدره، وما يتناسب مع أطماعه وشهواته، فهو شريكهم في الجرم، ورئيسهم في الإثم، عليه وزره ووزرهم.

لذلك صوّر الملأ من قوم فرعون موسىٰ وحزبه بتلك الصورة البشعة؛ صورة المفسد في الأرض. ويعلم الله أن إفساد موسىٰ في الأرض هو إنقاذ بني إسرائيل من استبدادهم، والحيلولة بين الشعب وبين بطشهم، فإذا كان فيه إفساد فهو إفساد سياستهم وإحباط تدبيرهم، وتفلت الجمهور من أيديهم ،وذلك ما يخشاه فرعون وملأ فرعون الذين يعيشون علىٰ حساب غيرهم، وينعمون بشقاء أمتهم، ويثرون بإفقار إخوانهم، ويرقون مناصب الدّولة ووظائفها الكبرىٰ علىٰ حساب إذلال بني جلدتهم. ألا قاتل الله قوما ذلك حالهم، وبعداً لطائفة تلك أخلاقهم) أهـ[1].

ألا ما أشبه الليلة بالبارحة، ألا ما أشبه مقولة الصادين عن سبيل الله عز وجل في هذا العصر بمقولة إخوانهم الجاهليين الغابرين. إنها نفس التهم والأباطيل لكنها تلبس في عصرنا لبوساً يفتن السذج من الناس . كيف لا وقد جُنّدت لها وسائل الإعلام ومكر الليل والنهار الذي لا يفتأ يصف دعاة التوحيد والخير والصلاح بأنهم أصحاب فتنة، ودعاة

(١) دعوة الرسل. محمد العدوي ص ٢٢١ – ٢٢٢.

إرهاب وتطرف وفرقة.

إن مما يعزي الدعاة إلىٰ الله عز وجل ويصبرهم علىٰ هذه التهم أنها قيلت لسلفهم الطاهر من أنبياء الله ورسله عليهم الصلاة والسلام فصبروا علىٰ ما كذبوا وأوذوا حتىٰ أتاهم نصر الله عز وجل.

٤- إثارة الفرقة بين أبناء الأمة وجعلها أحزاباً وشيعاً:

وهذا واضح من قوله تعالىٰ عن فرعون مصر: ﴿ **إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ** (٤) ﴾ [القصص: ٤].

وكذلك ما حاوله اليهود زمن الرسول ﷺ من إثارة النعرات بين الأوس والخزرج بعد إسلامهم ولكنهم باءوا بالفشل، وعصم الله سبحانه الأنصار بوجود الرسول ﷺ.

وسار علىٰ هذه السياسة اليهودية العالمية أرباب الأنظمة العلمانية والتي تسمي نفسها « ديمقراطية »؛ حيث فرقت الأمة إلىٰ أحزاب وتكتلات يحارب بعضها بعضاً؛ وذلك من باب: (فرّق تسد). ولم تقف هذه السياسة عند هذه الأحزاب الأرضية، بل حاولوا إثارتها بين الدعاة إلىٰ الله عز وجل وتفريق صفوفهم ومحاولة اختراقهم لهذا الغرض؛ ولذلك فإنه لا يستبعد أن يكون أعداء الدعوة من وراء الفرقة الحاصلة اليوم بين الدعاة والمصلحين. فعلىٰ أهل الخير التفطن لذلك وعدم السماح لهذه السياسة الفرعونية اليهودية أن يكون لها وجود بين

الداعين إلىٰ الله عز وجل.

٥- اعتماد أساليب الضغط الخسيسة علىٰ الدعاة في أهليهم الأبرياء:

وهذا واضح في آية القصص السابقة حيث ذكر الله عز وجل عن فرعون اللعين أنه كان يقتل أبناء المسلمين ويستحيي نساءهم. وفي هذا من الضغط النفسي علىٰ الآباء الشيء العظيم؛ لأن الداعية قد يتحمل الأذىٰ في نفسه، ولكن القليل هم الذين يتحملونه في أبنائهم وبناتهم، وهذا من أخس أساليب الجاهلية في أذىٰ الدعاة والصد عن سبيل الله. ومع خستها ومخالفتها لكل دين وعرف ومروءة وإنسانية إلا أنا نجدها اليوم تجري علىٰ أيدي الطواغيت وأتباعهم الممسوخين. فكم سمعنا عن ممارسات هابطة يُضغط بها علىٰ الداعية في أولاده أو زوجته أو بناته أو غيرهم من الأبرياء.

يقول صلاح الخالدي حفظه الله: (وهم يفعلون هذا ليضغطوا علىٰ المؤمنين ضغطاً مؤلماً، ومن النقطة التي تؤلمهم أكثر من غيرها، والتي يظنونها نقطة ضعف عندهم، وقد تقودهم إلىٰ التخلي عن الدعوة والداعية. إنها نقطة الأسرة والعائلة والأولاد والبنات. وهي نقطة ضعف حقاً، والضغط عليها مؤلم جداً، وقد يفضي بأناس إلى التخلي عن الحق فعلاً. لكن اتجاههم لمحاربة أناس أبرياء - هم الأولاد والنساء - يمثل ظلماً وعدواناً منهم؛ لأنهم يأخذون الأبرياء بشيء لم يفعلوه. كما يمثل حقداً وكيداً وقسوة؛ لأنهم يحاربون أطفالاً صغاراً ضعافاً لا طاقة لهم بالحرب،

ولم يستعدوا لها.

ألم نقل إنها وسيلة خالية من كل معاني الرحمة والإنسانية، وإنها لا تتفق مع عرف أو حق أو مبدأ أو قانون؟ ولكن متىٰ كان أصحاب الباطل يلتزمون بالقوانين والمبادئ في محاربة الحق وأهله؟

بقي أن نقول: إن وسيلة: ﴿ ... **اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ** ... ﴾ [غافر: ٢٥] ليست خاصة بفرعون وقومه، ولكنها وسيلة دائمة مطَّردة، يستخدمها أصحاب الباطل دائماً في مواجهة أصحاب الحق. وكم وعىٰ التاريخ، وسجل في ذاكرته - في القديم والحديث - من نماذج شديدة أليمة لهذه الوسيلة الشيطانية الحاقدة!) أهـ(١).

وقد ذكر الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالىٰ في المسألة الرابعة والتسعين من مسائل الجاهلية قوله: (إن من دينهم أخذ الرجل بجريرة غيْره، فأنزل الله: ﴿ ... **وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ** ... ﴾ [الإسراء: ١٥](٢)، وقال في المسألة التاسعة عشر: (وهي قدحهم في بعض الصالحين بفعل بعض المنتسبين إليهم) أهـ(٣).

ومن مظاهر وجودها اليوم ما يقوم به الحكام العلمانيون من مطاردة المتمسكين بدينهم في تلك البلاد التي يحكمونها، فما تكاد تقع حادثة

---

(١) مع قصص السابقين صلاح الخالدي ص ١٠٢.

(٢) مسائل الجاهلية ص ٢٤٣ (ضمن مجموعة التوحيد).

(٣) المصدر السابق ص ٢٣٩.

إلا ويلصقونها بالإسلاميين، ثم يستتبع ذلك مطاردة من لم يكن له علاقة بالحادث أصلاً. وكذلك ترىٰ المناوئين للدعاة اليوم يبرزون بعض الأخطاء التي تقع من بعض المنتسبين إلىٰ الدعوة ثم يعرضون هذه الأمور علىٰ وجه التعميم، فيزعمون أن كل من تمسك بدينه فهو علىٰ هذا المنوال؛ ولذلك نجد بعض الكلمات التي تطلق علىٰ سبيل التعميم نحو: إرهابي متطرف.. إلىٰ آخر هذه التهم الباطلة. وأسوق بهذه المناسبة قصة تنسب إلىٰ الحجاج ليدرك البصير الفرق الكبير بين الحجاج علىٰ ظلمه وبين طواغيت العصر؛ فقد جاء عن الهيثم بن عدي قال: (جاء رجل إلىٰ الحجاج فقال: إن أخي خرج مع ابن الأشعث، فضُرب علىٰ اسمي في الديوان، ومُنعت العطاء، وقد هدمت داري. فقال الحجاج: أما سمعت قول الشاعر:

فلرُب مأخوذٍ بذنبِ قريبه ونجا المقارفُ صاحبُ الذنبِ

فقال الرجل: أيها الأمير إني سمعت الله يقول غير هذا وقول الله أصدق من هذا؛ فقال: وما قال؟ قال: إنه يقول: ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٧٨) قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ (٧٩)﴾ [يوسف: ٧٨، ٧٩] قال: يا غلام أعد اسمه في الديوان، وابنوا داره وأعطه عطاءه، ومر منادياً ينادي: صدق الله وكذب الشاعر)[١].

(١) البداية والنهاية ٩/ ١٣٠.

٦- التضييق على الأنبياء وأتباعهم في الرزق وانتهاج سياسة التجويع والحصار الاقتصادي:

ويتضح هذا مما قام به المشركون في مكة من مقاطعة الرسول ﷺ ومن آمن معه مقاطعة اقتصادية في البيع والشراء وغيرذلك، ومحاربتهم في شعب أبي طالب حتىٰ مسهم الضر وبلغ منهم الجوع مبلغاً شديداً. وكذلك ما نادىٰ به المنافقون في المدينة من محاولة لتضييق سبل الرزق لمن حول الرسول ﷺ حتىٰ يتفرقوا عنه وينشغلوا في طلب المعاش. قال تعالىٰ عنهم: ﴿ **هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ (٧)** ﴾.
[المنافقون: ٧]

يعلق سيد قطب رحمه الله تعالىٰ علىٰ هذه المقولة من المنافقين فيقول: (وهي قولة يتجلىٰ فيها خبث الطبع ولؤم النحيزة[١]؛ ذلك أنهم لخسة مشاعرهم يحسبون لقمة العيش هي كل شيء في الحياة كما هي في حسهم فيحاربون بها المؤمنين...، وهي خطة الشيوعيين في حرمان المتدينين في بلادهم من بطاقات التموين ليموتوا جوعاً أو يكفروا بالله ويتركوا الصلاة، وهي خطة غيرهم ممن يحاربون الدعوة إلى الله عز وجل من قديم الزمان إلى هذا الزمان ناسين الحقيقة البسيطة التي يذكرهم القرآن بها قبل ختام هذه الآية ﴿ **وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ** ﴾)[٢].

---

(١) النحيزة: نحيزة الرجل: طبيعته.

(٢) الظلال: ٦/ ٣٥٧٩ بتصرف واختصار.

٧- القتل والسجن والإخراج من الأرض:

وهذا هو آخر ما في جعبة الباطل وأقصىٰ ما يملكونه من إيذاء أنبياء الله عز وجل وأوليائه وذلك حين تعوزهم الحجة وتبطل كل وسائلهم السابقة في إسكاتهم أو إضعاف عزائمهم؛ عندئذ يلجأون إلىٰ التصفية الجسدية، أو تغييبهم في السجون، أو إخراجهم من ديارهم وأبنائهم. وهذا كله عاناه أنبياء الله عز وجل ورسله عليهم الصلاة والسلام: ﴿ ... **فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦)** ﴾ [آل عمران: ١٤٦]. والشواهد علىٰ هذا كثيرة في كتاب الله عز وجل منها ما يلي:

- إخباره تعالىٰ عن تهديد قوم نوح لنوح عليه السلام بقوله: ﴿ **قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (١١٦)** ﴾ [الشعراء: ١١٦].

- وقوله تعالىٰ: عن قوم إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿ **قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (٦٨)** ﴾ [الأنبياء: ٦٨].

- إخباره تعالىٰ عن تهديد قوم شعيب لنبيهم عليه الصلاة والسلام بقوله: ﴿ **قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ...** ﴾ [الأعراف: ٨٨].

- وقول قوم لوط لنبيهم عليه الصلاة والسلام وأهله في قوله تعالىٰ: ﴿ **فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٥٦)** ﴾ [النمل: ٥٦].

- ولما قص الله عز وجل علينا خبر قوم نوح وهود وصالح مع رسلهم في

سورة إبراهيم قال بعد ذلك: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ... ﴾ [إبراهيم: ١٣].

– وقوله تعالىٰ عن تهديد فرعون لموسىٰ عليه الصلاة والسلام بالقتل: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ... ﴾ [غافر: ٢٦].

– وقوله تعالىٰ عن التسعة الذين تآمرو علىٰ قتل صالح عليه الصلاة والسلام: ﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ (٤٨) قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٤٩) ﴾ [النمل: ٤٨، ٤٩]..

– وما تعرض له الرسول ﷺ من التهديد بالسجن أو الإخراج أو القتل والذي ذكره الله عز وجل في قوله: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠) ﴾.
[الأنفال: ٣٠]

هذه صور من إيذاء الجاهلية لأنبياء الله عز وجل ورسله عليهم الصلاة والسلام وهذا هو هديهم عليهم الصلاة والسلام في مقابلة ذلك بالصبر والعزائم القوية، وقبل ذلك وبعده بالاستعانة بالله وحده. فلقد قال موسي عليه الصلاة والسلام بعد تهديد فرعون له بالقتل: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَّ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ (٢٧) ﴾ .
[غافر: ٢٧]

وقال نوح عليه الصلاة والسلام عندما هُدد بالرجم: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (١١٧) فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِي مِنَ

﴿الْمُؤْمِنِينَ (١١٨)﴾ [الشعراء: ١١٧، ١١٨].

وقال شعيب عليه الصلاة والسلام عندما هدد بالإخراج من بلده: ﴿... عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (٨٩)﴾ [الأعراف: ٨٩].

وقال لوط عليه الصلاة والسلام بعد أن هدد بالإخراج: ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ (١٦٨) رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ (١٦٩)﴾.

[الشعراء: ١٦٨، ١٦٩]

وهذه المواقف الإيمانية العظيمة من أنبياء الله عز وجل ورسله عليهم السلام يجب أن تحتذىٰ، ويستنار بهديها من كل داعية يواجه بمثل هذا الأذىٰ والصد عن سبيل الله عز وجل. إنه ليس له إلا الله سبحانه ولا ينجي من الشدائد إلا هو. إنه ينبغي أن يردد كل داعية ما قاله موسىٰ عليه الصلاة والسلام: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ (٢٧)﴾ [غافر: ٢٧].

يقول العدوي أثابه الله:

(وقد يلجأ المبطل إلىٰ القوّة المادية فيقتل بعض أنبياء الله ويعذب بعضاً آخر، بعد أن تعوزه الحجة، وينقصه البرهان والدليل؛ فيكون التجاؤه إلىٰ التعذيب والتقتيل عنوان خذلانه وعلامة علىٰ نصر أعدائه، وربّ معذّب أو قتيل كتب الله له النصر، ولدعوته الظفر والتأييد، وربّ جبار أو عنيد كتب الله عليه الذلّ وسجل عليه الخذلان؛ فكان الأوّل حياً في موته منتصراً في قبره، وكان الثاني ميتاً في حياته، مكبوتاً في جبروته وكبريائه، فهو نصر معنوي، يظفر فيه الحق بالباطل، وتظهر فيه الحجّة علىٰ التقليد،

والبرهان علىٰ الشبهة، وقوّة الروح علىٰ قوّة المادّة، وقد يكون مع النصر المعنوي نصر مادّي، كإنجاء الله موسىٰ ومن معه من الغرق وإغراق فرعون وجنود فرعون ، وكإنجاء الله إبراهيم من النار بعد أن دبروا له ما دبروا، وصنعوا له ما صنعوا، وإنجاء نبينا محمد ﷺ من تدبير قريش قتله ، كلّ ذلك نصر مادّي معه نصر معنوي)أهـ[١].

وبعد ذكر النماذج السابقة من صور الأذىٰ والصد، التي تعرض لها صفوة البشر وأحبهم إلىٰ الله تعالىٰ هل لقائل أن يقول: إنه يجب الابتعاد في الدعوة إلىٰ الله سبحانه عن كل ما من شأنه أن يجر علىٰ الداعية الأذىٰ والمحن؟ إن صاحب هذا القول قد نسي أو تناسىٰ سنة الله عز وجل في الصراع بين الحق والباطل، وسنته سبحانه في الابتلاء والتمحيص؛ قال تعالىٰ: ﴿ **الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ۝٣** ﴾ [العنكبوت: ١ – ٣].

وقال سبحانه: ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ۝١٠ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ۝١١** ﴾ [العنكبوت: ١٠، ١١]. نعم إن من بيننا من يريد المغنم من الدعوة ولا يريد العناء والمشقة؛ بدليل عدم الإعداد والاستعداد لأي أذىٰ يعترض في الطريق ولو كان قليلاً؛ فما دام الأمن وما دامت السلامة والراحة فهو نشط ومتحرك فإذا ظهرت المحن وبدايات الابتلاء والتمحيص

---

(١) دعوة الرسل. محمد العدوي ص ٢٤١.

آثر السلامة والراحة وعلل ذلك بالابتعاد عن الفتن ودرء المفاسد.

ولا يعني ما سبق من الكلام أن يبحث الداعية عن الأذىٰ والابتلاء؛ كلا. فالمطلوب سؤال الله العافية وعدم تمني البلاء. كما لا يفهم منه أيضاً الدعوة إلىٰ التهور والطيش. معاذ الله فلا بد من المنطلقات الشرعية في كل التصرفات، لكن المراد أن لانغفل عن سنة الله سبحانه وتعالىٰ في ابتلاء المؤمنين وأن توطن النفس علىٰ هذه الأمور؛ لأنه لا بد منها لكل من ادعىٰ الإيمان، وتصدر الدعوة والجهاد، ولا بد منها لتمييز الخبيث من الطيب، ولابد منها لتمحيص القلوب، والصفوف. ومن خلال الدراسة السابقة لحياة الأنبياء عليهم السلام، وتقليبنا لتاريخ المجددين والمصلحين نرىٰ ذلك المعلم ظاهراً وقاسماً مشتركاً عندهم جميعاً، حيث لم تخل حياة رسول ولا مصلح مجدد من الأذىٰ والمحن والابتلاء، بل لم يحصل التمكين لهم وإقامة دين الله سبحانه في الأرض علىٰ أيديهم إلا بعد الصبر والمصابرة علىٰ صنوف الأذىٰ والمحن في سبيل الله سبحانه؛ قال تعالىٰ: ﴿ **وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ (٣٤)** ﴾ [الأنعام: ٣٤] وما أظن أحداً يجهل حادثة أصحاب الأخدود ولا قول الرسول ﷺ لخباب بن الأرت رضي الله عنه: «**لقد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد من دون لحمه وعظمه فما يصده ذلك عن دينه** ... الحديث»[1].

* * *

(١) البخاري في كتاب الإكراه (٦٩٤٣)، انظر رسالة: (ولا تلبسوا الحق بالباطل) ص ٨٣ - ٨٦.

المعْلَم الخامس:

التدرج في الدعوة ومراعاة المصالح والمفاسد وقواعد الترجيح عند التعارض

إن المتأمل في دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من بدايتها إلىٰ نهايتها يرىٰ أنها كانت تمر في مراحل متدرجة، كل مرحلة تؤدي إلىٰ الأخرىٰ حتىٰ أتاهم نصر الله عز وجل. كما يرىٰ المتأمل فيها أيضاً أن تلك المراحل وما فيها من مواقف وتصرفات وأحكام كانت مبنية علىٰ فهمهم لواقعهم الذي يدعون فيه، وأن مراعاة المصالح والمفاسد كان له وزن كبير في تحديد معالم كل فترة؛ فجاءت دعوتهم محكمة مثمرة منصورة.

وكيف لايكون ذلك وهي تسير بوحي الله عز وجل وأمره ونهيه، وما دام الأمر كذلك في صحتها وعصمتها، فتحتم علىٰ من يروم نصر الله عز وجل وتمكينه لعباده المؤمنين أن يهتدي بهذا الهدي المعصوم، وأن يطيل النظر فيه علىٰ ضوء مستجدات العصر وفهم الواقع المحيط. وإنه ليس بالأمر الهين الكلام عن هذا المعلم المهم لكن أسأل الله عز وجل أن يعينني علىٰ تجلية هذا المعلم من معالم دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأن يهديني لما اختلف فيه من الحق بإذنه إنه يهدي من يشاء إلىٰ صراط مستقيم.

عقد الإمام ابن القيم رحمه الله تعالىٰ فصلاً في زاد المعاد عنون له بقوله ‹فصل في ترتيب سياق هديه مع الكفار والمنافقين، من حين بعث إلىٰ أن لقي الله عز وجل› رأيت من المناسب أن أبدأ به في هذا المقام لأنه تضمن تلخيصاً سريعاً لهديه ﷺ في الدعوة والتدرج فيه من مرحلة إلىٰ

أخرىٰ ، وهو الهدي الذي سار عليه الأنبياء من قبل؛ غير أن مرحلة الجهاد والمصادمة المسلحة لم تكن في الأنبياء الذين كانوا قبل موسىٰ عليه الصلاة والسلام. إذن فهديه ﷺ في الدعوة والجهاد تضمن هدي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وزاد عليه، فكان الكمال فيها والشمول.

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالىٰ: (أوَّل ما أوحىٰ إليه ربُّه تبارك وتعالىٰ: أن يقرأ باسم ربه الذي خلق؛ وذلك أول نبوته، فأمره أن يقرأ في نفسه، ولم يأمره إذ ذاك بتبليغ، ثم أنزل عليه ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ [المدثر: ١، ٢]، فنبأه بقوله: ﴿اقْرَأْ ...﴾ [العلق: ١] وأرسله بـ ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ ثم أمره أن يُنذِرَ عشيرتَه الأقربينَ، ثم أنذر قومَه، ثم أنذر من حولهم من العرب، ثم أنذر العرب قاطبة، ثم أنذر العالمين، فأقام بضع عشرة سنة بعد نبوته يُنذر بالدعوة بغير قتال ولا جزية، ويؤمر بالكف والصبر والصفح.

ثم أذن له في الهجرة وأذن له في القتال، ثم أمره أن يُقاتِلَ من قاتله ويكف عمن اعتزله ولم يُقاتله، ثم أمره بقتال المشركين حتىٰ يكون الدين كله لله، ثم كان الكفار معه بعد الأمر بالجهاد ثلاثة أقسام: أهل صلح وهدنة، وأهل حرب، وأهل ذمة؛ فأُمِر بأن يتم لأهل العهد والصلح عهدهم، وأن يوفي لهم به ما استقاموا علىٰ العهد، فإن خاف منهم خيانة نبذ إليهم عهدهم، ولم يُقاتلهم حتىٰ يعلمهم بنقض العهد، وأمر أن يقاتل من نقض عهده. ولما نزلت (سورة براءة) نزلت ببيان حكم هذه الأقسام كلها، فأمره فيها أن يقاتل عدوه من أهل الكتاب حتىٰ يعطوا الجزية أو يدخلوا في الإسلام، وأمر ه فيها بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة

عليهم، فجاهد الكفار بالسيف والسنان، والمنافقين بالحجة واللسان.

وأمره فيها بالبراءة من عهود الكفار، ونبذ عهودهم إليهم، وجعل أهل العهد في ذلك ثلاثة أقسام: قسماً أمره بقتالهم، وهُم الذين نقضوا عهده، ولم يستقيموا له، فحاربهم وظهر عليهم. وقسماً لهم عهد مؤقت لم ينقضوه، ولم يظاهروا عليه، فأمره أن يتم لهم عهدهم إلىٰ مدتهم. وقسماً لم يكن لهم عهد ولم يُحاربوه أو كان لهم عهد مطلق، فأمر أن يؤجلهم أربعة أشهر فإذا انسلخت قاتلهم، وهي الأشهر الأربعة المذكورة في قوله: ﴿فَسِيحُوا فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ...﴾ [التوبة: ٢]، وهي الحُرُمُ المذكورة في قوله: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ ...﴾ [التوبة: ٥]. فالحرم ها هنا: هي أشهر التسيير، أولها يوم الأذان، وهو اليوم العاشر من ذي الحجة، وهو يوم الحج الأكبر الذي وقع فيه التأذين بذلك، وآخرُها العاشر من ربيع الآخر، وليست هي الأربعة المذكورة في قوله: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ...﴾ [التوبة: ٣٦] فإن تلك واحد فرد، وثلاثة سرد: رجبٌ، وذُو القَعدة، وذو الحِجة، والمحَرَّمُ. ولم يسير المشركين في هذه الأربعة، فإن هذا لا يُمكن لأنها غيرُ متوالية، وهو إنما أجلهم أربعة أشهر، ثم أمره بعد انسلاخها أن يُقاتلهم فقتل الناقض لعهده، وأجَّل مَنْ لا عهد له أو له عهد مطلق أربعة أشهر، وأمره أن يُتمَّ للموفي بعهده عهدَه إلىٰ مدته، فأسلم هؤلاء كُلُّهم ولم يُقيموا علىٰ كفرهم إلىٰ مدتهم، وضَرَبَ علىٰ أهل الذمة الجزية.

فاستقر أمر الكفار معه بعد نزول براءة علىٰ ثلاثة أقسام: محاربينَ له وأهل عهد، وأهل ذمة ثم آلت حالُ أهل العهد والصلح إلىٰ الإسلام فصاروا معه قسمين: محاربين، وأهل ذمة. والمحاربون له خائفون منه، فصار أهل الأرض معه ثلاثة أقسام: مسلم مؤمن به، ومسالم له آمن، وخائف محارب.

وأما سيرته في المنافقين، فإنه أمر أن يقبل منهم علانيتهم ويكل سرائرهم إلىٰ الله، وأن يُجاهدهم بالعلم والحجة، وأمره أن يعرض عنهم، ويُغلظ عليهم، وأن يبلغ بالقول البليغ إلىٰ نفوسهم، ونهاه أن يصلي عليهم، وأن يقومَ علىٰ قبورهم، وأخبر أنه إن استغفر لهم فلن يغفر الله لهم، فهذه سيرته في أعدائه من الكفار والمنافقين)أهـ[1].

هذا هو خط سير دعوته ﷺ وجهاده منذ أن بعثه الله سبحانه إلىٰ أن مكن له في الأرض ونصره.

ويهمنا من هذه الفترات فترة ما قبل الهجرة والإذن بالقتال وذلك لاعتبارين:

الأول: لأنها محل اتفاق بين الأنبياء جميعاً؛ حيث إن هديهم عليهم الصلاة والسلام قد اتفق في هذه الفترة مع هدي الرسول ﷺ في مكة قبل الهجرة حيث الاستضعاف والصبر وكف، اليد أما بعد الهجرة فكان الجهاد الذي نصر الله به نبيه ﷺ، وبما أيده به من المعجزات. أما الأنبياء الذين لم

---

(١) زاد المعاد: (٣/١٥٩ - ١٦١) ت. الأرناؤوط.

يشرع في حقهم الجهاد وقتال الأعداء فكان نصر الله عز وجل ينزل عليهم بعد أن يكونوا قد تجاوزوا مرحلة البناء والابتلاء بنجاح، وذلك النصر يجيء بمعجزة منه سبحانه وآية من آياته؛ فينصر الله سبحانه به أنبياءه ويهلك به أعداءه، كما نصر نوح بالطوفان، وهود بالريح، وصالح بالصاعقة، وشعيب بعذاب يوم الظلة... الخ.

الثاني: أن هذه الفترة هي أقرب ما يكون إلىٰ أحوال المسلمين اليوم من جهة الغربة التي يعيشونها في دينهم وعقيدتهم حيث ظهر كثير من الشركيات في بلدان المسلمين وضُيّع كثير من الفرائض، وحُكِّم في أكثر بلدان المسلمين شرع الطاغوت وحكم البشر، وأهمل جانب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعطل الجهاد، وانتشر الفساد في بلاد المسلمين بشكل لم يسبق له نظير، وصاحب ذلك تسلط الأعداء وكيدهم وإفسادهم في بلدان المسلمين، ونجم النفاق، واشتدت الغربة علىٰ أهل الحق فاستضعفوا وأوذوا.

ولكن من رحمة الله عز وجل أنه يهيئ لدينه أنصاراً لا يخلو منهم زمان حتىٰ يأتي أمر الله. ثم إنه لا يزال والحمد لله في الأمة خير تحتاج إلىٰ من يزيل الركام عنه.

إذاً فهناك أوجه شبه بين ما يعيشه المسلمون في هذا الزمان وبين تلك المرحلة التي عاشها أنبياء الله عز وجل ورسله عليهم الصلاة والسلام قبل أن يأتيهم نصر الله سبحانه، وبالتحديد تلك المرحلة التي عاشها الرسول ﷺ في العهد المكي قبل الهجرة. مع الانتباه إلىٰ أننا في هذا الزمان نعيش

اكتمال أحكام الإسلام، وبالتالي فنحن ملزمون بها كلها؛ بينما كان التشريع في مكة في بدايته، وكان التركيز علىٰ بناء العقيدة وتربية النفوس عليها.

فنحن مطالبون إذن في هذا الزمان بالتزام أحكام الدين كلها، مع التأسي بهدي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في مرحلة الاستضعاف والتي حُدّدت ملامحها وفُصّلت في سيرة نبينا محمد ﷺ في تلك الحقبة. ويمكن تلخيص الملامح الدعوية في مرحلة الاستضعاف كما هي في هديه ﷺ فيما يلي:

١- نشر عقيدة التوحيد وأحكام الإسلام والانقطاع إليها بكل الجهد والطاقة:

وهذا ما قام به الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في دعوتهم لأقوامهم واستمروا علىٰ ذلك يصلون ليلهم بنهارهم وانقطعوا إليه بجميع ما يملكون من جهد. وانطلقوا ناصحين مشفقين علىٰ الناس من عذاب الله عز وجل في الدنيا والآخرة، وهذا هو الذي قام به الرسول ﷺ في مكة، يدعو أهل بيته وأقاربه وأصحابه ويدعو بطون قريش في نواديهم وتجمعاتهم، ويطوف علىٰ الناس في الأسواق، ويمر علىٰ وفود العرب إلىٰ بيت الله الحرام: يدعوهم إلىٰ الإسلام، ويخوفهم من عذاب الله عز وجل. واستمر علىٰ ذلك بكل صبر وقوة، لا يكلّ ولا يتوقف. وهذا هو الذي ذكره ابن القيم رحمه الله تعالىٰ في هديه ﷺ في دعوته للكفار منذ أن بعث إلىٰ حيث لقي الله عز وجل كما سبق بيانه.

وقد واجه الأنبياء في دعوتهم صنوف الأذىٰ والاستهزاء والصد عن سبيل الله عز وجل ولكنهم صبروا علىٰ ذلك ولم يزدهم ذلك إلا إصراراً علىٰ الدعوة وهداية الناس. وقد اتصفوا عليهم الصلاة والسلام أمام أقوامهم بقوة الحجة، والحلم، والحكمة، والصفح، والمجادلة بالتي هي أحسن، وطول النفس، وقوة التحمل. وهذا ما يطالب به الدعاة اليوم من دعوة الناس إلىٰ عقيدة الإسلام وإزالة ما تراكم عليها من ركام الشرك والبدع، وأن تكون هي الهم الشاغل للدعاة إلىٰ الله عزجل ويفرغوا لها الأوقات وينقطعوا إليها مع الصبر والتحمل وضبط النفس، وأن تأخذ هذه الدعوة حظها من الجهد والوقت حتىٰ تتسع قاعدة الدعوة ويسمع بها الناس، وتظهر آثارها في المجتمع، وأن تراعىٰ قاعدة جلب المصالح ودرء المفاسد قدر الإمكان، وأن لا يستعجل في قطف الثمار[١].

٢- الاهتمام بالتربية والبناء والتزكية:

وهذا أمر يزيد علىٰ الدعوة والتعليم لأحكام الإسلام؛ حيث لا بد من العناية بالفئة الجادة التي يظهر عليها حب الإسلام، والرغبة في الدعوة إليه والحرص علىٰ تعاليمه. فمثل هولاء ينبغي أن تكون لهم عناية ورعاية يخصّون بها لتربيتهم علىٰ هدي الإسلام، والعمل علىٰ تزكيتهم وتكوينهم علىٰ العلم الصحيح والعمل الصالح والدعوة إلىٰ الإسلام وصبغ حياتهم بذلك مع تعميق معاني الأخوة ورابطة العقيدة بينهم، والتواصي

---

(١) يرجع إلىٰ المعلم الأول من معالم دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ألا وهو: (العقيدة أولاً ص ٦١).

بالحق والتواصي بالصبر، واحتساب ذلك عند الله عز وجل. وهذا النوع من التربية ضروري في هذه المرحلة؛ وذلك لبناء القاعدة الصلبة التي يحمي بها الله عز وجل دينه، ويهيئها الله سبحانه لتقود الأمة بعد ذلك، وتكون بمثابة أئمة الهدىٰ للناس في العلم والعمل والدعوة والصبر. وهذا ما يلمس من دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام الذين كانوا يعتنون بمن يؤمن من أقوامهم تعليماً وتربية وإعداداً، ويتضح هذا بجلاء في دعوة النبي ﷺ في مكة حيث كان يربي أصحابه رضي الله عنهم في دار الأرقم فيعلمهم ما ينزل من الوحي ويصبرهم ويشاركهم في مصاباتهم وابتلاءاتهم، حتىٰ تخرّج من هذه الدار الرجال العظام من السابقين الأولين الذين قامت علىٰ كواهلهم رسالة الإسلام بعد ذلك، وفتحوا الدنيا مع إخوانهم الأنصار والتابعين لهم بإحسان. ومن أهم جوانب التربية والتزكية ما يلي:

أ- الفهم الصحيح لعقيدة الإسلام بفهم السلف الصالح وخير القرون وتعميق المعنىٰ الشامل للتوحيد وآثاره وتعميق الإيمان باليوم الآخر والاستعداد له. وتعميق مفهوم الموالاة والمعاداة علىٰ أساس الإسلام.

ب- شحذ الهمم لدعوة الناس إلىٰ هذا الفهم الصحيح للعقيدة وتوسيع قاعدة الدعوة.

جـ- تزكية النفوس بتقوية الصلة بالله عز وجل، والإكثار من ذكره ودعائه وعبادته والاستعانة به وحده. وهذا أمر واضح تشهد له التوجيهات القرآنية في تلك المرحلة؛ حيث أمر الرسول ﷺ ومن معه من المؤمنين بقيام الليل والصلاة وقراءة القرآن، وكثرة التسبيح والاستغفار والذكر، ومن ذلك

قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ ... ﴾ [المزمل: ٢٠].

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٢٥) وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً (٢٦) ﴾ [الإنسان: ٢٥، ٢٦].

ويدخل في التزكية أيضاً جوانب العبادات الأخرىٰ من صيام وصدقة وبر وإحسان كما يدخل فيه كل جوانب التقوىٰ التي تقوم علىٰ فعل الواجبات وترك المحرمات ابتغاء وجه الله عز وجل. كل هذا مما ينبغي العناية به فىٰ التربية والتزكية.

د- تقوية الرابطة الإيمانية المبنية علىٰ الولاء والمحبة والنصرة لكل مؤمن ودعم أواصر الأخوة والألفة بين الدعاة إلىٰ الله عز وجل، وهذه بدورها تقتضي البراءة من المشركين والتميز عنهم ظاهراً وباطناً. وهذا ما نراه واضحاً في حياة المؤمنين من أتباع الرسل الذين يكونون بترابطهم ومحبتهم حزب الله أمام حزب الشيطان المتمثل في كل عقيدة تخالف الإسلام. وإن هذا الجانب من التربية والتزكية يجب أن يأخذ حظه من الاهتمام وأن تكون له العناية الشديدة من الدعاة إلىٰ الله عز وجل في هذا الزمان الذي نشهد فيه الفرقة والمعاداة بين المؤمنين الداعين إلىٰ الله عز وجل. إنه ما لم توجد المحبة والألفة والتناصر بين أهل الحق أمام أهل الباطل فلا يطمع في نصر الله عز وجل وتمكينه؛ لأنه قد فُرِّط في سبب يُعَد من أهم أسباب النصر والتوفيق؛ قال تعالىٰ: ﴿ ... وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (٤٦) ﴾ [الأنفال: ٤٦]. لذا فإن الدعوة إلىٰ

وحدة الصف وتآلف القلوب على الإسلام من أهم الواجبات والأولويات في هذه المرحلة.؛وذلك لتأثيرها سلباً وإيجاباً على الدعوة والتربية. وكذلك لما في التآلف من أثر في طهارة القلوب وسلامتها من الأمراض التي يجب أن تكون خالية منها، وخاصة في مثل هذه المرحلة، كأمراض الحسد والشحناء والأهواء...إلخ.

هـ- شحذ الهمم والعزائم للإنفاق في سبيل الله عز وجل ودعم مجالات الدعوة والتضحية في سبيل الله عز وجل بكل نفيس خاصة في هذه المرحلة حيث الاستضعاف وقلة ذات اليد وقلة الموارد الاقتصادية.

٣- الصفح والصبر على الأذى وكف اليد:

وهذا من أهم ملامح الدعوة في فترات الاستضعاف والذي يتضح من هدي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في دعوة أقوامهم في تلك المرحلة مع الصبر والاستعانة بالله عز وجل على كل وسائل الأذى والصد والاستفزاز الذي يقوم به أهل الباطل وأعداء الدعوة.

- فهؤلاء أنبياء الله نوح وهود وصالح والذين من بعدهم عليهم السلام عندما هددهم أقوامهم بالقتل أو الإخراج من الأرض قابلوهم بالصبر والاستعانة بالله عز وجل، قال تعالى عنهم أنهم قالوا: ﴿**وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾**﴾ [إبراهيم: ١٢]

- وهذا شعيب عليه السلام لما هدده قومه بالإخراج أو الرجوع في

ملتهم قال: ﴿ ... عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الأعراف: ٨٩].

- وهذا موسىٰ عليه السلام لما هدد فرعون قومه بقتل الأبناء واستحياء النساء قال لقومه فيما يخبر الله عز وجل: ﴿ ... اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ ﴾.

[الأعراف: ١٢٨]

وهذا خاتم النبيين محمد ﷺ أمره ربه والمسلمين معه في مكة بكف اليد والصبر وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة. قال تعالىٰ: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ... ﴾ [النساء: ٧٧].

حيث لم يؤذن لهم في القتال واعتماد المواجهة المسلحة، بل أمروا بالصفح والصبر والاستعانة بالله عز وجل، ولم يؤذن لهم في القتال إلا بعد الهجرة إلىٰ المدينة حيث توفر المكان الذي تأوي إليه الدعوة وتحتمي فيه، وحيث قويت شوكة المسلمين وكثر عددهم؛ وذلك كما مر بنا في سرد ابن القيم رحمه الله تعالىٰ لمراحل الدعوة والجهاد التي مر فيها الرسول ﷺ.

وقد كان النبي ﷺ يطوف بالكعبة المشرفة وبداخلها الأصنام وشعارات الشرك ولم يغير شيئاً منها. وكان يمر علىٰ أصحابه وهم يُعذبون أمام عينيه كآل ياسر وغيرهم فلا يملك إلا أن يقول: «**صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة**»[(١)]. مع أنه ﷺ أكثر الناس غيرة علىٰ محارم الله عز وجل وحرمات المسلمين.

---

(١) الحاكم (٣/٣٨٨)، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/٢٩٤) وقال: رواه الطبراني ورجاله ثقات.

واستعمال السلاح في تلك المواقف له عواقب سيئة علىٰ الدين وأهله، وهو من باب تغيير المنكر بمنكر أكبر منه، وهذا يتعارض مع قاعدة جلب المصالح ودرء المفاسد والتي هي من القواعد العظيمة المعتبرة في كثير من المواقف والأحكام. فمراعاة هذه القاعدة في ضوء إمكانات الدعوة وقدراتها، وما يقابل ذلك من قوة الأعداء وقدراتهم، أمر واجب يؤيده الشرع والعقل. بل هو الذي يتفق مع السنن الربانية في الدعوة والجهاد، وفي ذلك يقول شيخ الإسلام رحمه الله تعالىٰ: (وهذا باب التعارض باب واسع جداً، ولا سيما في الأزمنة والأمكنة التي نقصت فيها آثار النبوة وخلافة النبوة فإن هذه المسائل تكثر فيها، وكلما ازداد النقص ازدادت هذه المسائل، ووجود ذلك من أسباب الفتنة بين الأمة، فإذا اختلطت الحسنات بالسيئات وقع الاشتباه والتلازم؛ فأقوام قد ينظرون إلىٰ الحسنات فيرجحون هذا الجانب، وإن تضمن سيئات عظيمة، وأقوام قد ينظرون إلىٰ السيئات فيرجحون الجانب الآخر، وإن ترك حسنات عظيمة، والمتوسطون الذين ينظرون الأمرين قد لا يتبين لهم أو لأكثرهم مقدار المنفعة والمضرة، أو يتبين لهم فلا يجدون من يعنيهم العمل بالحسنات وترك السيئات لكون الأهواء قارنت الآراء، ولهذا جاء في الحديث: «**إن الله يحب البصر النافذ عند ورود الشبهات، ويحب العقل الكامل عند حلول الشهوات**»[1])أهـ[2].

---

(١) في تخريج أحاديث الإحياء (٣٨٥٨): قال العراقي: رواه أبو نعيم في الحلية من حديث عمران بن حصين، وفيه حفص بن عمر العدني: ضعفه الجمهور.

(٢) مجموع الفتاوىٰ ٢٠/٥٧، ٥٨.

ويقول أيضاً: (فإذا ازدحم واجبان لا يمكن جمعهما فقُدِّم أوكدهما، لم يكن الآخر في هذه الحال واجباً، ولم يكن تاركه لأجل فعل الأوكد تارك واجب في الحقيقة. وكذلك إذا اجتمع محرمان لا يمكن ترك أعظمهما إلا بفعل أدناهما، لم يكن فعل الأدنىٰ في هذه الحال محرماً في الحقيقة، وإن سمي ذلك ترك واجب، وسمي هذا فعل محرم باعتبار الإطلاق لم يضر)[١] أ هـ.

وقد ذكر سيد قطب رحمه الله تعالىٰ بعض الحِكَم من كف اليد في مكة والتي لم يجزم بها وإنما ذكرها علىٰ وجه الاحتمال فقال بأنها: (ربما كان ذلك لأن الفترة المكية كانت فترة تربية وإعداد ، في بيئة معينة، لقوم معينين، وسط ظروف معينة. ومن أهداف التربية والإعداد في مثل هذه البيئة بالذات، تربية نفس الفرد العربي علىٰ الصبر علىٰ ما لا يصبر عليه عادة من الضيم علىٰ شخصه أو علىٰ من يلوذون به؛ ليخلص من شخصه، ويتجرد من ذاته، ولا تعود ذاته ولا من يلوذون به محور الحياة في نظره ودافع الحركة في حياته. وتربيته كذلك علىٰ ضبط أعصابه فلايندفع لأول مؤثر – كما هي طبيعته – ولا يهتاج لأول مهيج، وليتم الاعتدال في طبيعته وحركته. وتربيته علىٰ أن يتبع مجتمعاً منظماً له قيادة يرجع إليها في كل أمر من أمور حياته ولا يتصرف إلا وفق ما تأمره به – مهما يكن مخالفاً لمألوفه وعاداته – وقد كان هذا هو حجرالأساس في إعداد شخصية العربي، لإنشاء (المجتمع المسلم) الخاضع لقيادة موجهة، المترقي المتحضر،

(١) مجموع الفتاوىٰ ٢٠/٥٧.

غير الهمجي أو القبلي!

● وربما كان ذلك أيضاً، لأن الدعوة السلمية كانت أشد أثراً وأنفذ في مثل بيئة قريش ذات العنجهية والشرف؛ والتي قد يدفعها القتال معها – في مثل هذه المرحلة – إلىٰ زيادة العناد وإلىٰ نشأة ثارات دموية جديدة كثارات العرب المعروفة التي أثارت حرب داحس والغبراء وحرب البسوس، أعواماً طويلة تفانت فيها قبائل برمتها. وتكون هذه الثارات الجديدة مرتبطة في أذهانهم وذكرياتهم بالإسلام. فلا تهدأ بعد ذلك أبداً. ويتحول الإسلام من دعوة إلىٰ ثارات وذحول تنسىٰ معها وجهته الأساسية وهو في مبدئه، فلا تذكر أبداً!

● وربما كان ذلك أيضاً لما يعلمه الله من أن كثيرين من المعاندين الذين يفتنون أوائل المسلمين عن دينهم، ويعذبونهم ويؤذونهم هم بأنفسهم سيكونون من جند الإسلام المخلص بل من قادته... ألم يكن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من بين هؤلاء؟

● وربما كان ذلك، أيضاً لقلة عدد المسلمين حينذاك، وانحصارهم في مكة حيث لم تبلغ الدعوة إلىٰ بقية الجزيرة، أو بلغت أخبارها متناثرة حيث كانت القبائل تقف علىٰ الحياد من معركة داخلية بين قريش وبعض أبنائها، حتىٰ ترىٰ ماذا يكون مصير الموقف. ففي مثل هذه الحالة قد تنتهي المعركة المحدودة، إلىٰ قتل المجموعة المسلمة القليلة – حتىٰ ولو قتلوا هم أضعاف من سيقتل منهم – ويبقىٰ الشرك وتنمحي الجماعة المسلمة ولم يقم في الأرض للإسلام نظام، ولا وجد له كيان واقعي.. وهو دين جاء

ليكون منهاج حياة، وليكون نظاماً واقعياً عملياً للحياة)أهـ[١].

ويبقىٰ سبب آخر يدعو إلىٰ الصبر وكف اليد يخص الدعوة في هذا الزمان، ألا وهو التضليل والنفاق الذي يتعرض له أكثر المسلمين اليوم في أكثر البلدان من وسائل الإعلام المختلفة، والتي تشوه صورالدعاة في أذهان الناس وأنهم إرهابيون ومخربون وفي الوقت نفسه تحسن لهم صورةالأنظمة الظالمة وأنها تحب الإسلام وتحميه. وفي هذه الحال تختلط الأوراق، وقد ينخدع بعض المسلمين بهذه الدعايات فينحازوا إلىٰ الظلمة، فلو حصل إطلاق اليد والحالة هذه لنجم من ذلك فساد وفتنة عظيمة بين المسلمين لعدم حصول التمايز وإقامة الحجة.

تنبيهان:

الأول: إن القول بالصفح والصبر في الدعوة وكف اليد لا يعني أبداً ترك الجهر بالدعوة إلىٰ التوحيد، وتبصير الناس بدينهم وتصحيح مفاهيمهم، وتوعيتهم بكيد أعدائهم. كما أنه لا يعني بحال ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصح للناس بتحذيرهم من الفساد وعواقبه وتعرية الباطل لهم. وإنما المقصود تجنب أي شكل من أشكال المواجهة بالقوة مع الباطل وأهله للأسباب المذكورة سابقاً. وما سوىٰ ذلك يجب أن يبقىٰ علىٰ أشده في الدعوة والبلاغ والتربية والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حسب الضوابط الشرعية وحسب الاستطاعة، وقدر ما يُملك من

---

(١) في ظلال القرآن ٣/١٤٣٨ - ١٤٣٩ باختصار.

فعل الأسباب وأن توطن النفوس علىٰ تحمل الأذىٰ والابتلاءات التي تترتب علىٰ دعوة الناس وتبليغهم دينهم، حتىٰ إذا جاءت العقبات من الباطل وأنصاره فإذا العزائم قوية تتحمل الأذىٰ وتثبت ولا تضعف وتتضعضع أمام تهويش الباطل وتخويفه أو أمام ترغيبه ومساوماته. ثم إنه ينبغي أن لا ننسىٰ واقع المجتمعات في هذا العصر وما تفترق به عن الواقع الذي بدأت فيه دعوة الأنبياء حيث إن الدعوة تملك في هذا العصر رصيداً من الخير في قلوب الناس ورصيداً من التجربة ورصيداً من الدعاة وطلبة العلم والعلماء، كل ذلك من شأنه أن يساعد علىٰ انطلاقة الدعوة وقبول الناس لها أكثر مما كان في العصور التي بدأ فيها الأنبياء دعوتهم حيث الجاهلية المطلقة والغربة المستحكمة. وهذا يحتم المسؤولية ويثقل الأمانة، نسأله سبحانه العون والتوفيق السداد.

وإن مما يؤسف له أشد الأسف ما نراه ونسمعه في زماننا اليوم ممن يرفع في وجه كل مصلح يأمر بالمعروف وينهىٰ عن المنكر ويحذر أمته من مغبة الفساد في الدنيا والآخرة بأنه داعية فتنة وخروج علىٰ الأمة. فبالله أين الفتنة في من يشفق علىٰ أمته من عذاب الله عز وجل في الدنيا والآخرة ويحذرها من أسباب عقوبته سبحانه. إن الفتنة بحق تكمن في هذا الخلط والتلبيس والذي نتيجته استمراء الفساد وتثبيط الآمرين بالخير والناهين عن الشر. وهذا شيخ الإسلام رحمه الله تعالىٰ بعد أن ذكر المفاسد التي تنجم عن الخروج علىٰ الأمة بالسيف وما في ذلك من الشرور والفتن العظيمة عقب بقوله: (ومع ذلك فيجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بحسب إظهار السُنَّة والشريعة، والنهي عن البدعة والضلالة بحسب

الإمكان: كما دَلَّ علىٰ وجوب ذلك الكتابُ والسنةُ وإجماع الأمة.

وكثيرٌ من الناسِ قد يرىٰ تعارض الشريعة في ذلك؛ فيرىٰ أن الأمر والنهي لا يقوم إلا بفتنة، فإما أن يؤمر بهما جميعاً أو يُنهىٰ عنهما جميعاً. وليس كذلك، بل يؤمر وينهىٰ ويصبر عن الفتنة؛ كما قال تعالىٰ: ﴿... وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ...﴾ [لقمان: ١٧]، وقال عبادة رضي الله عنه: (بايعنا رسول الله ﷺ علىٰ السمع والطاعة في عُسْرنا ويُسْرنا ومَنْشطِنا ومكرهنا وأثَرة علينا، وألاَّ ننازع الأمر أهلَه، وأن نقوم – أو نقول – بالحق حيث ما كُنَّا، لا نخافُ في الله لَوْمَة لائم)[١]، فأمرهم بالطاعة ونهاهم عن منازعة الأمر أهله وأمرهم بالقيام بالحق. ولأجل ما يُظن من تعارض هذين تعرض الحيرة في ذلك لطوائف من الناس. والحائر الذي لا يدري – لعدم ظهور الحق، وتميز المفعول من المتروك – ما يفعل؛ إما لخفاء الحق عليه، أو لخفاء ما يناسب هواه عليه)أهـ[٢].

الثاني: كما أن القول بالصبر والصفح وكف اليد لا يعني أبداً الركون إلىٰ الدعة والإحباط والاستسلام للأمر الواقع بل يجب إعداد النفوس والأمة بأسرها للجهاد في سبيل الله عز وجل وتقوية العزائم وشحذ الهمم، والأخذ بجميع الأسباب المشروعة ولاستكمال جانب القدرة الإيمانية والمادية حتىٰ يأذن الله عز وجل بنصره في الوقت الذي يعلم فيه سبحانه أن عباده المؤمنين قد بذلوا ما في وسعهم من البناء والإعداد والأخذ بالأسباب.

---

(١) البخاري (٧٠٥٦) في كتاب الفتن، مسلم (١٧٠٩) كتاب الإمارة بنحوه.
(٢) الاستقامة ١/٤١، ٤٢.

وقد يقول قائل: إذا كان المأمور به في هذا الزمن هو الصفح والصبر وكف اليد والتركيز على الدعوة ونشرها والأمر بالمعروف والنهي عن المنكَر فماذا يعني الجهاد الأفغاني والجهاد في البوسنة وكشمير وغيرها؟

والجواب على ذلك: أن الجهاد في بلاد الأفغان والبوسنة وغيرها جهاد مشروع ومطلوب لأن أغلب شروط الجهاد في تلك البلدان قد توفرت وأهمها: وضوح العدو الكافر لكل مسلم فهو في بلاد الأفغان شيوعي ملحد لا يختلف أحد من المسلمين في كفره وإلحاده، وهو في بلاد البوسنة نصراني حاقد. إذن فالراية متميزة والحجة قائمة والمسلمون مجمعون على وجوب مساعدة هؤلاء المجاهدين ضد أعدائهم الملحدين. كما أن شروط القدرة المادية للمسلمين في جهادهم لهؤلاء الكفرة قد توفرت في أغلبها، وتهيأت لهم المساعدات من إخوانهم المسلمين الغيورين، كما أن المكان الذي يأوي إليه المجاهدون ويحتمون به وينطلقون منه قد تهيأ لهم في تلك البلدان.

إذن، فعندما نتحدث عن وجوب الصفح والصبر وكف اليد فإنما يكون ذلك حين لا توجد القدرة، وحين تكثر الفُرقة ولا توجد الصفوف الموحدة، وحين لا يوجد التمايز الذي يظهر فيه الكفر وأهله ويظهر فيه المسلمون ويعرفون، وبدون ذلك يكون البغي والفتنة والفساد. وهذا معنى كلام شيخ الإسلام رحمه الله تعالى حين يقول: (والله سبحانه وصف الأئمة بالصبر واليقين، فقال: ﴿**وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ** ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة: ٢٤].

وقال: ﴿ ... وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾ ﴾ [العصر: ٣].

وذلك أن المظلوم، وإن كان مأذوناً له في دفع الظلم عنه بقوله تعالىٰ: ﴿ وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ ﴾ [الشورىٰ: ٤١] فذلك مشروط بشرطين:

أحدهما: القدرة علىٰ ذلك.

الثاني: ألا يَعْتدي.

فإذا كان عاجزاً، أوكان الانتصار يفضي إلىٰ عدوان زائد لم يجز. وهذا هو أصل النهي عن الفتنة)أهـ[١].

خلاصة القول: إن الأمر بالصبر وكف اليد مبني علىٰ قاعدة تعارض المصالح والمفاسد؛ فهو إذن مسألة اجتهادية تتعلق بظروف المكان والواقع الذي تكون فيه الدعوة والدعاة من حيث قوتهم وضعفهم، ومن حيث وضوحهم ووضوح ما يدعون إليه ومن حيث وضوح راية الكفر من عدمها، ومن حيث القدرة الإيمانية والأخذ بالأسباب الممكنة. ومن حيث اجتماع القلوب ووحدة الصف وسلامة القلوب من كبائر الذنوب. والناظر اليوم لأول وهلة في أحوال العالم الإسلامي يرىٰ – والعلم عند الله – عدم تحقق هذه الأمور، فصار المتعين حينئذ الصبر وكف اليد مع التركيز علىٰ الدعوة والأمر والنهي والأخذ بأسباب النصر الذي وعده الله سبحانه عباده المؤمنين.

ويبقىٰ سؤال أخير حول هذه المعالم ألا وهو: إلىٰ متىٰ يستمر الصبر والصفح، ومتىٰ يأتي نصر الله عز جل وكيف؟

---

(١) الاستقامة (١/ ٤٠، ٤١).

والجواب علىٰ ذلك في علم الله عز وجل؛ فالدين دينه، والدعوة دعوته، والأمر له من قبل ومن بعد، ونحن عبيده لا ندري متىٰ يحصل النصر والتمكين، ولا ندري الكيفية التي يأتي بها. وإنما كل الذي ندريه من تأملنا في دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ونصر الله عز وجل لهم هو أن الله سبحانه وتعالىٰ ينزل نصره علىٰ عباده المؤمنين بعد أن يعلم سبحانه أن دعاته وأنصار دينه قد حققوا الإيمان وبذلوا ما في وسعهم من الدعوة والبلاغ وصبروا علىٰ ابتلاءات الطريق وثبتوا، وفعلوا كل ما يستطيعونه من الأسباب المأذون بها والمتاحة لهم، وأن الحجة قامت علىٰ الناس بدعوتهم، وتميز الناس إلىٰ فسطاطين فسطاط فيه حزب الله تعالىٰ وفسطاط فيه حزب الشيطان، وصارالولاء والبراء علىٰ أساس الإسلام. عندئذ يأتي نصر الله عز جل، ويفتح الله بين عباده المؤمنين وعباده الكافرين وهوخير الفاتحين. أما الكيفية التي ينزل بها نصر الله عز وجل فهذا أيضاً لا نحيط به علماً، فللّه جنود السماوات والأرض، وهو قادر سبحانه أن ينصر عباده بما يشاء. فهذا نوح نصر بالطوفان، ونصر هود بالريح، وصالح بالصاعقة، وحبست الشمس ليوشع بن نون حتىٰ فتح بيت المقدس كما جاء في قوله ﷺ: **«إن الشمس لم تحبس لبشر إلا ليوشع ليالي سار إلىٰ بيت المقدس»**[1]. ونصر الرسول ﷺ بالريح في قوله: **«نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور»**[2]، كما نصره الله عز وجل بالملائكة وباصحابه

---

(١) أحمد ٢/ ٣٢٥ (٨٢٩٨).

(٢) البخاري في مواضع منها: كتاب الاستسقاء (١٠٣٥)، ومسلم في الاستسقاء (٩٠٠).

=

جاء بعد الأخذ بالأسباب وإعداد النفوس للتضحية والجهاد في سبيل الله.

يقول سيد قطب رحمه الله تعالىٰ معلقاً علىٰ نجاة نوح ومن آمن معه من الطوفان: (إنه لا ينبغي لأحد يواجه الجاهلية بالإسلام أن يظن أن الله تاركه للجاهلية وهو يدعو إلىٰ إفراد الله سبحانه بالعبادة. كما أنه لا ينبغي له أن يقيس قوته الذاتية إلىٰ قوىٰ الجاهلية فيظن الله تاركه لهذه القوىٰ وهو عبده الذي يستنصر به حين يغلب فيدعوه: ﴿ **فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴿١٠﴾** ﴾ [القمر: ١٠].

إن القوىٰ في حقيقتها ليست متكافئة ولا متقاربة.. إن الجاهلية تملك قواها.. ولكن الداعي إلىٰ الله يستند إلىٰ قوة الله. والله يملك أن يسخر له بعض القوىٰ الكونية – حينما يشاء وكيفما يشاء – وأيسر هذه القوىٰ يدمر علىٰ الجاهلية من حيث لا تحتسب!

وقد تطول فترة الابتلاء لأمر يريده الله.. ولقد لبث نوح في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً قبل أن يأتي الأجل الذي قدره الله. ولم تكن حصيلة هذه الفترة الطويلة إلا اثني عشر مسلماً.. ولكن هذه الحفنة من البشر كانت في ميزان الله تساوي تسخير تلك القوىٰ الهائلة والتدمير علىٰ البشرية الضالة جميعاً، وتوريث الأرض لتلك الحفنة الطيبة تعمرها من جديد وتستخلف فيها..

إن عصر الخوارق لم يمض! فالخوارق تتم في كل لحظة – وفق مشيئة الله الطليقة – ولكن الله يستبدل بأنماط من الخوارق أنماطاً أخرىٰ تلائم واقع كل فترة ومقتضياتها. وقد تدق بعض الخوارق علىٰ بعض العقول فلا تدركها؛

ولكن الموصولين بالله يرون قوته دائماً ويلابسون آثارها المبدعة.

والذين يسلكون السبيل إلىٰ الله ليس عليهم إلا أن يؤدوا واجبهم كاملاً، بكل ما في طاقتهم من جهد؛ ثم يدَعوا الأمور لله في طمأنينة وثقة. وعندما يُغلبون عليهم أن يلجأوا إلىٰ الناصر المعين وأن يجأروا إليه كما جأر عبده الصالح نوح: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ (١٠)﴾ .. ثم ينتظروا فرج الله القريب. وانتظار الفرج من الله عبادة؛ فهم علىٰ هذا الانتظار مأجورون)أهـ[١].

* * *

(١) في ظلال القرآن (٤/١٨٩٣) (بتصرف يسير).

المعْلَم السادس

مراعاة السنن الربانية في دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

إنه لمن الواجب علىٰ الدعاة إلىٰ الله عز وجل أن يقفوا عند تلك السنن الربانية المسْتوحاة من دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. وذلك لأن في معرفتها والسير علىٰ هداها أخذ بأسباب النصر والتمكين والفلاح، ونجاة مما وقع فيه الغير من تخبط وشقاء، وفي الغفلة عنها تفريط في الأخذ بأسباب النجاة، وإعراض عن هدي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في الدعوة إلىٰ الله عز جل، الذين هم أعرف الناس بالله سبحانه وبأسمائه وصفاته؛ وبالتالي فهم أعرف بسننه سبحانه وعاداته وأيامه وهم ألزم الناس لها وللسير علىٰ ضوئها.

ويحسن قبل التعرض لبعض هذه السنن أن نلم إلمامة سريعة بالسنن الربانية من حيث تعريفها ودلالتها ووقت ظهورها.

قال الله تعالىٰ: ﴿ **قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ** (١٣٧) ﴾ [آل عمران: ١٣٧].

وقال عز وجل: ﴿ ... **فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ الأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً** (٤٣) ﴾ [فاطر: ٤٣].

يقول الدكتور محمد السلمي حفظه الله: (والتاريخ بما يحتوي من الحوادث المتشابهة والمواقف المتماثلة يساعد علىٰ كشف هذه السنن التي

هي غاية في الدقة والعدل والثبات. وفي إدراكنا للسنن الربانية فوائد عظيمة حتىٰ لو لم نقدرعلىٰ تفادي حدوثها والنجاة منها؛ حيث يعطينا هذا الإدراك والمعرفة صلابة في الموقف، بخلاف من يجهل مصدر الأحداث؛ فإن الذي يعلم تكون لديه بصيرة وطمأنينة، أما الذي يجهل فليس لديه إلا الحيرة والخوف والقلق)أهـ[1].

ويعرف الإمام ابن تيمة رحمه الله تعالىٰ السنة ودلالتها فيقول: (والسنة: هي العادة في الأشياء المتماثلة، (وسُنَّة) هنا تجري علىٰ ‹سَنَه› هذا في الاشتقاق الأكبر. و ‹السنن› و ‹أسنان المشط› ونحو ذلك بلفظ ‹السنة› يدل علىٰ التماثل، فإنه سبحانه وتعالىٰ إذا حكم في الأمور المتماثلة بحكم فإن ذلك لا ينقض ولا يتبدل ولا يتحول، بل هو سبحانه لا يفوِّت بين المتماثلين، وإذا وقع تغيير فذلك لعدم التماثل. كما أن من سننه التفريق بين المختلفين كما دل علىٰ ذلك القرآن، قال الله تعالىٰ: ﴿ **أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾** ﴾ [القلم: ٣٥] ومن هذا الباب صارت قصص المتقدمين عبرة لنا، ولولا القياس واطراد فعله وسنته لم يصح الاعتبار بها والاعتبار إنما يكون إذا كان حكم الشيء حكم نظيره، كالأمثال المضروبة في القرآن وهي كثيرة)أهـ[2].

أما عن وقت ظهورها وتحققها فهو إلىٰ الله عز وجل الذي جعل لكل أجل كتاباً بعلمه وحكمته البالغة. وقد يبدو للناس أن أسباب تحقق سنة الله عز وجل قد انعقدت ومع ذلك لم يأذن الله عز وجل بظهورها عن علم

---

(١) منهج كتابة التاريخ الإسلامي: ص ٦٠.

(٢) جامع الرسائل والمسائل لشيخ الإسلام (١/ ٥٥).

وحكمة، فسبحان من له الأسماء الحسنىٰ والصفات العلا.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ (٤٧)﴾ [الحج: ٤٧] وقال عز وجل: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ (٦)﴾ [الأنعام: ٦].

قال سيد قطب رحمه الله عند تفسير هذه الآية: (هناك حقيقة ينساها البشر حين يمكّن الله لهم في الأرض. ينسون أن هذا التمكين إنما تم بمشيئة الله ليبلوهم فيه؛ أيقومون عليه بعهد الله وشرطه، من العبودية له وحده، والتلقي منه وحده، أم يجعلون من أنفسهم طواغيت تدّعي حقوق الإلهية وخصائصها، إنها حقيقة ينساها البشر فينحرفون عن عهد الله ويمضون علىٰ غير سنة الله. ولا يتبين لهم في أول الطريق عواقب هذا الانحراف.. ويقع الفساد رويداً رويداً وهم ينزلقون ولا يشعرون حتىٰ يستوفي الكتاب أجله ويحق وعد الله. ثم تختلف أشكال الأخذ والنهاية، فمرة يأخذهم بعذاب الاستئصال، بعذاب من فوقهم أو من تحت أرجلهم كما وقع لكثير من الأقوام.. ومرة بالسنين ونقص الأنفس والثمرات كما حدث لأقوام آخرين، ومرة يذيق بعضهم بأس بعض، فيعذب بعضها بعضاً ويدمر بعضهم بعضاً. ويسلط الله عليهم عباداً له – طائعين أو عصاة – يخضدون شوكتهم. ثم يستخلف الله العباد الجدد ليبتليهم بما مكنهم.

وهكذا تمضي دورة السنة؛ فالسعيد من وعاها، والشقي من غفل

عنها، وإنه لَمِمَّا يخدع الناس أن يروا الفاجر الطاغي أو الملحد الكافر ممكناً له في الأرض غير مأخوذ من الله، ولكن الناس إنما يستعجلون، إنهم يرون أول الطريق أو وسطه ولا يرون نهاية الطريق؛ لأن السنة تستغرق وقتاً طويلاً لكنها تلاحظ من خلال التاريخ)أهـ[١].

ويقول الدكتور السلمي حفظه الله: (والسنة الربانية قد تستغرق وقتاً طويلاً لكي ترىٰ متحققة في حين أن عمر الفرد محدود؛ ولذلك فلا يمكنه رؤية السنة متحققة، بل قد يرىٰ الإنسان جانباً من السنة الربانية ثم لا تتحقق نهايتها في حياته مما قد يدفعه إلىٰ عدم إدراك السنة أو التكذيب بها، وهنا يكون دور التاريخ في معرفة أن السنة الربانية لابد أن تقع ولكن لَمَّا كان عمرها أطول من عمر الفرد – بل ربما أطول من أعمار أجيال – فإنها ترىٰ متحققة من خلال التاريخ الذي يثبت أن سنة الله ثابتة لا تتبدل كما قال تعالىٰ: ﴿ **سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً (٦٢)** ﴾ [الأحزاب: ٦٢])أهـ[٢].

وبعد هذه المقدمة التي لابد منها عن السنة الربانية، نأتي الآن للتعرف علىٰ بعض هذه السنن الثابتة من خلال دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ومنها ما يلي:

١- العاقبة للمتقين والهلاك للمكذبين المعاندين:

والشواهد من الأدلة والوقائع علىٰ هذه السنة كثيرة جداً، فمن ذلك

---

(١) في ظلال القرآن ٢ /١٣٠٧ – ١٣٠٨.

(٢) منهج دراسة التاريخ الإسلامي ص ٦١.

قوله تعالىٰ عقب قصة نوح عليه الصلاة والسلام: ﴿ **تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (٤٩)** ﴾ [هود: ٤٩].

وقوله تعالىٰ عن وصية موسىٰ عليه الصلاة والسلام لقومه بعد أن هددهم فرعون بتقتيل أبنائهم واستحياء نسائهم: ﴿ **قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٢٨)** ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

وقوله تعالىٰ عن هود عليه الصلاة والسلام مع قومه: ﴿ **فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٧٢)** ﴾.
[الأعراف: ٧٢]

وقال عن نبيه صالح عليه الصلاة والسلام: ﴿ **فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (٦٦) وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٦٧)** ﴾
[هود: ٦٦، ٦٧]

وقوله تعالىٰ: ﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧)** ﴾.
[الروم: ٤٧]

وما جرىٰ من تحقق هذه السنة في الماضي سيجري مثله إن شاء الله تعالىٰ في الحاضر والمستقبل إذا تحققت أسبابها من ظهور المتقين الذين

يستحقون نصر الله عز وجل.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالىٰ: (فإن كان قد نصر المؤمنين لأنهم مؤمنون، كان هذا موجباً لنصرهم حيث وجد هذا الوصف، بخلاف ما إذا عصوا ونقضوا إيمانهم كيوم أحد فإن الذنب كان لهم، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿ ... وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً (٦٢) ﴾[الأحزاب: ٦٢]، [الفتح: ٢٣] فعم كل سنة له..)أهـ[١].

٢ـ إن اللّه لا يغير ما بقوم حتىٰ يغيروا ما بأنفسهم.

تعتبر هذه السنة من السنن الخالدة التي يتحمل البشر في ضوئها مسؤوليتهم فيما يقع لهم من خير أو شر؛ لأن الله عز وجل قد منح الإنسان قدراً من الحرية والاختيار، وشرح له أسباب النجاة وأسباب الهلاك، وأنزل عليه الكتب، وأرسل إليه الرسل. منه يبدأ التغيير: سواء إلىٰ الشر أو إلىٰ الخير. فإن كان الناس في شر وبلاء فإن الله عز وجل لا يزيل هذا الشر عنهم إلا بأن يأخذوا بأسباب النجاة فيغيروا ما بأنفسهم بطاعة الله عز وجل وترك معاصيه التي هي أصل الشر والمصائب. وعلىٰ العكس من ذلك: لو كان الناس في خير ونعمة ورخاء فإن حرمانهم من هذا الخير وحصول الشر لهم بعده إنما يأتي من أنفسهم حين يفرطون في طاعة الله ولا يشكرونه قال تعالىٰ: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢) ﴾ [النحل: ١١٢].

---

(١) جامع الرسائل والمسائل ١ / ٥٤.

وإنه لجدير بالدعاة إلىٰ الله عز وجل في هذا الزمان وفي كل زمان أن يقفوا طويلاً عند هذه السنة؛ فهي الأساس المهم والمنهج الصحيح للدعوة والتغيير، بل هي أم السنن الربانية في البناء والتغيير.

٣ـ الابتلاء سنة جارية للمؤمنين.

وهذه السنة من الوضوح بحيث لاتحتاج إلىٰ تعليق، حيث تواردت بها الأدلة الكثيرة من القرآن والسنة، وحيث الوقائع والتجارب في حياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأتباعهم تشهد بذلك. ويكفي قوله تعالىٰ: ﴿ **الم (١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (٣)** ﴾ [العنكبوت: ١ – ٣].

وقوله تعالىٰ: ﴿ **أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (٢١٤)** ﴾ [البقرة: ٢١٤].

وعن مصعب بن سعد عن أبيه قال: قلت يا رسول الله أي الناس أشد بلاء؟ قال: «**الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، فيبتلىٰ الرجل علىٰ حسب دينه، فإن كان في دينه صلباً اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلي علىٰ حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتىٰ يتركه يمشي علىٰ الأرض ما عليه خطيئة**»[١].

---

(١) الترمذي: (٢٤٠٠) في كتاب الزهد باب ما جاء في الصبر علىٰ البلاء. وقال: حسن صحيح وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٠٠٣).

وحكمة هذا الابتلاء عظيمة وفوائده في التربية والتمحيص وتمييز الصفوف معروفة، وعلىٰ هذا ينبغي أن توطن النفوس علىٰ هذه السنة مع سؤال الله عز وجل العافية والثبات(١).

كما يدخل تحت هذه السنة سنة المداولة بين الناس من الشدة إلىٰ الرخاء ومن الرخاء إلىٰ الشدة ومن إدالة الكفار علىٰ المسلمين للتمحيص والابتلاء.

قال تعالىٰ: ﴿ ... وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ... ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

٤- انهيار الأمم الظالمة وزوالها يكون بأجل:

يقول الدكتور السلمي عن هذه السنة: (قد يرىٰ الناس موجبات العذاب والانهيار قد حلت بأمة من الأمم ثم لا يرون زوالها بأنفسهم. وقد أوضحنا في أول الكلام عن السنن أن سنة الله لا تتخلف. لكن عمرها أطول من عمر الأفراد ولا تقع إلا بأجل محدد لا بد من استيفائه. قال تعالىٰ: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الأعراف: ٣٤]. وقال تعالىٰ: ﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴿٥﴾ ﴾ [الحجر: ٤، ٥]. وقال تعالىٰ: ﴿ وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِداً ﴿٥٩﴾ ﴾ [الكهف: ٥٩])أهـ(٢).

---

(١) انظر للمزيد حول هذه السنة (المعلم الرابع) ص ١٦١.

(٢) منهج كتابة التاريخ الإسلامي ص ٦٦.

٥- سنة التدافع وسنة الصراع بين الحق والباطل:

وهذه السنة أيضاً من أهم السنن الربانية التي يجب الوقوف عندها وعدم نسيانها أو الغفلة عنها. والمتأمل في دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مع أقوامهم يلمس هذه السنة بوضوح وجلاء؛ قال الله تعالىٰ بعد أن انتصر المسلمون بقيادة طالوت وقتل داود جالوت (الكافر): **﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٢٥١) ﴾** [البقرة: ٢٥١]. وقال تعالىٰ بعد إذنه سبحانه للمؤمنين بالقتال: **﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) ﴾**.
[الحج: ٣٩، ٤٠]

والصراع والمدافعة بين الحق والباطل وجد منذ أن أهبط آدم عليه الصلاة والسلام علىٰ هذه الأرض ومعه إبليس - الملعون - أعاذنا الله منه. واقتضت حكمة الله عز وجل أن يستمر هذا الصراع إلىٰ أن يرث الله الأرض ومن عليها بين حزب الله عز وجل وحزب الشيطان. وليس بالضرورة أن تكون المدافعة أو أن يكون الصراع بالقتال والسلاح. بل إنه يكون بغير ذلك، وما القتال إلا مرحلة من مراحل هذا الصراع. فإقامة الحجة علىٰ الباطل وأهله مدافعة، وإزالة الشبه عن الحق وأهله مدافعة، والأمر بالمعروف والنهي عن

المنكر مدافعة، والصبر علىٰ ابتلاء الأعداء من الكفرة والظلمة مدافعة وصراع. ويأتي الجهاد والقتال في سبيل الله عز وجل علىٰ رأس وذروة هذه المدافعة والصراع فيقذف الله بالحق علىٰ الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق. ومادام هناك حق وباطل فالصراع موجود والمدافعة حتمية. وهذا الصراع لصالح البشرية وخيرها ولو كان فيه من العناء والشدة والمكاره؛ فإن هذه المشقات كلها تهون وتصغر عند المفاسد العظيمة التي تنشأ فيما لو لم يكن هناك دفع للفساد وصراع مع الباطل. كما مر بنا في قوله تعالىٰ: ﴿ ... وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ ... ﴾ [البقرة: ٢٥١] وهذا يفرض علىٰ أهل الحق السير علىٰ هذه السنة، وبذل الجهد الجهيد في مدافعة الباطل وأهله، وإحقاق الحق وتمكين أهله، ورد البشرية الشاردة إلىٰ عبودية الله عز وجل وتوحيده، وإنقاذها من الشرك ومفاسده، وهذا هو التدافع الذي يعنيه القرآن وقام به أنبياء الله ورسله عليهم الصلاة والسلام. إنه الصراع الذي يزيل الفتنة بكل أشكالها، ويحرر البشر من عبادة غير الله عز وجل، ويخرجهم من الظلمات إلىٰ النور. قال تعالىٰ: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا (٧٦) ﴾ [النساء: ٧٦].

إن الذين يطمعون في الإصلاح ودرء الفساد عن الأمة بدون هذه السنة – أعني سنة المدافعة مع الباطل وأهل الفساد – إنهم يتنكبون منهج الأنبياء في الدعوة إلىٰ الله عز وجل الذي ارتضاه واختاره لهم. وإن الذين يؤثرون السلامة والخوف من عناء المدافعة مع الفساد وأهله. إنهم بهذا التصرف لا

يسلمون من العناء والمشقة – بل إنهم كما مر بنا سابقاً – يقعون في مشقة أعظم وعناء أكبر يقاسونه في دينهم وأنفسهم وأعراضهم وأموالهم. وهذه هي ضريبة السكوت وفساد التصور وإيثار الحياة الدنيا؛ لأن الباطل والفساد لا يقبل في الأصل وجود الحق وأهله المصلحين ولا يطيق وجودهم معه ولو كانوا معتزلين له. فهو يفرض المعركة(١) والصراع عليهم فرضاً، ولا يقبل منهم إلا الدخول معه في باطله – عياذاً بالله تعالىٰ – أو الخروج من أرضه وعدم معايشته. كما قص علينا ربنا عز وجل قصة شعيب عليه الصلاة والسلام مع قومه وصراعه معهم. قال الله تعالىٰ عن شعيب عليه الصلاة والسلام أنه قال: ﴿ وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٧) قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ (٨٨) قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (٨٩) ﴾.

[الأعراف: ٧٨ – ٨٩]

وحول المعاني المطروحة سابقاً وفي ضوء هذه الآيات الكريمات يتحدث

---

(١) عندما يطلق لفظ (الصراع) أو (المعركة) مع الباطل وأهله فلا يعني بالضرورة صراع القتال والصدام، بل إنه يعني أول ما يعني الثبات علىٰ الحق والصدع به والصبر علىٰ أذىٰ الباطل وأهله فيه حتىٰ يحكم الله عز وجل. والناظر في صراع الأنبياء مع أقوامهم يجده من هذا القبيل في الغالب، وخاصة في مراحل الاستضعاف وعدم القدرة.

سيد قطب رحمه الله تعالىٰ فيقول: (لقد دعاهم إلىٰ أعدل خطة. ولقد وقف عند آخر نقطة لا يملك أن يتراجع وراءها خطوة.. نقطة الانتظار والتريث والتعايش بغير أذىٰ، وترك كلٌ وما اعتنق من دين، حتىٰ يحكم الله وهو خير الحاكمين.

ولكن الطواغيت لا يرضيهم أن يكون للإيمان في الأرض وجود ممثل في جماعة من الناس لا تدين للطاغوت.. إن وجود جماعة مسلمة في الأرض لا تدين إلا لله ولاتعترف بسلطان إلا سلطانه، ولا تحكم في حياتها شرعاً إلا شرعه، ولا تتبع في حياتها منهجاً إلا منهجه.. إن وجود جماعة مسلمة كهذه يهدد سلطان الطواغيت – حتىٰ لو انعزلت هذه الجماعة في نفسها، وتركت الطواغيت لحكم الله حين يأتي موعده.

إن الطاغوت يفرض المعركة فرضاً علىٰ الجماعة المسلمة – حتىٰ لو آثرت هي ألا تخوض معه المعركة – إن وجود الحق في ذاته يزعج الباطل. وهذا الوجود ذاته هو الذي يفرض عليه المعركة مع الباطل.. إنها سنة الله لا بد أن تجري..

﴿ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ... ﴾ [الأعراف: ٨٨].

هكذا في تبجح سافر، وفي إصرار علىٰ المعركة لا يقبل المهادنة والتعايش!

إلا أن قوة العقيدة لا تتلعثم ولا تتزعزع أمام التهديد والوعيد.. لقد

وقف شعيب عليه السلام عند النقطة التي لا يملك أن يتزحزح وراءها خطوة.. نقطة المسالمة والتعايش – علىٰ أن يترك لمن شاء أن يدخل في العقيدة التي يشاء؛ وأن يدين للسلطان الذي يشاء: في انتظار فتح الله وحكمه بين الفريقين – وما يملك صاحب دعوة أن يتراجع خطوة واحدة وراء هذه النقطة، تحت أي ضغط أو أي تهديد من الطواغيت..وإلا تنازل كلية عن الحق الذي يمثله وخانه.. فلما أن تلقىٰ الملأ المستكبرون عرضه هذا بالتهديد بالإخراج من قريتهم أو العودة في ملتهم، صدع شعيب بالحق، مستمسكاً بملته، كارهاً أن يعود في الملة الخاسرة التي أنجاه الله منها، واتجه إلىٰ ربه وملجئه ومولاه يدعوه ويستنصره ويسأله وعده بنصرة الحق وأهله:

﴿ ... قَالَ أَوَ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَىٰ اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَىٰ اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الأعراف: ٨٨، ٨٩].

وفي هذه الكلمات القلائل تتجلىٰ طبيعة الإيمان ومذاقه في نفوس أهله، كما تتجلىٰ طبيعة الجاهلية ومذاقها الكريه. كذلك نشهد في قلب الرسول ذلك المشهد الرائع.. مشهد الحقيقة الإلهية في ذلك القلب وكيف تتجلىٰ فيه.

﴿ قَالَ أَوَ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴾

يستنكر تلك القولة الفاجرة: ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا

مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ . . .

يقول لهم: أتجبروننا علىٰ ما نكره من ملتكم التي نجانا الله منها؟!

﴿ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا ﴾

إن الذي يعود إلىٰ ملة الطاغوت والجاهلية، التي لا يخلص فيها الناس الدينونة والطاعة لله وحده، والتي يتخذ الناس فيها أرباباً من دون الله يقرون لهم بسلطان الله.. إن الذي يعود إلىٰ هذه الملة – بعد إذ قسم الله له الخير وكشف له الطريق، وهداه إلىٰ الحق وأنقذه من العبودية للعبيد – إنما يؤدي شهادة كاذبة علىٰ الله ودينه. شهادة مؤداها أنه لم يجد في ملة الله خيراً فتركها وعاد إلىٰ ملة الطاغوت! أو مؤداها – علىٰ الأقل – أن لملة الطاغوت حقاً في الوجود، وشرعية في السلطان؛ وأن وجودها لا يتنافىٰ مع الإيمان بالله. فهو يعود إليها ويعترف بها بعد أن آمن بالله.. وهي شهادة خطيرة أخطر من شهادة من لم يعرف الهدىٰ، ولم يرفع راية الإسلام. شهادة الاعتراف براية الطغيان. ولا طغيان وراء الاعتداء علىٰ سلطان الله في الحياة!

وكذلك يستنكر شعيب عليه السلام ما يتهدده به الطغاة من إعادته هو والذين آمنوا معه إلىٰ الملة التي أنجاهم الله منها:

﴿ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا ﴾

وما من شأننا أصلاً؛ وما ينبغي لنا قطعاً أن نعود فيها.. يقولها وأمامه التهديد الذي يزاوله الطاغوت في كل أرض مع الجماعة المسلمة التي تعلن

خروجها عن سلطانه، ودينونتها لله وحده بلا شريك معه أو من دونه.

إن تكاليف الخروج من العبودية للطاغوت والدينونة لله وحده - مهما عظمت وشقت - أقل وأهون من تكاليف العبودية للطواغيت! إن تكاليف العبودية للطواغيت فاحشة - مهما لاح فيها من السلامة والأمن والطمأنينة علىٰ الحياة والمقام والرزق! - إنها تكاليف بطيئة طويلة مديدة! تكاليف في إنسانية الإنسان ذاته. فهذه ‹الإنسانية› لا توجد، والإنسان عبد للإنسان - وأي عبودية شر من خضوع الإنسان لما يشرعه له إنسان؟!.. وأي عبودية شر من تعلق قلب إنسان بإرادة إنسان آخر به ورضاه أو غضبه عليه؟!.. وأي عبودية شر من أن تتعلق مصائر إنسان بهوىٰ إنسان مثله ورغباته وشهواته؟! وأي عبودية شر من أن يكون للإنسان خطام أو لجام يقوده منه كيفما شاء إنسان؟!

علىٰ أن الأمر لا يقف عند حد هذه المعاني الرفيعة.. إنه يهبط ويهبط حتىٰ يكلف الناس - في حكم الطواغيت - أموالهم التي لا يحميها شرع ولا يحوطها سياج كما يكلفهم أولادهم إذ ينشئهم الطاغوت كما شاء علىٰ ما شاء من التصورات والأفكار والمفهومات والأخلاق والتقاليد والعادات. فوق ما يتحكم في أرواحهم وفي حياتهم ذاتها، فيذبحهم علىٰ مذبح هواه، ويقيم من جماجمهم وأشلائهم أعلام المجد لذاته والجاه! ثم يكلفهم أعراضهم في النهاية.. حيث لا يملك أب أن يمنع فتاته من الدعارة التي يريدها بها الطواغيت، سواء في صورة الغصب المباشر - كما يقع علىٰ نطاق واسع علىٰ مدارالتاريخ - أو في صورة تنشئتهن علىٰ

تصورات ومفاهيم تجعلهن نهباً مباحاً للشهوات تحت أي شعار! وتمهد لهن الدعارة والفجور تحت أي ستار.. والذي يتصور أنه ينجو بماله وعرضه وحياته وحياة أبنائه وبناته في حكم الطواغيت من دون الله. إنما يعيش في وهم، أو يفقد الإحساس بالواقع!)أهـ[1].

* * *

(١) في ظلال القرآن: ٣/١٣١٨، ١٣١٩.

الخاتمة

وبعد هذه الجولة السريعة في حياة أكرم البشر، وأحبهم إلىٰ الله تعالىٰ صلىٰ الله وسلم عليهم أجمعين، فإني أسجل اعترافي بالقصور الشديد نحوهم، فما وفيتهم حقهم، ولا قدرتهم حق قدرهم، وأسأل الله عز وجل أن يغفر لي بعدي عن هديهم وحياتهم، وأن يتجاوز عني كل ما زلّ به القلم أو اللسان في هذا البحث نحوهم. كما نسأله جميعاً أن يعيننا علىٰ التأسي بهم، واللحوق بركبهم الكريم، ثم إني لا أدعي أني أحطت بكل هديهم، ومن ذا الذي يقدر علىٰ ذلك؟! وإنما كل الذي ذكرته، إنما هو غيض من فيض، وقطرة من بحر هديهم صلىٰ الله عليهم وسلم. ولكن حسبي إثارة هذا الموضوع المهم والتذكير به، لعل بعض علمائنا الكرام، ودعاتنا الأفاضل أن يكملوا ما نقص في هذه الرسالة ويعدلوا ما اعوجّ منها، أو يضيفوا إليها ما غفل الذهن عنه.

وفي ختام هذا البحث يمكن تلخيص أهم المسائل التي مرت بنا في النقاط التالية:

(١) ضرورة الاهتمام بهدي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ سواءً في صلتهم بالله عز وجل وقوة عبادتهم وكثرة دعائهم وتضرعهم وهضمهم لأنفسهم، أو في قوة توكلهم واستسلامهم لله عز وجل، أو في أخلاقهم وسلوكهم، أو في دعوتهم وتبليغهم لدين الله عز وجل؛ لأن الاهتمام بذلك يورث التأسي بهم، وهذا يفيد في ثلاثة أمور:

الأمر الأول: إن في التأسي بهم والاقتداء بهديهم عصمة في الدنيا من الزلل والتخبط والانحراف؛ وذلك لعصمة منهجهم لأنه وحي من الله عز وجل، مع ما في ذلك من التسلية والتعزي والثبات لمن يواجه ما واجهوا من الأذىٰ والابتلاء.

الأمر الثاني: إن في التأسي بهم ومجاهدة النفوس في اللحوق بهم دليلاً علىٰ محبتهم. وذلك من أعظم الأسباب في الحشر معهم، ومرافقتهم في الجنة، وحسن أولئك رفيقا.

الأمر الثالث: إن في دراسة هذه الحياة المباركة هضماً للنفس واحتقاراً لها؛ وذلك عندما يرىٰ هؤلاء الرسل الكرام وهم صفوة الناس وأحبهم إلىٰ الله عز وجل، وقد ضمنت لهم الجنة، ومع ذلك فهم يهضمون أنفسهم وهم علىٰ هذا المستوىٰ العظيم الرفيع في صلتهم بالله عز وجل وفي توكلهم عليه سبحانه وفي صبرهم.. إلخ. كل هذا يؤدي بدوره إلىٰ قمع مرض العجب والغرور ورؤية النفس.

(٢) لقد برز من خلال هدي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في قوة عبادتهم ودعائهم وكثرة ذكرهم لله عز وجل أهمية هذا الجانب في حياة الداعية المصلح، وأنه لا بد له من هذا الزاد العظيم الذي يقربه إلىٰ الله عز وجل، ويؤنسه في غربته، ويثبته الله به في شدائده وبلائه. وأنه لا عذر لنا في إهمال هذا الرافد العظيم والزاد المتين مهما كانت المشاغل والمطالب. فمن ذا الذي يكون أكثر شغلاً وهماً وعملاً ودعوة من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؟.

(٣) كما برز لنا من خلال هديهم عليهم الصلاة والسلام في الأخلاق والسلوك أهمية هذا الجانب في حياة الداعية، وأن ضعف هذا الجانب أو إهماله سبب لقلة البركة وتباطؤ الناس وقلة استجابتهم؛ وذلك لرؤيتهم التناقض بين ما يدعو إليه الداعية وبين أخلاقه وسلوكياته الخاطئة. فحريٌّ بالدعاة في كل مكان أن يولوا هذا الجانب اهتماماً عظيماً في أنفسهم ودعوتهم وتربيتهم.

(٤) كما برز لنا أيضاً من خلال هدي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في الدعوة إلىٰ الله عز وجل أهمية العقيدة والدعوة إلىٰ التوحيد والموالاة والمعاداة علىٰ أساسها، وبالتالي فإن أي دعوة لم تول هذا الجانب اهتماماً في دعوتها أو أنها لم تجعله أول ما تدعو إليه وتربي الناس عليه؛ فإنها دعوة فاشلة؛ لأنها خالفت منهج الأنبياء وهديهم عليهم الصلاة والسلام في الدعوة والتبليغ. كما ظهر لنا أهمية التربية الطويلة علىٰ ذلك وبناء القاعدة الصلبة وتربيتهم علىٰ ضوئها ولو طال الطريق والوقت في ذلك.

(٥) كما برز لنا من دراسة هذه الحياة المباركة ذلك الجهد الجهيد والصبر المرير والعمل الدؤوب من أنبياء الله ورسله عليهم الصلاة والسلام في هداية الناس وتعبيدهم لرب العالمين والشفقة عليهم من عذاب الله تعالىٰ، وهكذا ينبغي أن يكون شأن الدعاة في كل زمان وخاصة في أزمنة الغربة وكيد الأعداء المتواصل بالليل والنهار؛ فطريق الدعوة طريق الابتلاءات والشدائد. وهذا ما ظهر لنا من معاناة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. ولكنه محمود العاقبة في الدنيا والآخرة.

(٦) وقد ظهر لنا أيضاً من خلال هذه الدراسة: الضرورة القصوىٰ

لائتلاف الدعاة إلىٰ الله عزجل، وعقد الولاء والبراء بينهم علىٰ أساس الإسلام وعقيدته السامية لا علىٰ عصبيات وحزبيات وأهواء، وأنه بدون ذلك فلا يطمع في نصر الله عز وجل ولا تمكينه؛ لأن اجتماع القلوب وتآلفها علىٰ أساس الإسلام أمر ضروري للتمكين والنصر. ولذا ينبغي العمل المستمر علىٰ تحقيق هذه الفريضة والصبر عليها وعدم الالتفات إلىٰ من يهوِّن من شأنها أو يصرُّ علىٰ هوىً في نفسه يلبسه لبوساً شرعياً يبرر به تبديعه أو تفسيقه لإخوانه الدعاة؛ وبالتالي يبرر به مفارقته لهم وجعله نفسه في صف الظالمين ضدهم.

(٧) كما ظهر لنا من خلال هذه الدراسة خطورة الاستعجال في قطف الثمار قبل أوانها والمفاسد الكبيرة التي تترتب علىٰ الاستعجال ولَّما تستقر بعد العقيدة في نفوس أهلها الداعين لها فضلاً عن عامة الناس. وأن المتعين هو الصبر والصفح، ومواصلة الدعوة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبذل الوسع في ذلك، حتىٰ إذا تهيأ الجو والحال الذي يعلم الله سبحانه فيه استحقاق عباده للنصر فسيأتي الله عز وجل بنصره متىٰ شاء وكيفما شاء وهو العليم الحكيم القوي العزيز.

(٨) كما ظهر لنا قبل ذلك وبعده: أثر الإخلاص لله عز وجل في الدعوة إليه سبحانه وعدم ابتغاء الأجر إلا منه سبحانه وهذا يفرض علىٰ الدعاة الحذر من إرادة الدنيا بدعوتهم، كما يفرض الحذر من مساومات أعداء الدعوة ومكرهم وإغراءاتهم بالمناصب وغيرها ليترك الدعاة ما هم عليه من الحق أو يتنازلوا عنه، أو يحرفوه عن مواضعه ويتأولوه؛ انسياقاً مع شهوة النفس وهواها.

(٩) وأخيراً أتوجه بالنصيحة لنفسي ولكل مسلم، بعامة وكل داعية بخاصة إلى أن نكون من أنصار الله عز وجل وحزبه الكريم، وأن نوقن بأن الصراع والمدافعة بين الحق والباطل من السنن الربانية التي لا تتخلف والتي تظهر اليوم بشكل جلي لا مرية فيه، وإن المسلم بتخلفه عن هذه المدافعة لن يضر إلا نفسه ولن يضر دين الله سبحانه؛ لأن المدافعة ماضية ومستمرة به أو بغيره، ولكن السعيد من فاز بنصيب وافر من نصرة دين الله وحزبه المؤمن، والمخذول من تخاذل أو خذل حزب الله سبحانه، أو وقف موقف المتفرج المتربص.

* * *

وبعد

نسأل الله عز وجل بأسمائه الحسنىٰ وصفاته العلا، كما نسأله سبحانه بحب أنبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام، أن يحشرنا في زمرتهم ويكتب لنا مرافقتهم في جنات النعيم ﴿ **وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا** (٦٩) ﴾ [النساء: ٦٩]. وهذا هو جهد المقل الظالم القاصر فما كان فيه من صواب فمن الله سبحانه فهو المانُّ به وحده، وما كان فيه من خطأ فمن نفسي والشيطان وأستغفر الله وأتوب إليه، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

ليلة الثلاثاء

٢٩/٢/١٤١٧هـ

فهرس المجلد الرابع

الرسالة الحادية عشرة

(فبهداهم اقتده)

الموضوع — الصفحة

المقدمة ٥
المبحث الأول: لماذا ندرس حياة الأنبياء عليهم السلام ١٥
المبحث الثاني: خصائص الأنبياء عليهم الصلاة السلام ٢٧
المبحث الثالث: دين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام واحد ودعوتهم واحدة ٤١
المبحث الرابع: من جوانب الاقتداء بهدي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ٥١
الجانب الأول: هديهم في قوة العلم وأثر ذلك في صدق الإيمان وكمال التوحيد ٥٣
١- شدة تعظيمهم لله عز وجل وخوفهم منه ٥٦
٢- كثرة ذكرهم لله وشدة تضرعهم ودعائهم له وقوة عبادتهم ٦٩
٣- كمال توكلهم على الله واستعمانتهم به وحده ورضاهم بحكمه وشجاعتهم ٨٠
أ- أمثلة في الشجاعة والثبات ٨١
ب- امثلة في حسن الظن بالله والرضا بحكمه ٨٥
جـ- امثلة في الاستعانة بالله عز وجل والتبرؤ من الحول والقوة ٩٤
الجانب الثاني: من هديهم عليهم الصلاة والسلام في السلوك والأخلاق ٩٧
١- النصح والرحمة بالناس والشفقة عليهم من عذاب الله ٩٨
٢- الصبر والتقوى ١٠٦
٣- الكرم والوفاء والشجاعة ١١٧
٤- التأسي بهم في الهدي الظاهر ١٢٥
الجانب الثالث: من هديهم عليهم الصلاة والسلام في الدعوة والتبليغ ١٢٧
- المُعلم الأول: العقيدة أولا ١٢٨
- المُعلم الثاني: الولاء والبراء على أساس العقيدة ١٤٣
- المُعلم الثالث: الإخلاص وابتغاء الأجر من الله ١٥٦
- المعلم الرابع: التعرض للأذى ١٦١
- المعلم الخامس: التدرج في الدعوة ومراعاة المصالح والمفاسد ١٨١
المعلم السادس: مراعاة السنن الربانية ٢٠٣
الخاتمة ٢١٩